

International Islamic University

Islamabad

Faculty of Islamic Studies

Religion and Philosophy Department



الجامعة الإسلامية العالمية

إسلام آباد

كلية أصول الدين

قسم العقيدة والفلسفة

تزكية النفس الإنسانية في فكر الشيخ محمد متولي الشعراوي

" دراسة تحليلية "

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في العقيدة والفلسفة

إعداد الباحث

عبد الرحمن أشرف عبد الرافع الدرفيلي

رقم تسجيل 002580/MSUD/S24

تحت إشراف

(حفظه الله تعالى)

الدكتور عبد الوهاب جان

استاذ مساعد بقسم العقيدة والفلسفة

العام الجامعي ٢٠٢٥ - ٢٠٢٦

شكر وتقدير

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وبفضله تنزل التوفيقات ، خلق كل شيء بقدرته ، ودبر الأمر بحكمته والصلاة والسلام على سيدنا محمد الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، الذي قال: " مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ " وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه واقتفى أثره إلى يوم الدين .

وبعد ، فإنني أحمد الله تعالى حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، حمداً يوافي نعمه الماضية واللاحقة في كل وقت وحين ، على ما أولاني من عونهِ وتيسيره وهدايته وتوفيقه في إنجاز هذه الرسالة المتواضعة ، ولقد أيقنت خلال هذا العمل صدق قوله تعالى { وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ } وأدركت نعمة الاستعانة به واللجوء إليه في كل خطوة ، فله سبحانه وتعالى وحده الفضل أولاً وآخراً ، ظاهراً وباطناً .

ويسعدني بعد حمد الله تعالى وشكره ، وتنفيذاً لقول الله تعالى { هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ } أن أرفع أسمى آيات التقدير والعرفان إلى أستاذي وشيخي المشرف الكريم الذي كان - بعد الله عز وجل - الركن المتين الذي أستند إليه في فهمي وبحثي، والمتابع الحصيف لمسار العمل العلمي في مختلف مراحلهِ، لقد كان مثلاً للأستاذ العالم المربي، جمع بين دقة العلم ورسالة المنهج ، فضيلة الشيخ الدكتور عبد الوهاب جان (حفظه الله تعالى) حيث كان وما زال السند الذي أستضيء برأيه ، وأهتدي بتوجيهاته ، وأستفيد من علمه الغزير ونصائحه القيمة ، وأولاني من وقته وجهده ، ومتابعته العلمية الرصينة وملاحظاته الدقيقة ، ما أسهم في انضاج هذا البحث وخروجه بالصورة الحسنة المرضية ، ولقد جسد في تعامله قول النبي ﷺ : " إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ " فكان مفتاحاً للخير ، دالاً عليه ، مشجعاً على البحث والتحصيل ، متمسكاً في كل هذا بالصبر والحلم وتواضع العلماء وشفقة الوالدين ورحمتهم بأبنائهم ، فجزاه الله عني وعن طلبة العلم خير الجزاء ، وبارك في علمه وعمره وجهده ، ومتعه بموفقور الصحة والعافية .

وما الأستاذُ إلا نُورٌ علمٍ إذا غابتْ شمسُ العلمِ لاحا

يزكي النفسَ بالتقوى ويهدي خطى الطلابِ إذ يمشون ضاحا

كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى السادة العلماء الأكارم بقسم العقيدة والفلسفة في كلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية العالمية - إسلام آباد ، الذين تفيض قلوبهم علماً ووقاراً ومحبة ، وتتحدى مجالسهم بالمهابة والسكينة ، لما قدموه من جهود علمية وتوجيهات أكاديمية رصينة منذ اللحظة الأولى لاختيار موضوع هذا البحث ، وما بذلوه من جهد مضني في التوجيه والإرشاد والنصح ، وما أتاحوه لنا من مناخ أكاديمي خصب يسهم في ترسيخ قيم البحث والنظر والاجتهاد ، لقد كانوا - بحق - أهل علم وفضل ، وقد زين الله وجوههم بأنوار المعرفة ، فحق فيهم قول الله تعالى { يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } ولا يفوتني أن أشكر إدارة الكلية وأسانتتها الكرام على ما بذلوه من دعم وتيسير لمسيرة الدارسين العلمية والأكاديمية ، وهو ما يُرسخ مكانة الكلية كمنارة من منارات العلوم الشرعية عالمياً .

وبيلغ الامتتان والثناء ذروته حين أرفع أكف الشكر والدعاء والثناء إلى والدي الكريمين اللذين كانا - بعد الله - زاد روحي وسند قلبي ، وأصل الفضل والمدد ، ومصدر الخير والبركة ، وقدوة الصبر والبذل والعطاء ، بهما انتفس وأبصر وأسعى في ضروب الحياة .

إلى والدتي العزيزة منبع الخير التي كانت دائماً مصدر دعائي وسندي .
إلى والدي الكريم الذي غرس في نفسي الجد والاجتهاد والصبر والمصابرة وحب العلم والسعي إليه .
فلهما مني أصدق مشاعر البر والعرفان والشكر ، ولا أوفي حقهم إلا باللجوء إلى الله لهم بالدعاء {وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا
كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا }
ولقد صدق الشاعر حين قال : لولاكم ما ارتقت نفسي لمطلبها ولا سميت في سماء العلم أفكارى

أسأل الله أن يجزيهما عني خير الجزاء ، وأن يبارك لهما في عمرهما وصحتهما ، وأن يجعل ما قدماه لي من دعم
ودعاء في ميزان حسناتهما .

كما أخص بالشكر إخوتي الأعزاء ، سندي وعضدي - بعد الله تعالى - الذين كانوا على الدوام مصدر الدعم
والمساندة لي في مسيرة العلم والعمل والحياة ، ونعم العون والدعم النفسي في لحظات الحاجة والتعب والإنجاز ،
فبهم يأنس القلب ، ومعهم يكتمل العطاء الأسري الذي يعين على مواجهة مشاق الطريق ، إلى أخي محمد أسد الله
وأختي أم أحمد وأخي محمود ، أسأل الله أن يجزيهم عني خير الجزاء والثواب

وإلى زوجتي شجرة الزينب الفاضلة الخلقة الصابرة المحمودة المباركة ، أتقدم بأصدق آيات الامتنان والتقدير والوفاء
والمحبة ، فهي شريكة مسيرة الرحلة العلمية ، ورفيقة درب الحياة ، بثباتها وصبرها ودعمها حظيت هذه الرسالة ببيئة
من الطمأنينة والسكينة ، وقد كانت نعم الرفيق الذي صدق فيها قول النبي ﷺ : " خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ " وكانت
كلماتها بلسماً يُحيي العزم إذا فتر ، ودعاؤها نوراً يفتح أبواب التوفيق إذا ضاق المسير ، فأسأل الله أن يجزيها عني
خير الجزاء ، وأن يجعل ما بذلته في ميزان حسناتها يوم القيامة .

أسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به ، وأن يجزي أهل الفضل جميعاً خير ما يجزي به
أهل العلم والإحسان ، وأن يجعله لبننة في خدمة العلم الشرعي ، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الباحث

عبد الرحمن أشرف عبد الرافع الدرفيلي

تزكية النفس الإنسانية في فكر الشيخ محمد متولي الشعراوي (دراسة تحليلية)

خطبة البحث : إنّ الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم رسله سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه وسار على سنته ومنهجه إلى يوم الدين .

مقدمة البحث :

لقد ذكر القرآن الكريم العديد من الآيات التي تبين أهمية تزكية النفس لأن في ذلك فلاحها ونجاحها ونجاتها وفوزها وسعادتها ، ومنها قوله تعالى {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} (١) وأكد القرآن بأن الله تعالى خلق النفس سوية معتدلة وترك لها خيار الفجور والتقوى ولكن الفلاح يكون لمن يزكى نفسه بتقوى الله تعالى ويجملها بطاعة الله ، وأبعدها عن المعصية والنقائص ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (٢)

قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (٣) وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم : "اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها" (٤) ونستطيع أن نقف على مفهوم تزكية النفس عند الشعراوي من خلال تفسيره لقول الله تعالى {تَطَهَّرْهُمْ وَتَزَكِّيهِمْ} (٥) ومن خلال قول الله تعالى {قد أفلح من زكاها} (٦) أي نَمَى ملكة الخير فيها ورقاها وصعداها ذلك العمل ، فحين تزكي ترقى ملكة الخير في نفسك .

ثم يبين في تفسيره لقول الله تعالى {ألست بربكم} (٧) بأن النفس مفطورة على التزكية وأن رسالات الله إلى خلقه ما هي إلا تذكير بعهد الإيمان القديم الذي أخذه الله على عباده حين قال لهم بصيغة السؤال وليس الإخبار {ألست بربكم} أي أن في كل ذرة منا شهدت هذا العهد، ولحفظ إشراقات هذه الذرة في النفس فلا بد أن نغذيها بالحلال ونعوّدها على الطاعة لتبقى فيه إشراقات الإيمان كما قال ربنا {قد أفلح من زكاها}

اسباب اختيار الموضوع :

يتجلى سبب اختياري للموضوع هو ابراز رؤية الشيخ محمد متولي الشعراوي التي دونها في تفسيره ومؤلفاته والمنهج والأسس التي اعتمد عليها في تزكية النفس الإنسانية ورفيها المادي والمعنوي وفق مرتكز الإيمان بالله

أهداف الدراسة :

- ١ سورة الأعلى : آية رقم (١٤ - ١٧)
- ٢ سورة الشمس : آية رقم (٧ - ١٠)
- ٣ سورة النور : آية رقم (٢١)
- ٤ حديث شريف : إسناده صحيح ، أخرجه مسلم (٢٧٢٢) والنسائي (٥٤٥٨) والطبراني (٥٠٨٥) (٢٠١ / ٥) باختلاف يسير
- ٥ سورة التوبة : آية رقم (١٠٣) أنظر تفسير الشعراوي للآية الكريمة - المجلد التاسع - ص ٥٤٦٥ - ٥٤٧٤ بتصرف
- ٦ سورة الشمس : آية رقم (٧ - ١٠)
- ٧ أنظر : تفسير الشعراوي : وردت في سياق تفسير سورة الأعراف للآية رقم ١٧٢ المجلد السابع - طباعة أخبار اليوم - القاهرة - ٤٤٤٨

١- التعريف بفكر الشيخ محمد متولي الشعراوي وبيان منهجه والمصادر التي يستقي منها طرحه حول موضوع تزكية النفس الإنسانية .

٢- تزويد المكتبة الإسلامية ببحث علمي حول موضوع تزكية النفس الإنسانية في فكر الشيخ الشعراوي

٣- بيان وتحليل النصوص التي تضمنتها مؤلفات افهام محمد متولي الشعراوي حول النفس الإنسانية وسبل تزكيتها وفق منهج الكتاب والسنة النبوية .

٤- إبراز منهج الشيخ محمد متولي الشعراوي التي استقى منها فكره حول تزكية النفس .

الدراسات السابقة : تناولت بعض الدراسات البحثية - ماجستير ودكتوراه - دراسة فكر الشيخ محمد متولى الشعراوي في مجال التفسير وعلوم القرآن والجانب الإصلاحي والدعوي ورده على المستشرقين ودحض أقاويلهم ، وكذلك دراسة تتعلق بالجانب اللغوي والنحو ، ودراسة تتعلق بمنهجه في التفسير ، ثم دراسة تتعلق بترقية الذات الإنسانية في ضوء القصص القرآني دراسة تفسيرية ، ومن خلال البحث وعلى الشبكة العنكبوتية لم أجد دراسة تناولت موضوع الدراسة " تزكية النفس الإنسانية في فكر الشيخ محمد متولى الشعراوي " دراسة تحليلية

١- الشيخ محمد متولي الشعراوي وآرائه الكلامية في ضوء تفسيره سورة آل عمران - للباحثة أصالة صلاح ذياب - جامعة سامراء - العراق (دراسة تفسيرية)

٢- مباحث علوم القرآن عند الشيخ محمد متولي الشعراوي في تفسيره خواطري حول القرآن الكريم جمعاً ودراسة) للطالب عبد الله عماد هاتف - جامعة ديالى - العراق (دراسة تفسيرية)

٣- جهود الشيخ محمد متولي الشعراوي في الرد على دعاوى المستشرقين من خلال تفسيره: "الإعجاز العلمي للقرآن الكريم أنموذجاً" للباحث محمود رأفت - جامعة طنطا - مصر

٤- التفكير اللغوي عند الشيخ محمد متولي الشعراوي ... دراسة في تفسيره - للباحث العيد علاوي - جامعة محمد خيضر بسكره (دراسة لغوية)

٥- توظيف الشعراوي للقضايا النحوية في تفسيره سورتي البقرة وآل عمران - للباحثة ربا مروان حسن فلفل - جامعة العلوم الإسلامية بماليزيا (دراسة لغوية)

٦- ترقية الذات الإنسانية في ضوء القصص القرآني في تفسير الشيخ محمد متولي الشعراوي - للباحثة شيما حمد شهاب - جامعة ديالى - العراق (دراسة تفسيرية)

٧- الشيخ محمد متولي الشعراوي ومنهجه في التفسير - للباحث عثمان احمد عبد الرحيم القميحي - جامعة السلطان الشريف علي الإسلامية - بروناي (دراسة تفسيرية)

مقال : وهو مقال علمي منشور بمجلة علمية وليس دراسة بحثية (ماجستير - دكتوراه)

١- منهج الشيخ محمد متولي الشعراوي في تركية النفس البشرية من خلال تفسيره - د. أمنية محمد عبد الجواد
أبو يوسف - مجلة الدراسات التربوية والانسانية - كلية التربية - جامعة دمنهور المجلد العاشر - العدد
الرابع - الجزء الثالث - لسنة ٢٠١٨ (دراسات تربوية)

ويتضمن المبحث الأول : حياة الشيخ الشعراوي وسيرته العلمية

المبحث الثاني : مفهوم النفس البشرية عند الشيخ الشعراوي من خلال تفسيره

المبحث الثالث : طرق تركية النفس البشرية عند الشيخ الشعراوي من خلال تفسيره .

أولاً: تهذيب النفس بالعبودية لله تعالى ثانياً: التربية الإيمانية لتقويم السلوك الإنساني

ثالثاً : توجيه الدوافع والغرائز الإنسانية رابعاً : ضبط الانفعالات النفسية

خامساً : علاج آفات النفس البشرية

الفروق بين الدراسة الحالية والدراسات السابقة :

لم يتم تناول موضوع "تركية النفس الإنسانية في فكر الشيخ الشعراوي" كدراسة بحثية ، ولكن تناولت الدراسات السابقة موضوعات متنوعة في مجالات متعددة كالتفسير والدعوة والإصلاح التربوي واللغة العربية ، وبالنسبة للمقال البحثي السابق المدون بمجلة الدراسات التربوية (منهج الشيخ محمد متولي الشعراوي في تركية النفس البشرية من خلال تفسيره) فهي في إطار الدراسات التربوية وتناولت مسألة التهذيب والسلوك ومعالجة الحالات الانفعالية وكيفية ضبطها والدوافع الغريزية في إطار الدراسات التربوية ، ولكن لا توجد دراسة تناولت هذا الجانب كدراسة عقدية أو كلامية أو صوفية أو فلسفية .

اشكالية الدراسة :

كيف يمكن للإنسان أن يحقق تركية حقيقية لنفسه في ظل الصراع الداخلي بين قوى الخير والشر وتعدد المؤثرات النفسية والاجتماعية والبيئية التي تحول دون تركية النفس وصفاء القلب واستقامة السلوك الأخلاقي؟

تساؤلات الدراسة :

ترتكز الدراسة في معالجة ما تم ذكره سابقاً على طرح بعض التساؤلات التالية :

١- ما هو أثر البيئة والنشأة في التكوين العلمي والمعرفي للشيخ محمد متولي الشعراوي ؟

٢- ما هو مفهوم التركية والنفس في فكر محمد متولي الشعراوي ؟

٣- هل يرى الشعراوي أن تركية النفس هي تهذيب للسلوك فقط ؟ أم تطهير قلبي وروحي شامل؟

٤- ما هي الأسس والمقومات التي ارتكز عليها الشعراوي في تركية النفس ؟

منهجية البحث : فسوف اتبع المنهج التحليلي ، وذلك من أجل تحليل آرائه وأفكاره والكشف عن أكثر جوانب رؤيته حول تركية النفس الإنسانية بصورة أشد عمقاً ووضوحاً مع الموازنة بين آرائه وآراء غيره .

مكونات الدراسة :

الدراسة مكونة من مقدمة وفصل تمهيدي وأربعة فصول والخاتمة وقائمة المصادر والمراجع وفهرس بموضوعات الدراسة .

فصل تمهيدي : الشعراوي حياته وعصره ومؤلفاته :

المبحث الأول : الشعراوي مولده ونشأته وعصره

المبحث الثاني : المسيرة العلمية والثقافية للشعراوي ومؤلفاته .

الفصل الأول : مفهوم تزكية النفس في فكر الشعراوي وأقسامها .

المبحث الأول : مفهوم التزكية والنفس في فكر الشعراوي .

المبحث الثاني : العوامل المؤثرة في تكوين النفس في فكر الشعراوي

المبحث الثالث : أقسام النفس في فكر الشعراوي

الفصل الثاني: أمراض ومعوقات تزكية النفس في فكر الشعراوي

المبحث الأول : تزكية النفس بين المحمود والمذموم

المبحث الثاني : الغفلة والهوى والتقليد الأعمى

المبحث الثالث : تخلية النفس من الرذائل والأخلاق الذميمة

الفصل الثالث : تزكية النفس بالفضائل في فكر الشعراوي

المبحث الأول : المداومة على طاعة الله

المبحث الثاني : التخلق بالأخلاق الفاضلة

المبحث الثالث : كظم الغيظ والمعاملة بإحسان

الفصل الرابع : مقومات وأسس تزكية النفس في فكر الشعراوي

المبحث الأول : التوحيد الخالص لله رب العالمين والافتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم

المبحث الثاني : مجاهدة هوى النفس

المبحث الثالث : تزكية النفس بالعبادات (الصلاة - الزكاة - الصوم - الحج)

الخاتمة بأهم نتائج البحث :

قائمة المصادر والمراجع :

فهرس بموضوعات الدراسة :

فصل تمهيدي

الشعراوي حياته وعصره ومؤلفاته

تمهيد :

إن حركة الفكر لا يمكن أن تنفصل عن حركة الواقع وأحداث التاريخ ، وهذا جدير بالأمم الواعية أن تتدارس وتستذكر أفكار عظمائها ورجالها الذين عايشوا ظروفها ووعوا حاجاتها في فترة من الزمن ، وعملوا ما بوسعهم من أجل أن ينقلوا واقعها إلى مستقبل مشرق تصبوا إليه ، تاركين إشعاعات فكرهم النيرة على كل عمل يزاولونه وبصمات أصابعهم الواضحة في كل نشاط يشتركون فيه

لذا تُعدُّ دراسة الترجمة الذاتية للعلماء والمصلحين من أبرز المفاتيح المنهجية لفهم مؤلفاتهم ومواقفهم الفكرية فالسياقات التي نشأ فيها المفكر تُسهم بدرجة كبيرة في تشكيل المرتكزات الفكرية التي نتج عنها ما سطره ودونه من آراء وأفكار ، كما أن المحن والتجارب الشخصية تُلقي بظلالها على طبيعة تعامله مع النصوص الشرعية والواقع المجتمعي ، ولذلك فإن دراسة سيرة الشيخ محمد متولي الشعراوي تُعد مدخلاً لا غنى عنه لفهم مؤلفاته ومعرفة الدوافع التي حفّزته على إنجاز مشروعه الفكري ، وهذا ما إليه نبّه كبار العلماء والأصوليين إلى أهمية قراءة النصوص في ضوء النشأة والواقع الاجتماعي والمؤثرات الشخصية لأصحابها ، ولهذا كان علم "الرجال" و"الطبقات" في التراث الإسلامي أحد الشواهد الدالة على إدراك العلماء لأهمية الخلفية الذاتية في تشكيل الرأي والاجتهاد وتحليل الأفكار والآراء .

المبحث الأول

الشعراوي مولده ونشأته وعصره

المطلب الأول : الشعراوي مولده ونشأته

مولده : ولد الشيخ محمد متولي الشعراوي بقرية دقادوس (١) بمركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية في الخامس عشر من ابريل سنة إحدى عشر وتسعمائة وألف ميلادية (١٥ أبريل ١٩١١م) بمنزل والده بحارة الشيخ عبد الله الأنصاري وكان يلقب بين أبناء قريته باسم أمين .

ويذكر أن يوم ميلاده تأخر والده عن الذهاب إلى المسجد لصلاة الفجر فسأله خاله ما الذي أخرجك عن إدراك صلاة الفجر جماعة ، فقال ذهبت لإحضار الداية (٢) لأن الزوجة في حالة وضع ، فرد خال متولي وقال له : لقد رأيت الليلة رؤيا استيقظت منها على صلاة الفجر ، حيث رأيت كتكوتاً صغيراً فصيحاً يقف على هذا المنبر ويخطب في الناس ، وأشار بيده إلى منبر مسجد الشيخ عبد الله الأنصاري ، فقال له والد متولي لقد رزقني الله ولداً والله الحمد وسوف أهبه لتعلم القرآن وللأزهر ليكون عالماً (٣)

نشأته : تأثير النشأة على تكوين شخصية الفرد هو تأثير كبير وواسع النطاق ، فالبيئة التي يتربى فيها الطفل ، بما في ذلك الأسرة والمدرسة والمجتمع ، تلعب دوراً حاسماً في تشكيل قيمه ومعتقداته وسلوكياته وحتى صحته النفسية .

١ دقادوس : قرية صغيرة من قرى مدن الوجه البحري بمصر تابعة لمركز ميت غمر وتقع على نهر النيل شرقاً فرع دمياط وهي من القرى ذات العراقة التاريخية ، حيث كان اسمها في العصر الفرعوني "اتوكاتوس" وفي العصر اليوناني القبطي مشتق من "تي ثيوتوكوس" ومعناها "والدة الإله" حيث مرت بها اثناء رحلتها واستراحت بها العائلة المقدسة عدة أيام وقت هروبهم من فلسطين ومطاردتهم هرباً من الملك هيروودس الذي كان يسعى لقتل المسيح عليه السلام وفقاً لإنجيل متى [١] ، [٤]. فقد أوحى إلى يوسف النجار في المنام أن يأخذ الطفل - مريم والسيد المسيح - إلى مصر ، واشتهرت القرية دقادوس بصناعة تجليد الكتب وصناعة الحصر الريفي . أنظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان - دار الفكر - بيروت - دط ، دت ، مج ٢ ، ص ٥٢٢ ، وأنظر / سعيد أبو العينين : الشعراوي الذي لا نعرفه - دار اخبار اليوم - القاهرة - ١٩٩٥ - ص ١٣ .

٢ الداية : مهنة الداية معروفة على عموم الريف المصري وهي امرأة تتولى مهمة مساعدة النساء أثناء الولادة وتعتني بهن وبالمولود الجديد ، وتعرف أيضاً باسم القابلة أو المولدة وكانت الداية في الماضي تقوم بدور الطبيب في عملية الولادة، وتقدم الرعاية الصحية للأم والطفل، وتعرف أيضاً بتقديم بعض النصائح والأعشاب للمرأة بعد الولادة

٣ سعيد أبو العينين : الشعراوي الذي لا نعرفه - ص ٤ - ٥ بتصرف ، وأنظر/ محمود جامع : وعرفت الشعراوي - دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة - ٢٠٠٥ - ط ١ ، ص ٩ .

لهذا كان للنشأة والبيئة الحاضنة والأساس والمنطلق الأول في تأسيس وتكوين الشخصية ، وهي المؤثرة والصانعة وهي المكون للمنظومة الفكرية والروحية والثقافية ، بل هي التي تشكل القيم والمبادئ والعادات والأعراف ، وهي من تخلق مؤثراتها الفكرية والنفسية والأخلاقية والسلوكية في نمط حياة الإنسان ، فالنشأة هي مصنع التربية والبنائية لقواعد التربية وأساس نوعية الشخصيات ، سواء أكان الناتج صالحاً أم طالحاً ، وهذا ما أثبتته الدراسات والأبحاث في علم الاجتماع والنفس في تأثير النشأة على شخصية الإنسان .

ولهذا حظيت التربية الإسلامية باهتمام بالغ في اختيار نشأة وتربية الفرد المسلم على أعلى معايير التربية الإنسانية حتى قبل تكوين نطفته في رحم أمه ، إذ وردت أحاديث شريفة وعديدة عن رسول الله المصطفى لتأتي عملية الاختيار الحاضنة الأفضل لكلا الجانبين - الزوج أو الزوجة - لإيجاد بيئة أبوية صالحة تتمثل فيها القدوة والنموذج الأمثل في الخلق الإنساني وعلى كل صعيد ومستوى في المعاملات الإنسانية والحياتية تتوافق مع مفهوم الفطرة الإنسانية التي خلقها الله سبحانه وتعالى عليها الإنسان.

" نشأ الشيخ محمد متولي الشعراوي لأسرة متوسطة تعمل بالزراعة ومحبة للعلم والعلماء وتتسم بالتدين والمحافظة ، وهو ما ساعده في سلوك طريق العلم والتدين ، وهذا ما أكدته الشيخ الشعراوي حيث قال : من حسن حظي أن البيئة التي نشأت فيها تتسم بالصلاح والتقوى ، فأما بيتي الخاصة فقد كان أبي رجلاً طيباً ، وجدي كان رجلاً له في طريق الله مجال ، والبيئة العامة التي أعيش فيها وهي القرية ، فالقرية - عادة - لا توجد فيها المباديل التي توجد في المدن وكل هذا حصننا من السير في طريق الغوايات ، لأنه لم يكن في محيطنا أسباب الغوايات " (١)

وهذه يبين بأن نتاج هذه التنشئة للشيخ محمد متولي الشعراوي كان الدافع لبناء النفس وتركيتها على الصلاح والاستقامة وبعدها عن طريق الغوايات والأخلاق المبتذلة ، وهذا ما يؤكد أثر النشأة والبيئة في تكوين النفس الإنسانية وتركيتها نحو الأخلاق الفاضلة .

ومن أبرز ما تحدث عنه الشيخ محمد متولي الشعراوي عن نشأته في القرية والبيئة التي عاش فيها وسر سلوكه مسلك الصلاح وما كان يتمتع به ساكني قريته من تقوى وصلاح وحب للعلم والعلماء وتشجيع ومنافسة لحفظ القرآن والمداومة على صلاة الجماعة والالتزام بالمظهر الإسلامي سلوكاً ومظهراً ، هو نتاج طبيعي لقرية مشحونة طوال العام بالمناسبات الدينية والهبات الروحية والاحتفالات بموسم الحج وما يتضمنه من عبادة وذكر في العشر الأوائل من ذي الحجة وعيد الأضحى وشهر رمضان وما يتبعه من احتفال بعيد الفطر ثم الاحتفال بالمولد النبوي وعاشوراء وهذا الزخم يجعل الإنسان دائم الذكر والعبادة والتفكير والرقى الروحي ، بجانب الاحتفالات الدينية التي تقيمها الطرق الصوفية في قريتنا ، حيث كان يوجد في قريتنا مشايخ خمس طرق : شيخ طريقة سيدي أبي خليل ، وشيخ طريقة سيدي أبو الحسن الشاذلي ، وشيخ طريقة سيدي أحمد الرفاعي ، وشيخ طريقة سيدي عبد القادر ، وشيخ طريقة

١ فاطمة السحراوي : الشيخ محمد متولي الشعراوي مشوار حياتي آراء وأفكار - المختار الإسلامي للطبع والنشر والتوزيع

- القاهرة - ١٩٨٨م - ص ٩ ، وانظر/ محبوب محمد حسن : الشعراوي من القرية إلى العالمية - دار التراث الإسلامي

- القاهرة - ١٩٩٠م - ص ٨ .

سيدي احمد البدوي ، وكان لكل شيخ مريدوه ، وكل جماعة تدعوا شيخها إلى البلدة في كل أو بعض المناسبات ، وعندما يأتي الشيخ تحتفل به البلدة كلها ، وتجد جميع المساجد عامرة والخير ظاهراً ... ومعنى هذا أن جميع شهور السنة كانت لا تخلوا من مناسبة لشحن المواجيد والمشاعر الدينية " (١)

هذه النشأة التي سردها الشيخ متولي الشعراوي تضع الفرد في سياق ديني والتزام اخلاقي لا يحيد عنه ، وتؤسس لمجتمع فاضل يتسم بالصلاح ، وهذه البيئة كانت الدافع لتشكيل الوعي الديني والمسحة الصوفية لدى الشيخ محمد متولي الشعراوي ، كما نلاحظ من خلال سرده سعادته بهذه البيئة وأنه عاشها محباً ومختاراً وليس جبراً أو فرضاً . ومن أبرز ما ذكره الشعراوي هو شهرة قريته بالمواقف الوطنية وفضلها في ترسيخ معاني الوطنية لديه حيث يقول : "ارضعتنا قريتنا حب الوطنية" (٢)

وكان للقرية التي نشأ فيها الشيخ محمد متولي الشعراوي أثر كبير في غرس الروح الإيمانية والحس الوطني والفطرة السوية لديه ، حيث يقول : " كانت حياة القرية نبعاً للإيمان وترسيخاً للعقيدة ، ومناراً للسلوك القويم والعلم والتحصيل في أمور الدين " (٣)

لم يكن أثر البيئة والنشأة قاصراً على الشيخ محمد متولي الشعراوي أثناء تواجده في القرية ، بل كان هذا الأثر واضحاً ومستمراً معه طوال حياته وله انعكاس كبير في مختلف أطواره وتنقلاته سواء داخل قريته أو خارجها ، وبقيت تلك المبادئ التي نشأ عليها راسخة في طبعه ووجدانه وسلوكه وتعاملاته ، يقول الشعراوي : " حين اضطررتنا الظروف أن ننقل إلى المدن لنستكمل تعليمنا سواء في الزقازيق أو طنطا أو في القاهرة ، كانت الخميرة قد انعقدت ، وبأننا نكبر أمام أنفسنا ، ومعنى يكبر الإنسان أمام نفسه أن نستصغر عمل الشر من الآخرين ، ولا يعمل هو فيكبر في نفسه ، وأهم شيء في الحياة أن تكون مقاييس الإنسان عند نفسه سليمة ، لأنه من الجائز أن أصح مقاييسي عند الناس نفاقاً أو رياءً وأخفي عنهم شروري ، وعندما اتصفح أعمالني أمام نفسي أجدني صغيراً ، فحين لا يكون لا رأي في نفسي أولاً ، فإن رأي الناس لا يعطيني مقياساً ، ولأن البيئة كرمتنا وأسهمت في تربيتنا بجانب انتسابنا للأزهر كل هذا جعل الناس يحترمونا ، فحرصنا ألا نفعل أي شيء يغض من هذا الاحترام " (٤)

الزواج والأولاد والأحفاد :

في البداية نود أن نعرف ما هي حكاية أم فتحية التي بسببها تزوج الشعراوي وهو في الابتدائية . كان الشيخ الشعراوي طالباً بالمعهد الابتدائي الأزهرى بالزقازيق ، وكنت في السنة الرابعة ، وأسكن مع زميل لي من بلدنا اسمه حسني بغرفة واحدة ، وكنا نستأجر هذه الغرفة في بيت واحد اسمها أم فتحية ، وكان عندها بنت تلميذة

١ سعيد أبو العينين : الشعراوي الذي لا نعرفه - ص ١٥ .

٢ محمد زيد : الراوي هو الشعراوي .. مذكرات إمام الدعاة - دار الشروق - القاهرة - ١٩٩٨م - ط ٣ - ص ٨٠ .

٣ المرجع السابق / محمد زيد : الراوي هو الشعراوي .. مذكرات إمام الدعاة - ص ٧٨ .

٤ فاطمة السحراوي : الشيخ محمد متولي الشعراوي مشوار حياتي آراء وأفكار - ص ٩ ، ١٠ .

اسمها صفاء ، وقالت لنا أم فتحية أن ابنتها صفاء عندها واجب الحساب ولا تعرف تجيب عليه ، وطلبت منا مساعدتها في حل الواجب الدراسي ، ودائت صفاء وجلست في غرفتنا والباب مفتوح وأخذنا نساعدنها ، وفوجئت بوالدي يدخل علينا الغرفة ونظر إلينا ثم سألن يمين البنت دي ؟ فقلت له صفاء ابنته جارتنا أم فتحية صاحبة البيت ، وتركنا وانصرف عائدا الى القرية دقادوس، وفي نهاية الاسبوع سافرت كالمعتاد ومع زميلي الى القرية لنترو كعادتنا بما تيسر من الخبز والبيض والجبن وبعض المال ثم نعود بداية الاسبوع للمعهد في الزقازيق ، وفوجئت بوالدي يقول الولد ده لازم يتجوز ، وبعد مناقشات مع والدتي وأخوالي وخالتي أصر والدي على زواجي وحدد مدة اسبوع لاختيار واحده ، فقلت ما دام الأمر غصب عني فجوزوني على كيفكم ، فاختر والدي لي بنت خاله ، وكان اختياره طيباً ورزقني الله منها ثلاثة أولاد وبنتين : سامي وعبد الرحيم وأحمد وفاطمة وصالحة " (١)

تربية الشعراوي لأولاده :

لقد كان للشيخ الشعراوي مسلك في تربية ابنائه تربية إسلامية يزكي بها نفوسهم ويقومهم على تهذيبها وفق تعاليم الإسلام ، فيقول : إذا أردنا أن نربي أبنائنا تربية إسلامية ، فإن علينا أن نطبق تعاليم الإسلام في أداء الواجبات واتقان العمل ، وإن نذهب الى الصلاة في مواقيتها ، وحين نبدأ الأكل نبدأ باسم الله ، وحين ننتهي منه نقول : الحمد لله ، فإذا رأنا الطفل ونحن نفعل ذلك فسوف يفعله هو الآخر ، حتى وإن لم نتحدث إليه في هذه الأمور ، فالفعل أهم من الكلام ، وقد كان لأم الأولاد دور الله يرحمها ، حيث كانت تحكي لي كل شيء يجري يومياً مع الأولاد وذلك حين عودتي وهي تخلع لي هذومي ، وكنت إذا غضبت من تصرف أحد الأولاد لا أكل معهم ، فيأتي الأولاد يسألون لماذا لا تأكل معنا ؟ فكنت أقول : لا أكل معكم وفيكم ولد يعمل كذا وكذا ، فيأتون ويأخذون في تقبيل يدي ورجلي وأخيراً أقبل اعتذارهم وأجلس أكل معهم " (٢)

الأعباء المعيشية وتدبير الله تعالى :

يقول الشيخ الشعراوي : لقد عنيت كثيراً وأنا طالب أزهرى ، وعانى معي والدي الذي تحمل كل شيء وبكل الرضا وحتى بعد أن تخرجت في الأزهر وعملت مدرساً بمعهد طنطا الأزهرى ، وكانت معاناتي اشد لأن الأولاد كانوا قد كبروا وزادت الأعباء ، وكان مرتبي عند التعيين عشرة جنيهات ، وكنت اسكن في بيت ايجار ٢ جنيه ولم تكن الجنيهات الثمانية الباقية تكفي لسد حاجتي أنا والأولاد ، وقد كان لي صديق في بلدنا دقادوس اسمه محمد حسنين وكان صاحب مطعم ، وكان يمدني بكل ما احتاجه من مال على سبيل الدين وإن كان هو لا يعتبره ديناً بيننا بحكم الصداقة الوطيدة ، وتراكم الدين حتى وصل المبلغ ٣٥٥ جنيهاً وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت ، وحدث ان اعلنوا في سنة ١٩٤٨م عن بعثة للأزهر للعمل بالسودان ولكن صديقي محمد حسنين اقنعني بأن السفر في هذه البعثة لا يساوي الغربة فصرفت النظر .

١ سعيد ابو العينين : الشعراوي الذي لا نعرفه - ٧٧ - ٨١ بتصرف .

٢ سعيد ابو العينين : الشعراوي الذي لا نعرفه - ص ٨٢ - ٨٣ بتصرف .

ولكن بمرور الأيام اشتدت معاناتي وازداد قلقي وذهب النوم عني ، فجاءت والدتي وقالت لماذا انت حزين وسهران ولا تذهب للنوم ، فقلت لها وأنا حزين : الهموم كثيرة يا أمي وتعبان وقلقان والمعيشة صعبة والعيال عايزة فلوس والديون زادت ، فقالت في حنان : يا ابني انت لك رب اسمه الكريم وأنا سأدعو لك .. وقمت وذهبت للنوم .

وفي الصباح جاءت أمي توقظني وهي تتأدني بصوت مفعم بالفرحة ، وقالت أنا رأيت لك رؤية حلوة في المنام بأنك شايل قفة مليانة فلوس ، فقلت لها وأنا اضحك : هي الفلوس بتتشال في قفة ، ولكن تمر الأيام وتتحقق الرؤية حيث تم اختياري من قبل الشيخ حمروش شيخ الأزهر للعمل بالملكة العربية السعودية بكلية الشريعة بمكة المكرمة ، وقد تبين بعد ذلك أن الذين رشحوني لشيخ الأزهر للسفر الى السعودية لم يكن قصدهم صالحي وإنما ابعادي عن شيخ الأزهر عندما عرفوا أنه يريد أن ينقلني من طنطا للعمل في مكتبه أو في موقع قريب منه ، فكانت مؤامرة ضدي ولكن بعد عودتي من القاهرة الى بدي دقادوس النقيت بصدیق محمد حسنين واخبرته فقال : يا شيخ شعراوي مكة لا ترد ، سافر على بركة الله تعالى ، واقتنع الشيخ بكلام صديقه وكتب له توكيل لصرف مرتبه على ان يخصم منه كل شهر بعضاً من الدين وأن يعطي الباقي للأولاد ، ثم اخبر والده ووافق وقال له سافر وخذ معك أمك لشوقها لرؤية مكة المكرمة وتزور قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبالفعل سافرت ومعني أمي سنة ١٩٥٠م وشاء الله أن يكون سفري خيراً كانت السعودية في هذا الوقت تتعامل بالفضة الذهب ، وحين تم صرف مستحقاتي المالية تم وضعها في شيكارة ولعدم قدرتي على حملها طلبت عامل شياي ومعه قفة ، فقام بإفراغ المال من الشيكارة الى القفة وحملها الى ان وصلت المنزل ودخلت على والدتي احمل قفة ملء بالفلوس ، وتحقق حلم والدتي حين دخلت عليها بقفة فلوس وقلت لها لقد تحققت رؤيتك وقبلت يدها " (١)

ملامح الشخصية :

عاش الشيخ الشعراوي عمره يخدم نفسه بنفسه ، فهو يطبخ لنفسه ويغسل ملابسه بنفسه ، وكان رحمه الله محباً للأناقة في ارتداء الزي الأزهرى - الجبة والقفطان والعمامة - وكذلك العصاة التي كانت من لزوم الأناقة .

" في بيته بمنطقة الهرم بالقاهرة كان دائماً يلتقي مع ضيوفه بالطاقيّة البيضاء والجلابية ، يعيش في حياة بسيطة ليس فيها تكلف ، على الرغم من فخامة المنزل الذي يحتوي على كل ما هو عصري ، هذا البيت الذي حرص على تخصيص مكان للصلاة ، حتى عندما كان يعيش بمنطقة الحسين بالقاهرة خصص في بيته مكان للصلاة ، وعلى الرغم من وجود أولادي معني فإنني احب أن أخدم نفسي بنفسي ، وأولادي يسعدهم خدمتي ولكن تعودت ، وهناك حكمة كنت اقولها لأولادي كثيراً : من بر غير آبائه بره غير آبائهم ، وقد عشت طول عمري لا انتظر من اولادي شيئاً ، وهم من جانبهم يودون ان يفعلوا أي شئ لخدمتي ، ولكنني تعودت أن اطهو طعامي بنفسي وأرسل بعضاً منها لأولادي ، وكنت خبيراً في عمل الفول النابت والعدس وعمل صينية السمك الصيادية " (٢)

١ سعيد ابو العينين : الشعراوي الذي لا نعرفه - ص ٨٤ - ٩٠ باختصار .

٢ سعيد ابو العينين : المرجع السابق - ص ٩٣ - ٩٧ بتصرف .

كم اتسم الشيخ بخلق الكرم ، وكان جواداً في كل شيء ، ولم تتقاعس نفسه أو تقتر همته عن نفقة أو عطاء بقناعة تامة أنه ما نقص مال من صدقة ، ومن دلائل سخائه وكرمه أنه كان يقيم خمس موائد للرحمن مخصصة للطعام والشراب في خمس مناطق بمصر وهي : مائدة بمنطقة السيدة زينب - ومائدة بمنطقة الإمام الشافعي - ومائدة بمنطقة السيدة نفيسة - ومائدة بمحافظة الاسكندرية - ومائدة بمنطقة الإمام الليث ، كما كان يخرج خمسون مظلوماً يومياً بها مبالغ مالية توزع على مختلف المستشفيات لعلاج الفقراء والمحتاجين ، كما خصص إعانات ٢٥٠ أسرة تعطي لهم شهرياً كدعم لسد احتياجاتهم المعيشية ، وتقديم الدعم لطلاب العلم " (١)

وكان الشيخ الشعراوي (رحمة الله عليه) محباً للفقراء والمحتاجين والمساكين وباراً بهم ، حتى أنه أعد لهم صالة طعام فخمة بمنزله ، ولم يكن يسمح لأحد بتناول الطعام فيها إلا للفقراء والمساكين ، وكان يجلس معهم ويشاركهم تناول الطعام ويمازحهم ويدعوا لهم ، وحين كان يتناول الطعام مع الشخصيات البارزة وأصحاب المناصب كان يتناول الطعام معهم في المطبخ ، وحين تعجبوا وسألوا الشيخ الشعراوي عن ذلك قال لهم : إن الفقراء قد سمعوا عن الجنة وقد لا يتخيلونها ، ولذلك اقرب لهم الصورة ويعلمون أن عبداً من عباد الله انعم الله عليه بذلك فتطمئن قلوبهم وتقرب الصورة من خيالهم فيحسنون العمل طمعاً في أن يدخلوا الجنة " (٢)

وقد كان الشيخ الشعراوي مع ما أنعم الله به عليه من سعة العلم وقوة الشخصية وعلو المكانة غاية في التواضع ولين الجانب ويعرف قدر ومكانة العلماء ومشايخه الذين تعلم على أيديهم ، فقد كان رحمه الله " منذ أن كان طالباً ينظف احذية اساتذته ومشايخه في الأزهر دون علمهم ، تقديراً منه لقيمة العلم " (٣)

وقد كان يتمثل مقولة والده التي كان ينصحه بها دائماً : العلم لا تأتي فتوحاته إلا بالتواضع " (٤) ومما أثر عن تواضعه وتزكياته لنفسه وتأديبها ومنعها من الغرور والتكبر ، أنه عندما كان يلقي محاضرة بجامعة القاهرة فاحتفل به الناس وفرحوا به وامتدحوه كثيراً حتى أنهم حملوا سيارته ، فظن أنه دخل شيء في نفسه وتحركت بواعث لم يعتادها ، وخشي الغرور والكبر ، وحين عاد إلى منزله ذهب إلى مسجد سيدنا الحسين دون علم أحد ودخل دورات المياه بالمسجد وعمل على تنظيفها " (٥)

ومن مواقف الشيخ الشعراوي الشجاعة أنه في مرة قام أحد اعضاء البرلمان المصري بالأذان للصلاة إثناء القاء السادات لإحدى خطبه بالبرلمان ، فطلب منه السادات الجلوس وقاله له : العمل عباده ، ولكن الرجل خرج للصلاة

١ محمد رجب البيومي : محمد متولي الشعراوي .. جوله في فكره الموسوعي - مكتبة التراث الإسلامي - القاهرة -

١٩٩٩م - ص ٣٨

٢ بدوي طه : قالوا عن الشعراوي بعد رحيله - دار الأمين للنشر والتوزيع - القاهرة - ١٩٩٩م - ص ٧٨ .

٣ محمد زايد عبد الله : مذكرات امام الدعاة - دار الشروق - ١٩٩٨م - ص ١٢ .

٤ محمد صديق المنشاوي : الشعراوي وحديث الذكريات - دار الفضيلة للنشر والتوزيع - القاهرة - ١٩٩٨م - ص ٧٨

٥ محمد صديق المنشاوي : المرجع السابق - ص ٧٩ .

وخرج الشعراوي معه من القاعة لأداء الصلاة بينما خشي الباقون مغادرة أماكنهم ، وبعد انتهاء الجلسة بالبرلمان المصري عاتب الشيخ الشعراوي السادات وقال له : العمل عبادة غير مفروضة ، فرد السادات : أنا غلطان " (١) وإلى جانب ذلك كان رحمه الله رجل علم وعمل وورع ودعوة إلى الله بالتالي هي أحسن ، وقد سئل ذات مرة عن منهج الإصلاح الذي يجب أن يتبع ، فأجاب الشيخ الشعراوي رحمه الله بقوله :

أولاً : بحسن القصد والتوجه إلى الله تعالى .

ثانياً : المحاولة المستميتة في إصلاح الأفراد والأسر .

ثالثاً : النصح الهادئ للجميع ... فالدين النصيحة .

رابعاً : بذل الجهد والعرق في توحيد المسلمين . (٢)

وفاته :

توفي الشيخ الشعراوي بعد حياة حافلة بالعطاء والزهد والورع والتواضع ، وترك خزينة علمية وموسوعية تذخر بها المكتبة الإسلامية ، ووضع بصمة راسخة في المجال الدعوي ، ويظل تفسيره شاهداً على أنه أحد الأعلام المجددين. انتقل إلى الرفيق الأعلى في فجر يوم الأربعاء الموافق ٢٢ من شهر صفر ١٤١٩ هـ - ١٧ يونيو ١٩٩٨ م .

ومن خلال ما تم سرده يتضح لنا طبيعة النشأة والبيئة في تكوين الشيخ محمد متولي الشعراوي ، وأثر قرينته بشكل كبير ، حيث اكتسب منها قيماً دينية وأخلاقية ساهمت في تشكيل شخصيته وعلمه ، وكانت القرية مصدر إلهام له ، حيث تأثر بالبساطة والتقوى التي تميز بها أهلها ، وعشق الطبيعة والأجواء الريفية الهادئة التي انعكست على أسلوبه الدعوي والتربوي .

المطلب الثاني : الشعراوي وعصره .

بشكل عام كان الشيخ الشعراوي شخصية مؤثرة في عصره ، حيث استطاع أن يجمع بين الدعوة الدينية والتأثير الاجتماعي والسياسي ، وقد شهد عصره تحولات كبيرة في مختلف المجالات ، وكان للشيخ الشعراوي دور في توجيه المجتمع نحو قيم الإسلام .

عاصر الشيخ محمد متولي الشعراوي فترات مختلفة من التاريخ المصري بدءاً من الحكم الملكي ثم الجمهوري ، وشهد فترات من الاستقرار والاضطراب السياسي ، والتي شهدت مصر فيها تحولات اقتصادية كبيرة خلال تلك الفترة ، بما في ذلك محاولات للتصنيع والتنمية ، ومن الناحية الاجتماعية شهد عصره تحولات اجتماعية وثقافية كبيرة ، بما في ذلك تزايد الاهتمام بالدين والهوية الإسلامية وظهور الجماعات الدينية .

الجانب السياسي :

الحكم الملكي :

١ المرجع السابق : ص ٤٢ .

٢ المرجع السابق : ص ٤٤ .

عاصر الشيخ الشعراوي فترة حكم الملك فاروق ، وشهدت هذه الفترة صعودًا لتيارات سياسية وجماعات دينية مختلفة، بما في ذلك جماعات الإخوان المسلمين التي كان لها تأثير كبير في المجتمع المصري .

" بدأت المشاركة السياسية ومرحلة الانشغال بالعمل الوطني ضد الانجليز ومعارضة بعض القرارات الملكية للشيخ الشعراوي منذ التحاقه بالمعهد الأزهرى بالقازيق سنة ١٩٢٦م ، حيث كان الأزهر هو مقر الثورة ، وهو مركز تجمع الثوار ، ومن الأزهر خرجت المنشورات التي تعبر عن سخط المصريين ضد الاحتلال الانجليزي وممارساته القمعية ، وكان شيوخ الأزهر وطلابه في مقدمة المتظاهرين وأكثرهم جرأة وحماسة وتضحية ، وبجانب هذا العمل الوطني والروحي والتعليمي والثقافي طوال تاريخه ، كان للأزهر دور فاعل في مقاومة شتى تيارات الاحاد والانحرافات والمذاهب الهدامة والحملات التبشيرية ودعاة الانحلال والفكر التغريبي وتصديه للمستشرقين المنحرفين وحفظه للتراث الإسلامي ودراسته ونشره ، وحمله أمانة الدعوة والرسالة الإسلامية إلى كل الشعوب " (١)

ويأتي الحديث عن مرحلة الانشغال بالحركة الوطنية والحركة الأزهرية في تلك الأيام البعيدة وانخراط الشيخ الشعراوي في العمل السياسي ومشاركته في ثورة الأزهر كواحد من زعماء الطلبة ، وهو الدور الذي انتهى بالشباب الأزهرى محمد متولي الشعراوي إلى الاعتقال به أكثر من مرة والقبض عليه ومحاكمته والحكم عليه بالسجن والفصل من الأزهر .

يقول الشيخ الشعراوي : " العودة إلى تلك الأيام البعيدة هي عودة إلى أيامنا الجميلة ، أيام الشباب والنضال والجهاد وأيام الثورات والانتفاضات من أجل الأزهر ومن أجل الوطن ومن أجل رسالة الإسلام والنهوض بعد رقاد طويل ، ولا ننسى أن البلاد وقتها كانت تحت الاحتلال البريطاني ، وقد قبضوا علينا أكثر من مرة وفصلونا من الأزهر والشيخ حسن الباقوري وفهمي عبد اللطيف ، وذلك حين كنت رئيساً لاتحاد الطلبة بمعهد الزقازيق ، وكنا في ذلك الوقت نأخذ بمبادئ الوفد في الحركة الوطنية ، ونأخذ بمبادئ اساتذتنا في الأزهر ، إذ كان الأمر يتعلق بالحركة الأزهرية وشئون الأزهر ، وكان النحاس باشا في الحكم ثم أقاله الملك ، وغضبنا لذلك فقلت :

ما منطقي لك والحقيقة تخجل **** قد جدت الدنيا وشعبك يهزل

في كل عام تشتكي أوصابنا **** ونؤمل الآتي فيقسو المقبل

مصر الأسيفة بح منها صوتها **** فصراعة محمومة وتوسل

وأرحمته للمستجير بجائر **** والزافر الشكوى لمن لا يعدل

أو كلما وهب الزمان زعامة **** تعلو وتكمل ما بناه الأول

نهض العقوق بكل نذل غادر **** دنس وفي يده الأثيمة معول

١ سعيد أبو العينين : الشعراوي الذي لا نعرفه — ص ٢٩ — ٣٠ بتصرف .

وقد اعتبروا هذه القصيدة عيباً في الذات الملكية وأخذوا يترصدونني للقبض علي ، وكانوا يعتبرون الزقازيق مهد الثورة والغضب والمظاهرات بسبب إقالة النحاس باشا ، ولما تعبوا ويئسوا من القبض علي ، لجأوا إلى حيلة أخرى حيث تم القبض علي والدي وأخي وقاموا باعتقالهم بسببي ، وحين سمعت ذلك الخبر طار صوابي وركبت القطار إلى الزقازيق وذهبت وسلمت نفسي إلى الشرطة ، وقلت لهم جئت إليكم لتفرجوا عن أبي وأخي وافعلوا بي ما تشاؤون وبالفعل تم مقاضاتنا والحكم علينا بالحبس شهر كامل والفصل من الأزهر ولكن حين تولى النحاس باشا مرة أخرى وتولى الحكم فأمر باستحضار كافة الملفات السياسية وقام بإحراقها في مجلس الوزراء وتم عودتنا للأزهر" (١)

ومن خلال قراءة مستفيضة لسيرة الشعراوي وعصره فيما يتعلق بمعايشته للعصر الملكي نجد أن أبرز ما في هذه القراءة هو انخراط الشعراوي للعمل السياسي وتأييده وارتباطه الشديد للنحاس باشا رئيس الوزراء ورئيس حزب الوفد أبرز الأحزاب السياسية في العهد الملكي ، بل والدفاع عنه وقراراته دائماً والحديث بأنه سياسي محنك ورجل حكيم وأنه يتسم بالصلاح والطيبة والوطنية ، وأنه زعيم مناضل تقي ورع ومتواضع ، وهذا ما دفع بالشعراوي لخوض الكثير من المعارك دفاعاً وانتصاراً لحزب الوفد والنحاس باشا وسعد زغلول ولمواقفهم الوطنية (٢)

فترة الجمهورية :

شهدت مصر قيام الجمهورية عام ١٩٥٢ وتغيرت الخريطة السياسية بشكل جذري، حيث تولت السلطة قيادة عسكرية. وشهدت هذه الفترة تأميم بعض الشركات والمؤسسات وتغيير كبير في القوانين ، كما شهدت مصر صراعات سياسية داخلية وحروباً خارجية .

" كان الشعراوي من المؤيدين لثورة ١٩٥٢م توهماً منه أنها قامت لتأتي بالنحاس باشا للحكم وإدارة مصر ، وفي ذلك يقول : سعدنا في البداية بثورة ١٩٥٢م وأخذتنا شعاراتها التي تتادي بحياة كريمة ، وتغنيينا بها ، وقلت فيها شعراً

أحييها ثورة كالنار عارمة *** ومصر ما بين محبور ومرتب

شقت توزع بالقسطاس جذوتها *** فالشعب للنور والطغيان للهب

قلت ذلك .. ولكن الأيام سرعان ما أثبتت عكس كل الشعارات التي ترددت ، ولم تعد الحياة حرة ولا كريمة ، ولذلك فقد اضفت إلى قصيدتي السابقة :

وهكذا خلقتها والله يغفر لي *** وكم لمواليد هذا الدهر من عجب .

وقد استاء الشعراوي كثيراً من أسلوب التنكيل والمحاكمات العسكرية التي اقامتها الثورة بإشراف وتوجيه من جمال عبد الناصر بالقيادة السياسيين وأسره في العهد الملكي وخاصة بالنحاس باشا وزوجته التي تم استدعائها للتحقيق معها أمام محكمة عسكرية وهددوها إذا لم تحضر في الوقت المحدد فسيأتون ليأخذوها بالقوة " (٣)

١ سعيد أبو العينين : الشعراوي الذي لا نعرفه — ص ٣٠ - ٣٧ بتصرف .

٢ المرجع السابق — ص ٣٧ - ٦٢ بتصرف واختصار .

٣ سعيد أبو العينين : الشعراوي الذي لا نعرفه — ص ٦٢ - ٦٤ بتصرف .

وهذا يؤكد أن الشيخ الشعراوي كان مهتماً بقضايا العدالة الاجتماعية والشورى والحرية السياسية والاقتصادية ، وانتقد بشدة الفساد وسوء توزيع الثروة والاستبداد والسلطة المطلقة ، وكان يرى أن من واجب الأغنياء مساعدة الفقراء .
ويمكننا الوقوف على ذلك من خلال سرد آرائه حول القضايا التالية :

مركزية المنهج في الحكم :

يرى الشيخ الشعراوي " أنه يجب على الحكومات إعلان الإسلام منهجاً لحكمها ، وأن الحكومة مطالبة بتطبيق منهج الإسلام ، وأن الثقة تتبدى بين الحاكم والمحكوم حين تعهد الحومة بكل شيء للإسلام ، وأن تأخذ في حكمها بكل الأمور المتفق عليها ، أما الأمور المختلف فيها فلا بأس بأن تأخذ بوجهات نظر أخرى تسير نظام الحكم " (١)

الديمقراطية :

يرى الشيخ الشعراوي " أن الديمقراطية مصطلح مستورد ، وأي مجتمع إسلامي حقيقي يطبق منهج الإسلام وشرع الله لا يحتاج إلى استيراد هذا اللفظ ، ولو كان لها إسلام حقيقي ما أخذت به أو بغيره ، بل إن كلمة الديمقراطية التي تعني أن يحكم الشعب نفسه بنفسه لا تتماشى مع الواقع في الإسلام ، لأن الجميع محكوم لواحد خلاق هو الله سبحانه وتعالى ، فليس هناك من يحكم ، ولكن كلنا عيون لتنفيذ المنهج ، ولا يملك أحد منا شيئاً ، ففي قصة ملكة سبأ مع سيدنا سليمان عليه السلام بعد أن رد هديتها وقال لها {فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ} (٢) تيقنت أنه لا يسعى لدنيا ، عنئذ أسلمت ، ولكن لم تقل أسلمت لسليمان ، وإنما قالت {وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (٣) أي لا غضاضة في أن أكون مسلمة طالما أن هذا ليس لأحد إلا لله رب العالمين الذي جاء بهذا الكلام "

الشورى في الإسلام غير ملزمة :

يرى الشيخ الشعراوي " أن الشورى في الإسلام غير ملزمة ، لأن ولي الأمر لا يشاور في حكم صادر عن الله تعالى وإنما يشاور في حكم ترك الله لخلقه أن يجتهدوا فيه على أي وضع ، وهذا جائز ، ولولي الأمر الذي يسمع الشورى أن يأخذ بها أو لا يأخذ ، لأننا خولناه هذا الحق حين تم مبايعته ووليناها الأمر ، فولاية الأمر لا تمنح في العادة إلا لمن يصون حقها وكلمتها ، فأنا لا أمنح الولاية إلا لمأمون عليها " (٤)

ويبين الشيخ الشعراوي أن اختيار الحاكم يكون ضمن توفر مواصفات دينية وأخلاقية فيقول : " واختيار من يؤتمن على الولاية لابد أن تتوافر فيه شروط الدين والعدالة كضرورة عند اختياره ، وبعد ذلك أعهد إليه باعتباره المرجح النهائي قال تعالى {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} (٥) أي أنه يسمع المشورة التي تخير له ثم يختار

١ سناء السعيد : الشعراوي بين السياسة والدين - دار الفتح للإعلام العربي - القاهرة - ١٩٩٧م - ص ١١ .

٢ سورة النمل : آية رقم (٣٦)

٣ سورة النمل : آية رقم (٤٤)

٤ سناء السعيد : الشعراوي بين الدين والسياسة - ص ٢٢ .

٥ سورة آل عمران : آية رقم (١٥٩)

، فالأمر الأخير له يقرره ، وهذا لابد أن يكون في ذهنية من يبايعه حتى لا يعطي الولاية إلا لمن يستحقها ، وعليه فيجب أن يبايع الناس المرء الذي يعتقدون أنه سيلتزم بولايته ويكون حكمه وفق تشريع الله ، وبهذا لا يضعون هذه الثقة إلا فيمن يأتمنوه على مصالحهم ودينهم " (١)

وقد سئل الشيخ الشعراوي : هل معنى هذا أن يعزل الشعب عن المشاركة في الحكم بعد أن يختار الحاكم ، وهو ما سيؤدي إلى الانفراد بالرأي والحكم والديكتاتورية ؟

أجاب الشيخ الشعراوي بقوله : مشاركة الشعب في الحكم غير واردة لأن الحكم يأتي من الله ، ومصطلح الديكتاتورية هذا يتواجد عندما تخضعين رأي بشر لبشر ، ولكن لا ينطبق على إخضاع البشر لله ، فخضوع البشر لحكم إلهي هو إيمان لا دكتاتورية ، وعبارات الديكتاتورية والديمقراطية كلها مصطلحات مستوردة ولا حاجة لنا بها ، كما أن كلمة نظام سياسي يجب أن نبعدها عن نقاش الدين ، لأننا نقول نظاماً إسلامياً ، وحين نقول نظاماً سياسياً سينصرف النظر إلى فكر البشر في حكم البشر " (٢)

وقد كان للشيخ الشعراوي موقف غير توافقي مع جمال عبد الناصر ولعل أبرزها هو سجوده لله شكراً بعد هزيمة ٦٧ وعدم قناعاته بالسياسة التي تركز على الفكر الشيوعي ، وحين سئل لماذا سجدت شكراً لله رغم أنها نتاج هزيمة لحقت بمصر والجيش العربية ، فقال حين سأله ابنه عن سر السجود على الرغم من كونها هزيمة : قلت يا بني لن يتسع ظنك إلى ما بيني وبين ربي ، لأنني فرحت أننا لم ننصر ونحن في أحضان الشيوعية ، لأننا لو نُصرنا ونحن في أحضان الشيوعية لأصبنا بفتنة في ديننا فربنا نزهنا "

وتحدث عن ذلك في كلمته التي القاها بعد نكسة ٦٧ نيابة عن شيخ الأزهر " أننا لو انتصرنا ونحن على ما كان في مجتمعنا من خلل وانحراف لازدنا جرأة على محارم الله ، ولجعلنا النصر شهادة على صدق التحلل وسلامة الانحراف وصواب الانفلات بين حضرة الله ومبادئ الإسلام ، ولهذا كانت الهزيمة غير من الله علينا ، لأن فينا وجدان الدين ، وإن لم يكن لنا سلوك المتقين ، فحاسبنا الله لنرجع إليه ، وابتلانا لنقبل عليه ، وذلك قانون الأحياء ، يحتم مرارة الجرعة تقريبا لحلاوة الشفاء ، فعلينا معاشر العلماء أن نبين للناس أن الله لا يتغير من أجلنا ، ولكن يجب أن نتغير نحن من أجل الله ، لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " (٣)

المجال الاقتصادي في عصر الشيخ الشعراوي :

من خلال ما ورد من نصوص حول الوضع الاقتصادي في عصره ، نرى أن الشيخ الشعراوي يفضل عدم تحكم الدولة في الاقتصاد وتغليب القطاع العام الحكومي على القطاع الخاص للأفراد ، وهو ما انتهجه الحكم الناصري في

١ سناء السعيد : الشعراوي بين الدين والسياسة - ص ٢٢ - ٢٣ بتصرف .

٢ سناء السعيد : المرجع السابق - ص ٢٨ - ٢٩ بتصرف .

٣ محمد رجب البيومي : النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين - ج ٤ / وأنظر في كتابه : محمد متولي الشعراوي ..جولة في فكره الموسوعي الفسيح

التضييق على القطاع الخاص وفرض الفكر الاقتصادي الاشتراكي المرتكز على الفكر الشيوعي ، وتبعاً لذلك تم سلب الممتلكات الخاصة من الأفراد وعمل القائمون على ثورة ١٩٥٢ بتوزيعها على المزارعين دون وجه حق لتحقيق الفكر الاشتراكي ، لهذا يرى الشيخ الشعراوي ضرورة حماية الملكية الفردية التي أقرها الإسلام : " وأن الحكومة حين أقحمت نفسها وتدخلت في أرزاق الناس وتصنيفهم وفق أن هذا لديه وهذا ليس لديه ترك الله لهم العملية بأكملها لكي يتحملوها ... ومن أخذ ما ليس له حمله الله ما ليس عليه " (١)

الشعراوي والجماعات الدينية (٢) :

تحدثنا من قبل أن الشيخ الشعراوي كان وفدياً ، وكان محباً للنحاس باشاً ويصفه بالرجل الصالح الورع التقى المتواضع ، ومع هذا كان له ارتباط بجماعة الإخوان المسلمين .

ولكن لماذا الإخوان ؟ وهل كان الشعراوي يرى الإخوان جماعة دينية ؟ أم كان يراها حركة سياسية تتطلع للحكم ؟ عن علاقته بالإخوان وكيف بدأت يقول الشعراوي : " بدأت العلاقة عندما حضر الشيخ الاسماعيلية إلى القاهرة واتخذ أول مكتب للجماعة في شارع كعب الأبحار وكنا نلتقي في هذا المكتب ، وكان يعجبني في الشيخ حسن البنا أنه كان قمة في الدعوة إلى الله تعالى ، وكان الشيخ حسن البنا حافظاً للسيرة النبوية حفظاً جيداً عن ظهر قلب والله أعطاه قبولاً ، وكان يأخذ القول بالفعل ، وكنا نلتقي أنا والشيخ أحمد شريت والشيخ الباقوري والشيخ حسن البنا . وأول منشور لجماعة الإخوان المسلمين كتبته بخط يدي ، وكان مضمون هذا المنشور هو أن الإسلام منهج الله وأن الله هو الذي خلق الإنسان ، وأن الله أولى بأن يمنهج للإنسان غايته التي خلق من أجلها وحركة حياته وكيف يسوسها ، وأنا نريد أن ننشئ شباباً مسلماً حقاً ، وأن نعطي له مناعة ضد وافدات الحضارة المزيفة التي أن تعزل الأرض عن السماء ... وختم المنشور بجملة : فالجأ إلى هذه الجماعة لتأخذ المناعة . وعندما قرأ الشيخ حسن البنا هذا المنشور قال : ما أجمل هذا السجع .

والسؤال الكبير : لماذا افترق الشيخ الشعراوي عن جماعة الإخوان ؟ وما هي الأسباب والدوافع ؟ يقول الشيخ الشعراوي : كانت بداية نقطة الاختلاف هو غضب الشيخ حسن البنا لامتداحي النحاس باشا اثناء إلقاء قصيدة في الاحتفال بذكرى سعد زغلول .

ثم يستطر الشيخ الشعراوي فيقول : كنا مجموعة من الاخوان وكان الشيخ حسن البنا حاضراً ، وعند الفجر تطرق الحديث إلى الزعماء السياسيين وأيهم يجب أن نسانده ونقف معه ، ولاحظت أن الحاضرين يتحاملون على النحاس باشا ويقولون بمهادنة صدقي باشا .

فاعترضت على ذلك وقلت : إذا كان لمن ينتسبون إل الدين يريدون أن يهادنوا أحد الزعماء السياسيين ولا يتحاملوا عليه أو يهاجموه ، فليس هناك سوى النحاس باشا لأنه رجل طيب وتقي وورع ويعرف ربنا ، وإنني لا أرى داعياً لأن نعاديّه ، وهذه هي الحكمة .

١ سناء السعيد : الشعراوي بين الدين والسياسة - ص ٣٤ .

٢ سعيد ابو العينين : الشعراوي الذي لا نعرفه - ص ٦٥ - ٧٠ باختصار .

لكن فوجئت بأحد الحاضرين يقول : إن النحاس باشا هو عدونا الحقيقي ، هو أعدى أعدائنا لأنه زعيم الأغلبية ، وهذه الأغلبية هي التي تضايقنا في شعبنا ، أما غيره من الزعماء وبقية الأحزاب فنحن نبصق عليها جميعاً فتتطفئ وتنتهي .

يضيف الشيخ الشعراوي فيقول : كان هذا الكلام جديداً ومفاجئاً لي ، ولم أكن أتوقعه ، وعرفت ليلتها النوايا ، وأن المسألة ليست مسألة دعوة ، وجماعة دينية ، وإنما هي مسألة سياسية ، وأغلبية وأقلية ، وطموح في الحكم وفي تلك الليلة اتخذت قراري وهو الابتعاد ، وقلت السلام عليكم ، ماليش دعوة بالكلام ده ، قلتها بأدب وابتعدت عنهم ومضى الشيخ الشعراوي يقول : لقد تحولت المسألة داخل الجماعة إلى مراكز قوى ضد الشيخ حسن البنا " .

"ولعل الدرس المستفاد من تجربة الشيخ الشعراوي مع الإخوان هو اعتزازه بمبادئه الدعوية وعدم التنازل عنها بسبب أي دوافع كانت ، وقناعته التامة بأن طريق الدعوة لا بد وأن يركز على الإخلاص ويجب ألا يختلط بالسعي للحصول على مراكز قوى أو الطمع في الوصول للحكم ، وبمعنى آخر ابتعاد ساحة الدعوة عن ساحة المنازعات السياسية ، وهذا ما أكدته الشيخ الشعراوي بقوله : أنا استفدت من تجربة الإخوان في حركتي الدعوية بأمرين : أولاً : أنني اخلصتها لله .. اخلصتها لربي وقلت : إن الذي يعمل حاجة لله فهو يجازى عنها خيراً من قبل أن يعملها لأن الأعمال بالنيات .

ثانياً : أنني قلت كلمتي وأعلنت عن رأيي بكل وضوح وقلت : أنا لا أريد أن أكون أنا الذي يحكم بالإسلام ، وإنما أريد أن يحكمني من يشاء بالإسلام .

ضف إلى ذلك أنني أصبحت أقول كلمتي في الدعوة إلى الله دون أن يتعرض لي أحد ، أو يقول أنني طامع في الحكم أو لي مآرب أخرى من وراء الدعوة ، لأن خيبة أي داعية هي أنه ينتظر ويستعجل ثمرة دعوته ، وهذا ما لم يحدث للنبي صلى الله عليه وسلم ، فكيف تستعجل أنت ثمرة دعوتك ، فالذي يزرع لا ينتظر الحصاد السريع " (١)

١ سعيد ابو العينين : الشعراوي الذي لا نعرفه - ص ٧٠ - ٧٤ بتصرف .

المبحث الثاني

المسيرة العلمية والثقافية للشعراوي ومؤلفاته .

المطلب الأول

المسيرة العلمية والثقافية

نشأ الشيخ الشعراوي في بيئة محبة للعلم والعلماء والتدين والالتزام الأخلاقي ، ولهذا كان والد الشيخ الشعراوي حريص كل الحرص على تنشئة ولده وتربيته وتزكية نفسه وتهذيبها بالأخلاق الفاضلة ، وتحقيق ذلك يكون في رحاب العلم والقرآن ، وهذا كان له أكبر الأثر في صياغة شخصية الشيخ الشعراوي وتوجيهها الوجهة الصحيحة ، وهو ما أكده الشيخ الشعراوي بقوله : " كان والدي محباً للعلم ومصاحباً للعلماء ، وكان يخدم كل واحد متصل بالعلم " (١) بدأت المسيرة العلمية للشيخ الشعراوي بحفظ القرآن الكريم في الكتاب ، وهو ما كان سائداً على مستوى عموم مصر ومدنها وقراها ، وعن التنشئة العلمية يقول الشعراوي :

" لقد تعلمنا في الكتاتيب القراءة والكتابة ونحن نحفظ القرآن ، حيث كان حفظ القرآن هو طريقنا لتعلم القراءة والكتابة والنطق الصحيح وذلك باستخدام الألواح ، وكانت المرحلة الأولى للتعليم هي مرحلة التنقيط ، حيث كان يمسك العريف باللوح ويقوم بوضع النقط التي تصور شكل وهندسة الكلمة ، ونقوم بتوصيل النقط بعضها ببعض ، ثم تأتي مرحلة الحفظ جماعة ، وهي المرحلة التي يتولاها الشيخ لضبط الحفظ وتصحيح النطق .

وكان الشيخ يتقاضى أجراً قدره قرش تعريفه في الأسبوع يقدم له يوم الخميس ، والذين ليس عندهم فلوس كانوا يقدمون للشيخ رغيفين عيش أو عدد من كيزان الذرة .

وبالنسبة لي كان الشيخ الذي تعلمت القراءة والكتابة وحفظت القرآن الكريم على يديه هو الشيخ "عبد المجيد باشه" وعلى يد شقيقي حفظت القرآن وأنا في العاشرة ، وعلى الرغم من كبر الشيخ وشيخوخته فقد كنا جميعاً نهابه ونخشى عكازه والفلكة التي كان يعلقنا فيها إذا نحن لم نحفظ حفظاً جيداً أو لم ننطق نطقاً سليماً .

وكان والدي يقول للشيخ : اضرب واكسر له ضلعاً إذا هو أهمل في شيء .

وكثيراً ما أخذت نصيبي من هذه الفلكة ، وما زلت أذكر العلكة الساخنة التي أخذتها بسبب النطق الخطأ للآية التي تقول "حم عسق" ولهذه الجملة في القرآن نطق خاص غير كتابتها ، فهي تنطق كل حرف مفرداً ، ولكنني أخطأت ونطقتها كما كتبتها جملة واحدة ، فأدرك الشيخ أنني لم أصغ إليه جيداً وهو ينطقها فوضعني في الفلكة ، وكانت علكة ساخنة ولم ينفع الصراخ ولا الاستغاثة ، وهذا علمني فيما بعد لماذا انزل القرآن على رسول الله مسموعاً وليس مكتوباً ، وهذا اعجاز من إعجاز القرآن الكريم ، وإعجاز من اعجاز رسول الله بعد أن سمعه وهو الأمي من جبريل عليه السلام "إن هو إلا وحي يوحى" (٢)

١ سعيد ابو العينين : الشعراوي الذي لا نعرفه - ص ١٣ - ١٥ . .

٢ سعيد ابو العينين : الشعراوي الذي لا نعرفه - ص ١٣ - ١٥ بتصرف / سورة النجم : الآية رقم ٤ .

ويتحدث الشيخ الشعراوي عن ذكرياته الأولى في طريق تحصيله العلمي بمصادقية تتم عن فطرية نفسه التي لم تتلوث بالتصنع أو الاستعلاء أو إظهار صورته في أعين الناس بالتجمل ، بل نراه يتحدث بشفافية عن رغبته بالعمل في الزراعة وأن يكون مزارعاً وعدم الخروج من القرية التي ارتبط بكل ما فيها إلى درجة الالتصاق بها وبأهلها ، وهذا كان خلاف رغبة الوالد الذي رغب أن أدخل الأزهر والتحق بالمعهد الابتدائي الأزهرى في الزقازيق ، وقد حاولت قدر استطاعتي وجهدي من أجل الرسوب في الكشف الطبي ووضعت الشطة في عيني لكي تتورم وتحمر وتلتهب ويقولوا عينه تعبانة ولا يصلح ، ولكن ذلك لم يفلح وقبلت في الكشف الطبي لأنني اكتشفت أنهم يأخذوا حتى المكفوفين وحاولت مرة أخرى أن اسقط نفسي في الامتحان الشفوي في القرآن ، وكنت اتعمد اللخبطة وعدم التسميع بدقة ، وقد لاحظ الشيخ الذي كان يمتحنني أنني اتعمد اللخبطة وعدم الاجابة بدقة ، فقال لي الشيخ : فيه جاي معاك ؟ فقلت له : نعم والدي ، فقال الشيخ : هاتوا أبوه ونادوا عليه ، وجاء والدي وأنا جالس للتسميع وسأله الشيخ : هل ابنك حافظ القرآن ؟ فقال والدي : نعم يا فضيلة الشيخ .. حافظه حفظ جيد جدا ومن المتميزين في الكتاب ، ففهم الشيخ أنني اتلاعب لكي لا يتم قبولي ، فقال الشيخ وهو غاضب : قوم يا ولد انت ناجح .

يقول الشيخ الشعراوي : وهكذا شاءت إرادة الله تعالى أن أدخل الأزهر الشريف وأن تتحقق رغبة والدي على الرغم من عدم رغبتى في المراحل الأولى وحنينه للعودة إلى القرية والاستقرار فيها والعمل بالزراعة ، وكنت اثقل على والدي في الطلبات والمصروفات وشراء الكتب حتى يضيق عليه ويوافق على عودته والانقطاع عن الدراسة ، ولكن وجدت والدي يصبر ويتحمل افعالي بكل رضا وطيب خاطر ، ولعل الموقف الذي كان سبباً في تغيير مسار حياتي هو أنني طلبت من والدي أن يشتري لي كتب ، وكتبت له قائمة بأسماء الكتب لكي يشتريها لي باعتبارها من الكتب المقررة علينا في الدراسة ، وفي الحقيقة انني كنت أود تعجيزه والتضييق عليه حتى يردني إلى القرية ، ولكني فوجئت بوالدي يشتريها ويحضرها لي ، وقال وهو يقدمها لي : أنني اعلم يا بني أن جميع الكتب هذه التي طلبتها ليست مقررة عليك ، ومع ذلك فقد اشتريتها لك لكي تنهل من علومها وأسأل الله تعالى أن ينفعك بما فيها ، وقد وقعت هذه الكلمات علي سمعي كأنها صاعقة ، وكانت نقطة البداية في تحول حياتي العلمية وسبب في اجتهادي وتحصيلي العلمي وأنه لا عذر لي بعد ذلك ولا حيلة " (١)

ويتحدث الشيخ الشعراوي طويلاً عن والده وعن حبه للعلم والعلماء وأثره في تكوينه العلمي فيقول : يشهد الله أنني أخذت من معلمي ١٠ % من ثقافتي ، وأخذت من أبي الرجل الأمي ٩٠ % من ثقافتي " (٢) وبعد أن أدرك اهتمام والده وحرصه على التحصيل العلمي بدأ الشيخ الشعراوي يلتفت إلى الاهتمام بالدراسة ، فحصل على الشهادة الابتدائية الأزهرية ١٩٣٠ م ، والتحق بالقسم الثانوي بالمعهد الأزهرى بالزقازيق وحصل على الشهادة

١ سعيد ابو العينين : الشعراوي الذي لا نعرفه - ص ١٧ - ١٩ بتصرف .

٢ سعيد ابو العينين : المرجع السابق - ص ٢٠ .

الثانوية الأزهرية عام ١٩٣٦ م ، ثم التحق بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر بالقاهرة وحصل على شهادة العالمية عام ١٩٤١ م ، ثم حصل على إجازة التدريس عام ١٩٤٣ م " (١) .

تدرج الشيخ محمد متولي الشعراوي في الوظائف :

تدرج الشيخ الشعراوي في العديد من الوظائف والمناصب ومنها : مدرساً بمعهد طنطا الزهري ، ثم انتقل الى المعهد الأزهرى بالقازيق ، ثم انتقل للمعهد الأزهرى بالإسكندرية ، ثم أعير ليعمل استاذاً للشرعية بجامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية عام ١٩٥٠ م ، وأخذ يدرس علم العقيدة على الرغم من أن تخصصه اللغة العربية ، ولكنه اثبت تفوقه في مادته مما لاقى استحسان الجميع وتقديرهم والثناء عليه ، وفي عام ١٩٦٠ م عين وكيلاً للمعهد الأزهرى بطنطا ، وفي عام ١٩٦١م عين مديراً للدعوة بوزارة الأوقاف المصرية ، ثم مفتشاً للعلوم العربية بالأزهر عام ١٩٦٢ م ، ثم مديراً لمكتب شيخ الجامع الأزهر الشيخ حسن مأمون ١٩٦٤ م وقد رفض الشيخ الشعراوي قبول هذا المنصب ، وكان الشيخ حسن مأمون من خريجي مدرسة القضاء الشرعي وليس من خريجي الأزهر ، وقد تسبب تعيينه شيخاً للأزهر حساسية شديدة عند علماء الأزهر ، فصمم على اختيار الشيخ الشعراوي مديراً لمكتبه درءاً لهذه الحساسية ، وقال له : لن تكون مهمتك تحديد مواعيد الزائرين أو مسائل إدارية خاصة بي ، ولكنك مستشاري في كل ما يتعلق بالأزهر والدعوة الإسلامية ، وسيكون جلوسك دائماً بجواري في مكتبي وتكون أماً لي وليس مديراً لمكتبي .

ثم عين رئيساً للبعثة الزهرية بالجزائر عام ١٩٦٦ م ، ثم مديراً لأوقاف الغربية ، ثم عين وزيراً للأوقاف وشئون الأزهر عام ١٩٧٦ م - ١٩٧٨ م ، ثم اختير عضواً بمجمع البحوث الإسلامية عام ١٩٨٠ م ، ثم عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٨٧ م ، واختارته رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة عضواً بالهيئة التأسيسية " (٢) ومع كافة هذه الالتزامات المهنية والعلمية فإنه كان لا يتوانى عن الحرص على المشاركة بالبرنامج التليفزيوني "حديث الروح" وكذلك التزامه الدائم في برنامج "نور على نور" والذي استمر خمسة عشر عام وكان الشيخ الشعراوي هو ضيفه الدائم " (٣)

جوائز وأوسمة التكريم التي حصل عليها الشيخ الشعراوي :

لقد كانت حياة الشيخ الشعراوي حافلة بالعطاء العلمي والدعوي ، ونظراً لجهوده وتفانيه في خدمة القرآن الكريم والدعوة الإسلامية ونشر العلم الشرعي ، فقد حظي بالعديد من التكريم والجوائز والأوسمة ، ومنها :

- ١ مقدم محمد : منهج الشعراوي في تفسير القرآن الكريم - رسالة دكتوراه قسم الحضارة الإسلامية بكلية العلوم الإنسانية جامعة وهران بالجزائر - ٢٠١٣
- ٢ محمد صديق المنشاوي : الشيخ الشعراوي وحديث الذكريات - ص ٣١ - ٣٤ بتصرف / وانظر : مقدم محمد : منهج الشعراوي في تفسير القرآن - ص ٢٤ .
- ٣ محمد زيد : الشعراوي .. مذكرات امام الدعاة - ٢٢ بتصرف .

- جائزة وسام الجمهورية عام ١٩٧٦ م والتي منحها له الرئيس المصري محمد أنور السادات .
- وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٨٨ م والتي منحها له الرئيس المصري محمد حسني مبارك .
- جائزة الدولة التقديرية بجمهورية مصر العربية عام ١٩٨٨ م
- منحه الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة المنصورة عام ١٩٩٠ م
- اختياره الشخصية الإسلامية الأولى في العالم لإسلامي بدولة الإمارات عام ١٩٩٨ م
- اختارته محافظة الدقهلية كشخصية المهرجان الثقافي لعام ١٩٨٩
- جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية في عام ١٩٩٤م (١)

شيوخه :

- الشيخ عبد المجيد باشه
- الشيخ مصطفى الصاوي
- الشيخ احمد مكي
- الشيخ ابراهيم حمروش
- الشيخ عبد الغني علي حسن
- الشيخ أمين سرور
- الشيخ محمد غرابه
- الشيخ محمد عبد اللطيف دراز
- الشيخ عبد المتعال الصعيدي
- الشيخ محيي الدين عبد الحميد ابراهيم (٢)

١ محمد زيد : المرجع السابق - ص ٢٣ - ٢٤ بتصرف / وانظر: مقدم محمد : منهج الشعراوي في تفسير القرآن الكريم - ص ٢٥ .

٢ محمد زيد : المرجع السابق - ص ٢٧ - ٣١ / وانظر: مقدم محمد : منهج الشعراوي في تفسير القرآن الكريم - ص ٢٦ - ٢٧ .

المطلب الثاني

مؤلفات الشيخ الشعراوي وآثاره العلمية

ترك الشيخ الشعراوي مكتبة زاخرة بمختلف التخصصات والعلوم ، وهي شهادة على عطائه العلمي والمعرفي في العديد من علوم الدين والشريعة خدمة للقرآن الكريم والسنة النبوية ، ولم يدخر جهداً في كل ما يتعلق بنصرة قضايا الأمة العربية والإسلامية ، وتحقيقاً للأخوة الإنسانية ، وهي كما يلي :

القرآن الكريم وعلومه :

• تفسير القرآن الكريم : وهي ٢٨ جزءاً ، يسميها "خواطر" يقول عنها الشيخ الشعراوي في مقدمة كتابه : " فهذا حصاد عمري العلمي ، وحصيلة جهادي، الاجتهاد شرفي فيه أنني عشت كتاب الله ، وتطامننت لاستقبال فيض الله ، ولعلي أكون قد وفيت حق إيماني، وأديت واجب عرفاني، وأسأل الله سبحانه أن تكون خواطري هذه خواطر من يأتي من بعدي، وكتاب الله لا تتقضي عجائبه حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وحينئذ نعلم من الله ما أدخره لمن هداه .

• معجزة القرآن : ١١ جزء

• المختار من تفسير القرآن : ٤ أجزاء

• تفسير سورتي القارعة والتكاثر

• أسرار بسم الله الرحمن الرحيم

• في رحاب الهدى القرآني

• متشابه القرآن

• تفسير سورة النبأ

• الأمثال في القرآن الكريم

• مع القرآن وقصصه

• المنتخب في تفسير القرآن الكريم

• الجهاد في القرآن الكريم

• نظرات في القرآن الكريم

الفقه والفتوى :

• الفتاوى الكبرى

• الحلال والحرام

• ١٠٠ سؤال وجواب في الفقه الإسلامي (جزءان)

• الفتاوى : ١٠ اجزاء

- الصلاة وأركان الإسلام

العقيدة والأخلاق :

- القضاء والقدر
- تسخير الجن وكرامات الأولياء
- الله والكون
- الإسلام عقيدة ومنهج
- خطر الكفر والنفاق على المجتمع الإسلامي
- لا إله إلا الله وأثبت وجود الله
- عقيدة المسلم
- الأدلة المادية على وجود الله
- الحياة والموت
- يوم القيامة
- الغيب
- السحر والحسد

السيرة النبوية :

- الإسراء والمعراج
- معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم
- السيرة النبوية
- الرسول صلى الله عليه وسلم بين مكة والمدينة
- من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم
- هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم
- الشمائل المحمدية ورد شبهات المستشرقين

الفكر الإسلامي :

- الله والإنسان
- شبهات وأباطيل لخصوم الإسلام والرد عليها
- روح الإسلام ومزاياه

- قضايا معاصرة
- عدالة الله
- الإسلام بين الرأسمالية والشيوعية
- واجب المسلمين أمام تحديات العصر
- الشورى والتشريع في الإسلام
- الإسلام والمرأة

بحوث عامة

- الانسان والشيطان
- الرزق
- الكهف
- خطب الجمعة والعيدان
- مريم والمسيح عليهما السلام
- قصيدة الباكورة
- التربية الإسلامية
- الكعبة في حماية الله
- أعداء الإسلام
- قضايا إسلامية

من خلال ما تم عرضه في المبحثين السابقين يتبين لنا دور البيئة وأثرها في نشأة الشيخ الشعراوي وأثرها في تكوين شخصيته العملية والمعرفية والدعوية ، ويتبين أثر والده الكبير في توجيهه الوجهة الدينية والأخلاقية ، ودوره البارز في توجيه قبلته العلمية بدءاً من مرحلة التكوين الأولى للقراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم في الكتاب ، ثم ترويض الشيخ الشعراوي والصبر عليه حتى استقر به المقام بالمعهد الابتدائي الأزهري ، وبدء مرحلة جديدة في حياة الشيخ الشعراوي في تحصيله العلمي بجد ومصابرة حتى انتج لنا مكتبة علمية شاملة وزخيرة معرفية وموسوعية هي نتاج ٨٧ عاماً قضاها في رحاب العلم والدعوة الإسلامية .

الفصل الأول

مفهوم تزكية النفس في فكر الشعراوي وأقسامها

تمهيد :

سيتضمن هذا الفصل على ثلاثة مباحث في غاية الأهمية ، حيث رأيت أن ذلك ما تستدعيه المنهجية وطبيعة البحث ، وتلك نبذة مختصرة عما نود طرحه في هذا الفصل وما يتضمنه من مباحث :

المبحث الأول : مفهوم التزكية والنفس في فكر الشعراوي :- وهذا المبحث يركز على تحرير المفاهيم وتحديد المصطلحات ، لذلك يحسن بنا أن نبدأ بتعريف تحليلي لألفاظ عنوان البحث "التزكية - النفس" وذلك تمشياً مع ما يقتضيه التأصيل العلمي ، وتستدعيه القواعد المنهجية للبحث ، لأن المفهوم أو المصطلح جزء من المنهج وأداة له ، ومقدمة للحركة ، ووسيلة للدفع والتدافع ، لأنه لا تُعد كلمة "مفهوم" أو "مصطلح" بسيطة ، وإنما كل كلمة تحمل من المضامين والمعاني ما يفوق كثيراً إطارها اللفظي ، فاللغة ليست مجرد أداة رمزية ، إنها جوهر التفاعل الحضاري من منطلق العملية الاتصالية ، وتعبير عن حقيقة حضارية ، فعلاقة الألفاظ بالفكر: علاقة ديناميكية ^(١)

المبحث الثاني : العوامل المؤثرة في تكوين النفس في فكر الشعراوي : وفي هذا المبحث نود أن نتعرف على أهم المؤثرات والعوامل التي تركز عليها النفس في تكوينها سلباً وإيجاباً ، وتسوقها إلى الفجور أو التقوى .

المبحث الثالث : أقسام النفس في فكر الشعراوي :- في هذا المبحث نتناول ما ذكره الشيخ الشعراوي عن أقسام النفس ، وسوف نلاحظ أن الشيخ الشعراوي قد تجاوز التقسيم المتعارف عليه والذي يركز على تقسيم النفس إلى نفس أمارة ونفس لوامة ونفس مطمئنة ، حيث يمكننا الوقوف على أقسام النفس عند الشعراوي من خلال تفسيره لكلمة النفس والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم مائتين وخمسا وتسعين مرة (٢٩٥) ما بين المعرف وغير المعرف والمفرد والجمع ، وقد وقف الشيخ مع كل قسم منها وفق سياقها .

(١) نصر محمد عارف : نظريات التنمية السياسية المعاصرة ، ص ٢٢٦-٢٢٧ ، فيرجينيا ، أمريكا ، ١٩٩٣م

المبحث الأول

مفهوم التزكية والنفس في فكر الشعراوي

مفهوم التزكية والنفس في اللغة والإصطلاح :

مفهوم التزكية في اللغة :

والتزكية في اللغة مصدر زكى الشيء يزكيه ، ولها معنيان : المعنى الأول : التطهير ، يقال : زكيت هذا الثوب تزكية ، أي : طهرته ، ومنه الزكاء ، أي الطهارة .

والمعنى الثاني : الزيادة ، ويقال : زكا المال يزكو إذا نما وزاد ، ومنه الزكاة ، لأنها تنمية للمال وزيادة له .

وعلى أساس المعنى اللغوي جاء المعنى الاصطلاحي في تزكية النفوس .

فالتزكية تأتي بمعنى الزيادة والنماء والبركة ، كما في قول العرب "زكاة الزرع" أي نمائه ، ومنه قوله تعالى "قد أفلح من زكاها" أي من نماها وزادها .

وورد ذكرها في معجم مقاييس اللغة أن معناها : الزاء والكاف والحرف المعتل أصل يدل على نماء وزيادة .

ويقال : الطهارة زكاة المال .

وقال بعضهم : سميت زكاة لأنها طهارة ، وحجة ذلك قوله سبحانه وتعالى { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ

بِهَا } (١) والأصل في ذلك كله راجع إلى هذين المعنيين ، وهما النماء والطهارة ، ومن النماء : زرع زاكٍ ، ويقال أمر

لا يزكو بفلان ، أي لا يليق به " (٢)

وقال ابن منظور : الزكاة : الصلاح ، وزكى الرجل نفسه إذا وصفها وأثنى عليها " (٣)

ويقال : تزكية النفس ضربان :

فعلية : وهي محمودة شرعاً كقوله تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا } (٤) بأن تحملها على الاتصاف بكامل الأوصاف .

وقولية : وهي مذمومة ، كقوله تعالى {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى } (٥) أي بتنائكم عليها وافتخاركم بأفعالكم

" (٦)

وجاء في تهذيب اللغة : كل شيء يزداد ويسمن فهو يزكو زكاء " (٧)

(١) سورة التوبة : آية رقم (١٠٣)

(٢) أحمد بن فارس بن زكريا القزويني : معجم مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر - ١٩٧٩ م ، ج ٣ ، ص ١٨١٧ .

(٣) محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري : لسان العرب ، دار صادر ، بيروت - ١٤١٤ هـ ، ج ١٤ ، ط ٣ ، ص ٣٥٨ .

(٤) سورة الشمس : آية رقم (٩)

(٥) سورة النجم : آية رقم (٣٢)

(٦) أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني المرتضى الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس ، دار الهداية ، ج ١ ، ص ٩١ وانظر / محمود ابراهيم :

المنهج القرآني في تزكية النفس : رسالة ماجستير ، قسم التفسير بكلية أصول الدين ، الجامعة الإسلامية بغزة ، ٢٠١٢ م ، ص ٤ .

(٧) أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي : تهذيب اللغة ، تحقيق : محمد عوض ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ٢٠٠١ م ، ص ١٧٥

ويرى الراغب الصفهاني: أن النمو فيها ناتج من بركة الله تعالى فيقول : أصل الزكاة : النمو الحاصل عن بركة الله تعالى ، ويعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية ، يقال : زكا الزرع يزكو إذا حصل منه نمو وبركة " (١) والتدسية ضد التزكية ، كما قال تعالى {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} (٢) وأصل التدسية الإخفاء ، ومنه قوله تعالى {أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ} (٣) فالعاصي يدس نفسه في المعصية ويحقرها (٤) وحاصل القول أن التزكية في اللغة تعني : الزكاء والنماء والطهارة .

التزكية في الاصطلاح : سوف نتناول عدد من التعريفات الاصطلاحية لمفهوم التزكية ومنها :

يقول الشيخ محمد حسن الددو الشنقيطي : على أساس المعنى اللغوي جاء المعنى الاصطلاحي في تزكية النفوس ، فتزكية النفس شاملة لأمرين :

الأمر الأول : تطهيرها من الأدران والأوساخ.

والأمر الثاني : تتميتها بزيادتها بالأوصاف الحميدة.

أما المعنى الأول : فهو تخليتها عن الأوصاف الذميمة.

وأما المعنى الثاني : فهو تحليلتها بالأوصاف الحميدة (٥)

وقيل بأن التزكية تعني: تطهير النفس من نزعات الشر والإثم ، وتنمية فطرة الخير فيها مما يؤدي إلى استقامتها ، وبلوغها درجة الإحسان .

وقيل أن معنى التزكية في الاصطلاح : هو تخلص النفس الإنسانية من كل ما يتعلق بها من شوائب ونواقص ، وترسيخ الفضائل والقيم النبيلة والأخلاق السامية فيها ، وتوجيهها إلى كل ما فيه الخير والصلاح .

وترجمة ذلك كله في كلمتين مشهورتين عن أهل السلوك والطريق وهما : التخلية والتحلية .

والمقصود من التخلية: هو تطهير النفس من الرذائل ، كالحسد والرياء والكبر والعجب وحب الدنيا وغيرها من الرذائل .

والمقصود بالتحلية : هو العمل بالطاعات والمبرات والقربات مما يترتب عليه تحلي النفس وتزكيتها بالفضائل كالعفة والشجاعة والعدل والصدق " (٦) .

(١) أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني : المفردات في غريب القرآن ، تحقيق : صفوان عدنان، دار القلم، بيروت ، ص ٣٨٠ .

(٢) سورة الشمس: آية رقم (٩ - ١٠)

(٣) سورة النحل : آية رقم (٥٩)

(٤) الإمام ابن قيم الجوزية : الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي - دار الندوة الجديدة - بيروت - ١٤٠٥ هـ - ص ٨٤

(٥) الشيخ محمد الحسن الددو الشنقيطي : دروس للشيخ محمد الددو ، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية ، ج ١٥ ، ص ٣ shamela.ws/book

(٦) د. نايف حامد همام : مفهوم التزكية وتطبيقاتها في التربية الإسلامية - مجلة الأحمدية - العدد الرابع - ١٤٢٠ هـ - بحث علمي منشور بوقفية الأمين غازي للفكر القرآني .

وهناك تعريف آخر للتركية في إطارها الاصطلاحي يتلاقى في كثير من جوانبه مع التعريفات السابقة : وهو عبارة عن تخلية النفس من العيوب والرزائل والآفات الظاهرة والباطنة ، وتحليتها بالفضائل والاجتهاد المتواصل في تنميتها وإصلاحها بما يرضى الله عز وجل ، وتحقيق الاستقامة لصاحبها في الحياة الدنيا ، والفلاح والنجاة في الآخرة (١) وقد ورد في الفتاوى لابن تيمية قول الزجاج : {دساها} جعلها ذليلة حقيرة خسيصة .

وقال ابن قتيبة : أي أخفاها بالفجور والمعصية .

ويقول ابن تيمية : التركية جعل الشيء زكياً إما في ذاته وإما في الاعتقاد والخبر ، كما يقال عدلته : إذ جعلته عدلاً في نفسه أو في اعتقاد الناس ، قال تعالى {فلا تزكوا أنفسكم} (٢) أي تخبروا بزكاتها " (٣)

التركية في القرآن والسنة النبوية :

ذكر الإمام الفيروزآبادي في كتابه بصائر ذوي التمييز (٤) ما ورد في القرآن الكريم من آيات التركية والمعاني المقصودة بها وحصرها ضمن الوجوه التالية :

تارة تنسب إلى الله تعالى لكونه فاعلاً لذلك في الحقيقة { بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَنْ يَشَاءُ } (٥) بمعنى الهداية والتوفيق من الله لعباده في الدنيا ، كما نسبت إليه في الآخرة {وَلَا يَكْلِمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (٦) وتارة تنسب إلى العبد لاكتسابه ذلك { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا } (٧) أي نماها وطهرها وتخلقت بالأخلاق الفاضلة .

وتارة تنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه واسطة في وصول ذلك إليهم {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} (٨) وهنا تنسب الزكية لرسول الله لأنه المرابي والمزكي لأمته والمرشد إلى طريق الخير ، وهذه هي المهمة التي كلفه الله بها وأمره بأدائها

وتارة إلى العبادة التي هي آلة في ذلك { وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا } (٩) وذلك لأنه يزكى نفسه بالإيمان والمجاهدة .

وقوله {لأهـب لك غلاماً زكياً} (١٠) أي زكي الخلقة ، وهو أن يجعل بعض عباده عالماً وطاهر الخلق لا بالتعلم والممارسة ، بل بقوة إلهية ، كما يكون لكل الأنبياء والرسل ، ويجوز أن يكون تسميته بالزكي لما سيكون عليه في الاستقبال لا في الحال .

(١) د. سهام محمد الأربيع : مفهوم التركية وأثره في مناهج التربية عند الصوفية ، مجلة جامعة سرت للعلوم الإنسانية ، م ١٢ ، ع ٢ ، ديسمبر ٢٠٢٢ م .

(٢) سورة النجم : آية رقم (٣٢)

(٣) أنس أحمد كرزون : منهج الإسلام في تركية النفس - قسم العقيدة بجامعة أم القرى - ١٩٩٥ م - بحث منشور / وأنظر : تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية : مجموع الفتاوى - م ١٠ - ص ٩٧ - ٩٨ ، ٦٢٨ - ٦٢٩ .

(٤) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي : بصائر التمييز في لطائف الكتاب العزيز - تحقيق : محمد علي النجار - طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة تحقيق التراث الإسلامي - القاهرة - ج ٣ - ط ٣ - ص ١٣٢ - ١٣٥ بتصرف .

(٥) سورة النساء : آية رقم (٤٩)

(٦) سورة آل عمران : آية رقم (٧٧) / وانظر سورة البقرة : آية رقم (١٧٤)

(٧) سورة الشمس : آية رقم (٩)

(٨) سورة التوبة : آية رقم (١٠٣)

(٩) سورة مريم : آية رقم (١٣)

(١٠) سورة مريم : آية رقم (١٩)

وقوله تعالى { والذين هم للزكاة فاعلون } (١) أي يفعلون ما يفعلون من العبادة ليزكيهم الله ، أو ليزكوا أنفسهم ، والمعنيان واحد ، وليس قوله {للزكاة} مفعولاً لقوله {فاعلون} بل اللام فيه للقصد والعلة .

وتارة بمعنى الأقرب إلى المصلحة {هو أزكى لكم} (٢)

وتأتي بمعنى الحلال {فلينظر أيها أزكى طعاماً} (٣)

وبمعنى الحسن واللطافة { أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ } (٤)

وبمعنى الصلاح والصيانة { فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا } (٥)

وبمعنى النبوة والرسالة {لَأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا} (٦) أي رسولا نبيا

وبمعنى الدعوة والعبادة {وأوصاني بالصلاة والزكاة} (٧)

وبمعنى الاحتراز عن الفواحش {مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا} (٨)

وبمعنى الإقبال على الخدمة {وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ} (٩)

وبمعنى الإيمان والمعرفة {الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} (١٠) أي لا يؤمنون

وبمعنى التوحيد والشهادة {وَمَا عَلَيْكَ أَلَا يَزَكِّي} (١١)

وبمعنى الثناء والمدح {فلا تزكوا أنفسكم} (١٢)

وبمعنى النقاء والطهارة {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} (١٣)

وبمعنى التوبة من دعوى الربوبية {هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى} (١٤)

التزكية في السنة النبوية :

وردت مشتقات الفعل "زكى" و " زكاة " في السنة النبوية بمعنى التطهير والمدح والنقاء والإخلاص ، ومما ورد :

(١) سورة المؤمنین : آية رقم (٤)

(٢) سورة النور : آية رقم (٢٨)

(٣) سورة الكهف : آية رقم (١٩)

(٤) سورة الكهف : آية رقم (٧٤)

(٥) سورة الكهف : آية رقم (٨١)

(٦) سورة مريم : آية رقم (١٩)

(٧) سورة مريم : آية رقم (٣١)

(٨) سورة النور : آية رقم (٢١)

(٩) سورة فاطر : آية رقم (١٨)

(١٠) سورة فصلت : آية رقم (٧)

(١١) سورة عبس : آية رقم (٧)

(١٢) سورة النجم : آية رقم (٣٢)

(١٣) سورة الشمس : آية رقم (٩)

(١٤) سورة النازعات : آية رقم (١٨)

ما روي عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليلة حين فرغ من صلاته : اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمه بها أمري وتلم بها شعني وتصلح بها غائبي وترفع بها شاهدي وتركي بها عملي" (١)

وأيضاً ورد في صحيح الإمام مسلم عن سيدنا زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر ، اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها ، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعوة لا يستجاب لها " (٢)

وقال الإمام النووي رحمه الله : معنى " زكها " أي طهرها ، ولفظة " خير " أي أنه لا مزكي لها إلا أنت يا الله " (٣) والرسول صلى الله عليه وسلم فسر التزكية ببلوغ مرتبة الإحسان فقال : ثلاث من فعلهن فقد طعم الإيمان من عبد الله وحده وعلم أن لا إله إلا الله وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه رافدة عليه كل عام ولم يُعطِ الهرمة ولا الدرنه ولا المريضة ولا الشرط اللئيمة ولكن من أوسط أموالكم فإن الله لم يسألكم خيرَه ولم يأمركم بشره ، وزكى نفسه ، فقال رجل : وما تزكية النفس ؟ فقال : أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان " (٤)

ولابد من التأكيد أنه المراد بتزكية النفس هو اقتلاعها من الأوصاف الذميمة منها ، وغلبة صفات الخير ، وضبط صفات الشر وتوجيهها بالمجاهدة والمصابرة ، وتطهير النفس من نزعات الشر والإثم حتى يبلغ درجة الإحسان (٥).

مفهوم التزكية في فكر الشيخ الشعراوي:

تناول الشعراوي الحديث عن التزكية والنفس من خلال ما ورد في مؤلفاته ودروسه وشرحه وتفسيره للآيات المتعلقة بكلمة زكى والنفس ومشتقاتهم وفق سياق النص القرآني .

يشكل مفهوم التزكية في فكر الشعراوي لباً أساسياً في فهمه للروح الإنسانية وعلاقتها بالله سبحانه وتعالى ، ويمكننا الوقوف على ذلك من خلال تفسيره لقول الله تعالى ﴿الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٦)

فالتزكية في فكر الشعراوي تعني : تطهير النفس من العيوب ، ثم إيجاد كمالات إضافية تنمي طاعة النفس وتقويتها فالتزكية هي أولاً : التطهير من المعاييب ، وهذا يعني سلب النقيصة .
وثانياً : إيجاد كمالات زائدة فيها نماء " (٧) .

(١) إبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي : الجامع الصحيح - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٨٧م - كتاب الدعوات - رقم ٣٤١٩ .

(٢) حديث شريف : صحيح الإمام مسلم - كتاب الدعاء - حديث رقم ١٨٧١

(٣) أبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي : شرح صحيح الإمام مسلم - دار الفكر - بيروت - ١٩٨١م - ٩ / ٤١

(٤) حديث شريف : أخرجه أبو داود (١٥٨٢) وأبو نعيم في: معرفة الصحابة (٤٥٢٨) والبيهقي في السنن ٤ / ٩٥ رقم (٧٥٢٥) صححه الألباني في سلسلة

الأحاديث الصحيحة - حديث رقم ١٠٤٦ باختلاف يسير

(٥) أنس احمد كرزون : منهج الإسلام في تزكية النفس - ص ٥

(٦) سورة النساء : أية 49

(٧) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م 4 - ص 2312 .

ويميز الشعراوي بوضوح بين "التزكية بالباطل كمدح النفس" و بين "التزكية بالحق" التي تتم عندما يكون للإنسان كفاءة عالية وأداء متميز يلجأ إليه الناس في المواقف الحاسمة .

يذكر الشعراوي ذلك من خلال طرح سؤال فقال " يجب أن نسأل : هل اذا زكي الإنسان نفسه بحق تكون تلك التزكية مقبولة ؟ نقول : علينا أن نسأل ما المراد منها ؟ إن كان المراد منها هو الفخر .. تكن باطلة ، لكن تكون التزكية للنفس واجبة في أمر يحتم ذلك .

ثم يضرب الشيخ الشعراوي مثلاً فيقول : عندما تتركب جماعة زورقاً ويكون القائد أو من يجذف أو يمسك الشراع متوسط الموهبة ، ثم قامت عاصفة ولا يقوي متوسط الموهبة علي قيادتها ، هنا يتقدم إنسان يفهم في قيادة الزوارق أثناء العواصف ويقول لمتوسط الموهبة : ابتعد عن القيادة فأنا أكثر منك فهماً وكفاءة وقدرة منك علي هذا الأمر ويزحزحه ويمسك القيادة بدلاً منه ، هذه هي التزكية للنفس ، وهي مطلوبة ، لأن الوقت ليس وقت تجربة ، وهو يزكي نفسه بحق ، إذاً فهناك فرق بين التزكية بالباطل وبين التزكية بالحق".(١)

ويربط الشعراوي التزكية بحديث قصة سيدنا يوسف عليه السلام حين ذكي نفسه بعبارات علمية - تفسير رؤيا الملك- ليتولى أمر بلاد مصر ، لكنه عاد ورد الفضل كله لله سبحانه وتعالى. (٢)

إذن فالتزكية هنا مطلوبة ، وقد ردها سيدنا يوسف عليه السلام الي الله عز وجل ، وأعلن أن تلك ليست خصوصية من الله له ، بل كل واحد من خلق الله يستطيع أن يكون مثله (٣) لما جاء في قوله تعالى { إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } (٤)

ويشير الشيخ الشعراوي خلال تفسيره للآية الكريمة { فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى } (٥) كتحذير من مدح النفس دون الرجوع الي الحق ، لأن التزكية الحقيقية هي من الله عز وجل أولاً ، ومن يعطيها من أهل العلم ثانياً.

وفي هذا السياق تتبلور مراحل بناء المصطلح عن التزكية لدى الشيخ الشعراوي كعملية تربوية إيمانية داخلية تبدأ بتطهير القلب ، ثم تتطور الي تدريب أخلاقي وسلوكي(٦) ويعود أثرها وتمددها الي مصلحة المجتمع وفق منهج قرآني تعليمي وليس مجرد معاني نظرية .

ويبين أيضاً أن التزكية عند الشيخ الشعراوي ليست مجرد كلمة تزينية تقال لرفع المقام الذاتي ، بل هي في الأساس تطهير داخلي للإنسان ، ثم كمالات تمنحه فعلاً ثابتاً يدعمه في العمل الصالح داخل المجتمع حين تكون مدعومة بإيمان راسخ وبقدرة واقعية يشهد لها العلم ، ولا تكون مدحاً زائفاً لا أساس له.

وبهذا المعنى يصبح مفهوم التزكية في فكر الشعراوي يؤسس على أنه درساً تربوياً قرآنياً يجمع بين القيم والمعرفة والسلوك ، ويقود النفس نحو ذات مضيئة راضية ومستقيمة .

(١) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م 4 - ص 2312

(٢) المصدر السابق : ص 2313 - قصة سيدنا يوسف عليه السلام في تفسير رؤيا الملك حيث رأي سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف

(٣) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي- م 4 - ص 2314

(٤) سورة يوسف : آية (37)

(٥) سورة النجم : آية رقم (32)

(٦) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي- م 26 - ص 12306

وان تركية النفس الإنسانية في فكر الشعراوي تتمثل في النفس الطيبة التي تخلصت بالمجاهدة من الخبائث الحسية التي تلوث الجسم ، فاقترنت عند تلبيتها لدوافعه من الطعام والشراب والنكاح وغيرها من متطلبات الإنسان لإشباع رغباته وشهواته المشروعة ، وتخلصت من الخبائث المعنوية التي تلوث الروح فاجتنبت الاعتقاد الخبيث والقول الخبيث والفعل الخبيث الغير مشروع ، حيث وضع الشيخ الشعراوي النفس الزكية من خلال تفسيره لقول الله تعالى {أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ} (١) ، وهذه الآية وردت علي لسان سيدنا موسى عليه السلام في حوار مع الخضر عندما رآه يقتل غلاماً ، فأنكر عليه ، وقال : كيف تقتل نفساً طاهرة لم تقترف ذنباً (٢)

وهنا تظهر دلالة النفس الزكية في مدلولها القرآني ، أي : أن النفس الزكية هي النفس الطيبة التي تسعى دائماً الي الطهارة من الذنوب ، وتتجه الي الخير ، وتأنف من الشر ، وتحب الطاعة وتكره المعصية ، وهي النفس التي تربت علي التقوي فصارت تميل الي الطهارة في الفكر والسلوك .

ويبين الشعراوي تركية النفس من خلال تفسيره لقول الله عز وجل {يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ} (٣) حيث يقول الشعراوي : " التركية هي التطهير ، ولا بد أن يكون هناك دنس ليطهرهم منه ، فطهرهم من عبادة الأصنام ومن وأد البنات والخمر والميسر والربا .

ومعني التركية أيضاً : سلب الضار ، فكأنه جاءهم بالنفع وسلب منهم الضر". (٤) لذلك يوضح الشعراوي أن الإنسان - هذا الكائن - مخلوق مزدوج الطبيعة ، مزدوج الاستعداد ، مزدوج الإتجاه ، ونعني بكلمة مزدوج علي وجه التحديد ، أنه بطبيعة تكوينه من طين ومن نفخة الله فيه من روحه مزود باستعدادات متساوية في الخير والشر ، والهدي والضلال ، فهو قادر علي التمييز بين ما هو خير وما هو شر ، كما أنه قادر علي توجيه نفسه الي الخير والي الشر سواء ، وأن هذه القدرة كامنة في كيانه (٥)،

فيعبر عنها القرآن الكريم بالإلهام تارة لقوله تعالى : { وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } (٦) ويعبر عنها بالهداية تارة لقوله تعالى : { وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ } (٧)

فهي كامنة في صميمه ، في صورة استعدادات ، والرسائل والتوجيهات ، والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها ، وهناك الي جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة في

(١) سورة الكهف : آية 74

(٢) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م 14 - ص 2239 - بتصرف

(٣) سورة البقرة : آية رقم (151)

(٤) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م 1 - ص 663

(٥) د أمينة محمد عبد الجواد أبو يوسف : منهج الشيخ الشعراوي في تركية النفس البشرية من خلال تفسير : - مجلة الدراسات التربوية والانسانية - م 10 - العدد 4

- ج 3 - جامعة دمنهور - مصر - 2018 - ص 126

(٦) سورة الشمس : آية رقم (7 - 8) .

(٧) سورة البلد : آية رقم (10)

ذات الإنسان ، فمن استخدم هذه القوة في تركية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها فقد أفلح ، ومن أظلم هذه القوة وأهملها وأضعفها فقد خاب (١)، لما جاء في قوله تعالى { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } (٢)
النفس في اللغة والاصطلاح :
النفس لغة :

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة : " نفس " النون والفاء والسين أصل واحد يدل على خروج النسيم كيف كان من ريح أو غيرها ، وإليه يرجع فروعه ، منه التنفس : خروج النسيم من الجوف ، وذلك أن في خروج النسيم روحاً وراحة .

والنفس : كل شيء يفرج به عن مكروب ، ونفس الله كربه .
والنفس الدم، وهو صحيح ، وذلك أنه إذا فقد الدم من بدن الإنسان فقد نفسه، والحائض تسمى النفساء لخروج دمها.
ونقول شيء نفيس، أي ذو نفْس وخطر يتنافس به ، والتنافس : أن يبرز كل واحد من المتبارزين قوة نفسه" (٣)
وأصابت فلان نفس ، أي عين ، والنفس : الماء ، سمي نفساً لأن به قوام النفس ، ويقال : ادفع الى الشيء نفسه ، أي عينه ، ورجا نفوس ، إذا كان يصيب الناس بالعين " (٤)
فلفظ النفس في اللغة يطلق ويراد به معان عديدة منها :

النفس بمعنى الروح ، يقال : خرجت نفس فلان ، أي روحه ، ومنه قولهم : فاضت نفسه ، أي : خرجت روحه .
النفس بمعنى حقيقة الشيء وجملته ، يقال : قتل فلان نفسه ، أي ذاته وجملته ، وأهلك نفسه ، أي أوقع الإهلاك بذاته كلها ، ومنه قول صاحب الصحاح : والتكبر هو : أن يرى المرء نفسه أكبر من غيره ، أي : ذاته .
النفس بمعنى الحسد والعين ، يقال : أصابته نفس ، أي عين .
النفس بمعنى الدم : ورد تعريف النفس بمعنى الدم وذلك أنه إذا فقد الدم من الإنسان فقد نفسه ، أو لأن النفس تخرج بخروجه ، يقال : سالت نفسه ، وفي الحديث : ما ليس له نفس سائلة لا ينجس الماء إذا مات فيه .
النفس ما يكون به التمييز : ونجد العرب قد تجعل النفس التي يكون بها التمييز نفسين ، وذلك أن النفس قد تأمره بالشيء وتتهى عنه" (٥) .

وجمع النفس : أنفس ونفوس ، أما النفس فهو خروج الهواء ودخوله الأنف والفم وجمعه أنفاس ، وهو كالغذاء للنفس ، لأن بانقطاعه بطلانها " (٦)
تعريف النفس اصطلاحاً :

وردت تعريفات متعددة للنفس في إطارها الاصطلاحي ، ومنها :

(١) محمد متولي الشعراوي : تفسير جزء عم : - ص 388

(٢) سورة الشمس : آية رقم (9 - 10)

(٣) احمد بن فارس : معجم مقاييس اللغة - م ٥ - ص ٤٦٠

(٤) أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي : جمهرة اللغة - تحقيق: رمزي منير - دار العلم للملايين - بيروت - ١٩٨٧ م - ج ٢ - ص ٨٤٨

(٥) د محمود فتوح محمد سعدات : النفس البشرية في ضوء الكتاب والسنة - دار الهدى للطباعة - ١٤٣٦ هـ - ص ١٠ - ١١

(٦) أنس احمد كرزون : منهج الإسلام في تركية النفس - ص ٦

يقول الجرجاني ان النفس هي : الجوهر البخاري اللطيف ، الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية " (١)
ورد في روح المعاني للألوسي ان النفس هي : الجوهر المتعلق بالبدن تعلق التدبير ، والتصريف أو الجسم
النوراني الخفيف الحي المتحرك النافذ في الأعضاء الساري فيها سريان ماء الورد في الورد " (٢)
يقول ابن القيم : ان ابن سينا وطائفة قالوا عن النفس أنها : جوهر قائم بنفسه متعلقة بالجسم تعلق التدبير
والتصريف فلو وجدت ولا تعلق لها بالجسم لم تكن نفساً بل كانت عقلاً ، فعلم أن وجود النفس مستلزم لوجود الجسم
" (٣)

أما الغزالي وهو من المهتمين بدراسة النفس اهتماماً كبيراً ، إذا أنه عدّ معرفة النفس توصل الى معرفة الله ، قائلاً :
أن النفس الإنسانية هي الكمال الأول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يفعل الأفاعيل بالاختيار العقلي والاستنباط
بالرأي ومن جهة ما يدرك الأمور الكلية
ويقصد بالكمال الأول : أي من غير واسطة ، وقوله : جسم طبيعي ، أي : غير صناعي لا في الأذهان بل في
الأعيان ، وقوله : آلي ، أي : ذي آلات يستعين بها ذلك الكمال الأول في تحصيل الكمالات الأخرى
ويوضح الغزالي أن النفس والروح والقلب والعقل يرادُ بها النفس الإنسانية التي هي محلُّ المعقولات ، ويرى أن
مصطلح النفس يُطلقُ بمعنيين؛ أحدهما: أن يطلق ويراد به المعنى الجامع للصفات المذمومة، وهي القوى الحيوانية
المضادة للقوى العقلية، والثاني: أن يطلق ويراد به حقيقةً الآدمي وذاته؛ فإن نفس كل شيء حقيقةً، وهو الجوهر
الذي هو محلُّ المعقولات، وهو من عالم الملكوت " (٤)

ويذكر الغزالي عجز الفلاسفة عن بيان أن النفس الإنسانية جوهرٌ روحاني قائمٌ بنفسه لا يتحيز ، وليس بجسم ولا
منطبع في الجسم ، ولا هو متصل بالبدن ولا هو منفصل عنه " (٥)
ويقول المناوي : هي الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية .

وسماها الحكيم - يقصد به أرسطو - هي الروح الحيوانية ، فهي جوهر مشرق للبدن ينقطع ضوئه عند الموت من
ظاهر البدن وباطنه ، وأما وقت النوم فينقطع ضوئه عن ظاهر البدن دون باطنه ، فثبت أن الموت والنوم من جنس
واحد ، لأن الموت انقطاع كلي والنوم انقطاع خاص - جزئي - وعلى ذلك فيكون تعلقها بالإنسان على ثلاثة

(١) الإمام الجرجاني : كتاب التعريفات ، ص ٢٦٢ .
(٢) العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - دار أحياء التراث العربي - ٢٠٠٨ م - ١٧ ص ٤٦
(٣) احمد بن ابراهيم بن عيسى : توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن قيم الجوزية - المكتب الإسلامي - بيروت - ١٩٨٦ م - ١٠ م - ط ٣ - ص ٧٥
(٤) حجة الإسلام ابي حامد محمد بن احمد الغزالي: معارج القدس في مدارج معرفة النفس - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٨٨ - ص ١٥ - ٢١ بتصرف
(٥) حجة الإسلام ابي حامد محمد بن احمد الغزالي : تهافت الفلاسفة - تحقيق : د. سليمان دنيا - ط ٦ - دار المعارف - القاهرة - بدون تاريخ - ص ٢٥٢

أضرب : إن غلب ضوء النفس على جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه فهو حال اليقظة ، وإن انقطع عن ظاهره فقط فهو النوم ، وإن انقطع بالكلية فالموت " (١)

ونذكر العلماء المعاصرون عدة تعريفات للنفس ، ولكنها جميعاً تتلاقى مع التعريف التالي وهو : أن النفس هي جوهر الإنسان ومحرك أوجه نشاطه المختلفة : إدراكية أو حركية أو فكرية أو انفعالية أو أخلاقية ، سواء أكان ذلك على مستوى الواقع أو على مستوى الفهم ، والنفس هي الجزء المقابل للبدن في تفاعلها وتبادلها التأثير المستمر والتأثر ، مكونين معاً وحدة متميزة نطلق عليها لفظ " شخصية " تميز الفرد عن غيره من الناس وتؤدي به إلى توافقه الخاص في حياته " (٢)

النفس في القرآن الكريم والسنة النبوية :

ولفظ "النفس" بمشتقاته ورد في القرآن الكريم في ثمانية وتسعين ومائتي (٢٩٨) موضع على عدة معان ، منها:
النفس بمعنى الروح : قال تعالى { الله يتوفى النفس حين موتها } (٣) يقال خرجت نفسه ، أي خرجت روحه.
النفس بمعنى قوى الخير والشر في الإنسان : قال تعالى { ونفسٍ وما سواها فألهمها فجورها وتقواها } (٤) أي لديها القدرة على إدراك الخير والشر والتمييز بينهما من خلال الاستعدادات الفطرية الكامنة كقوة واعية ومدركة وموجهة في ذات الإنسان ، فمن استخدم هذه القوة في الخير وغلبها على الشر فقد أفلح ، ومن فعل غير ذلك فقد خاب .
وهذا يبين أن النفس لها خصائص كثيرة ، فهي تحب وتكره وتسول وتوسوس وتتوي ، كما أنها ترشد صاحبها إلى طريق الخير وتلومه على فعل الشر ، ولهذه النفس آثار ظاهرة في السلوك الإنساني .
النفس بمعنى أهل الإيمان والشرعية وأخوة الدين : من ذلك قوله تعالى في حادثة الإفك { لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً } (٥) قال ابن عرفة ، أي : بأهل الإيمان ، وأهل شريعتهم .
ومن هذا القبيل قوله عز وجل { لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم } (٦)
قال ابن إسحاق : لقد منَّ الله عليكم يا أهل الإيمان ، إذ بعث فيكم رسولا من أنفسكم يتلو عليكم آياته ويزكيكم .
وهناك من قال : إن المراد بالآية هنا العرب - كما قال الطبري - أي بعث في العرب نبياً من أهل لسانهم ، ولم يجعله من غير أهل لسانهم ، فلا يفقهوا عنه ما يقول ، ومن ذلك قوله تعالى { لقد جاءكم رسول من أنفسكم } (٧)
ومن ذلك قوله تعالى { ولا تقتلوا أنفسكم } (٨) بمعنى : ولا يقتل بعضكم بعضاً .

(١) عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحداوي المناوي : التوقيف على مهمات التعاريف - تحقيق : د. عبد الحميد صالح حمدان - عالم الكتب - القاهرة - ١٩٩٠ م - ط١ - النون والفاء - ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .

(٢) د محمود فتوح محمد سعدات : النفس البشرية في ضوء الكتاب والسنة - ص ١٢ .

(٣) سورة الزمر : آية رقم (٤٢)

(٤) سورة الشمس : آية رقم (٧ - ٨)

(٥) سورة النور : آية رقم (١٢)

(٦) سورة آل عمران : آية رقم (١٦٤)

(٧) سورة التوبة : آية رقم (١٢٨)

(٨) سورة النساء : آية رقم (٢٩)

قال الطبري : لأن الله تعالى ذكره جعل المؤمنين إخوة ، فقاتل أخيه كقاتل نفسه ، وكذلك تفعل العرب ، تكني عن نفسها بأخواتها ، وعن أخواتها بأنفسها .

ومثل ذلك قوله عز وجل : { ولا تلمزوا أنفسكم } (١) فلامز أخيه كلامز نفسه .

قال القرطبي : وفي قوله { أنفسكم } تنبيه على أن العاقل لا يعيب نفسه ، فلا ينبغي أن يعيب غيره ، لأنه كنفسه ومن هذا القبيل قوله تعالى { فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم } (٢) قال الطبري : معناه : فإذا دخلتم بيوتاً من بيوت المسلمين فليسلم بعضهم على بعض .

ومنه أيضاً قوله تعالى { لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً } (٣) قال القرطبي : قال { بأنفسهم } لأن أهل الإسلام كلهم بمنزلة نفس واحدة ، لأنهم أهل ملة واحدة .

النفس يعبر عنها عن الإنسان : من ذلك قوله سبحانه { واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعاة } (٤) أي : لا يغني إنسان عن إنسان يوم القيامة ، فكل إنسان منوط بعمله وبما قدمت يداه ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

ونحوه أيضاً قوله عز وجل { وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس } (٥) أي : الإنسان بالإنسان .

وعلى هذا المعنى قوله عز من قائل { من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً } (٦) أي : من قتل إنساناً بغير وجه حق فكأنما قتل الناس جميعاً .

ووفق هذا المعنى قوله تعالى { أن تقول نفس يا حسرتاً على ما فرطت في جنب الله } (٧) النفس تطلق على آدم عليه السلام الذي هو أصل الخلقة ، ومنه قوله تعالى { الذي خلقكم من نفس واحدة } (٨)

قال جمهور المفسرين : المراد بالنفس الواحدة آدم عليه السلام ، وقال سبحانه { وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة } (٩) النفس بمعنى الروح ، من ذلك قوله تعالى { والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم } (١٠)

قال الإمام البغوي " : أي : أرواحكم كرهاً ، لأن نفس المؤمن تنشط للقاء ربها ، ومنه أيضاً قوله سبحانه { الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى } (١١)

(١) سورة الحجرات : آية رقم (١١)

(٢) سورة النور : آية رقم (٦١)

(٣) سورة النور : آية رقم (١٢)

(٤) سورة البقرة : آية رقم (٤٨)

(٥) سورة المائدة : آية رقم (٤٥)

(٦) سورة المائدة : آية رقم (٣٢)

(٧) سورة الزمر : آية رقم (٥٦)

(٨) سورة النساء : آية رقم (١)

(٩) سورة الأنعام : آية رقم (٩٨)

(١٠) سورة الأنعام : آية رقم (٩٣)

(١١) سورة الزمر : آية رقم (٤٢)

روى الطبري عن سعيد بن جبير، قال: يُجمع بين أرواح الأحياء وأرواح الأموات ، فيتعارف منها ما شاء الله أن يتعارف ، فيمسك التي قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجسادها .

النفس تطلق على ذات الله تعالى ، قال سبحانه { ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير } (١) وقال عز وجل { ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد } (٢) أي: يحذركم إياه ، فالمراد بها ذاته سبحانه المتصفة بصفاته جل وعلا .

النفس بمعنى البعض ، منه قوله تعالى { ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم } (٣) أي : يقتل بعضكم بعضاً .

ومنه أيضاً قوله عز وجل في قوم موسى عليه السلام { فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم } (٤) قال القرطبي : قاموا صنفين وقتل بعضهم بعضاً .

النفس بمعنى نفس الإنسان ذاته ، جاء على هذا المعنى قوله عز وجل { ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم } (٥) المعنى : ولو أنا فرضنا على هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك ، المحتكمين إلى الطاعوت أن يقتلوا أنفسهم وأمرناهم بذلك ما فعلوا ما أمرناهم به .

النفس بمعنى القلب ، من ذلك قوله عز وجل { ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه } (٦)

قال الإمام البغوي : نعلم ما يحدث به قلبه ، ولا يخفى علينا سرائره وضمائره ، ومنه قوله تعالى { إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس } (٧)

وتأتي النفس بمعنى القوى المفكرة في الإنسان "العقل" والبعض يسميها في إطار "العندية" قال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام { تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك } (٨) قال القرطبي : معناه تعلم ما عندي وما في حقيقتي ، ولا أعلم ما عندك ولا ما في حقيقتك .

يقول الطاهر بن عاشور في تفسيره للآية: والنفس تطلق على العقل وعلى ما به الإنسان إنسان ، وهي الروح الإنساني ، وتطلق على الذات : أي تعلم ما أعتقد وتعلم ما أعلمه ، وإضافة النفس إلى اسم الجلالة هنا بمعنى العلم الذي لم يطلع عليه غيره ، أي : لا أعلم ما تعلمه وما انفردت به بعلمه

وتأتي النفس بمعنى القلب وما يتصل به من الصدر والفؤاد : قال تعالى { واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخفية } (٩)

وقوله سبحانه { فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم } (١٠) وفيه تدليل بالنفس وصلتها بالقلب والصدر والفؤاد (٢)

(١) سورة آل عمران : آية رقم (٢٨)

(٢) سورة آل عمران : آية رقم (٣٠)

(٣) سورة البقرة : آية رقم (٨٥)

(٤) سورة البقرة : آية رقم (٥٤)

(٥) سورة النساء : آية رقم (٦٦)

(٦) سورة ق : آية رقم (١٦)

(٧) سورة النجم : آية رقم (٢٣)

(٨) سورة المائدة : آية رقم (١١٦)

(٩) سورة الأعراف : آية رقم (٢٠٥)

مفهوم النفس عند الشعراوي:

يعرف الشعراوي النفس انها : هي كيان الإنسان الأخلاقي والروحي الذي يولد علي الفطرة ويتأثر بالتربية والبيئة ، ويحاسب علي التزكية "بالطاعة" او التدسية "بالمعصية" فتوصف أنها " محل الابتلاء وموضع الحساب " (٣) ومحور الصراع الداخلي للإنسان وليست شيئاً مادياً ملموساً بالجسد .

حيث أن سعادة الإنسان أو شقاؤه مرتبطان بإختياره : إما ان يرتقي بنفسه الي مرضاة الله عز وجل ، أو إما أن يهوي بها الي الحضيض ، وذلك لما جاء في قوله تعالى: { وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } . (٤)
فالله سبحانه وتعالى خلق النفس وسواها علي الفطرة المستقيمة التي استقامت علي التوحيد ، لتأمل هذه العقيدة وتبحثها وتقتنع بها .

ثم يؤكد الشيخ الشعراوي على أن النفس مفطورة على الاستقامة وعقيدة التوحيد فيقول : " أعطاك الله فرصة لتراجع هذه العقيدة في نفسك لتؤمن بها عن رضا ، وتعمل بها عن اقتناع ، لتقبل عليها في حب ، قد يصل بك الي درجة العشق لهذه الإستقامة" (٥)

ومعني الاستقامة : أخذ الشئ علي قوامه وهي تتطلب سيراً علي خط مستقيم ، الذي سماه الله عز وجل الصراط المستقيم ، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يجعل الوسيلة الي الغاية من عمل التكليف ، مثل الصراط الذي لا تميل عنه قيد شعرة ولا تتحرف عن جادته .

وينتقد الشيخ الشعراوي الفلاسفة في تعريفهم للنفس ، حيث أنه لم يستطع الفلاسفة من القديم أن يحددوا معنى النفس فتخبطوا فيها ، فمرة يقولون النفس هي الروح ، ومرة يقولون كلاماً آخر بعيداً عن معناها ، فلم يستطع أحد أن يأتي بمفهوم النفس بالمعني الواضح والصريح لها إلا وقد وجده في القرآن الكريم .

فيؤكد الشعراوي أن كلمة النفس تطلق على امتزاج الروح بالمادة ، فقبل أن يمتزج عنصر الروح بالمادة لا يكون هناك نفس ، فالروح وحدها لا تكون نفساً ، كذلك فالمادة وحدها لا تكون نفساً . (٦)

لذلك حين أراد الحق سبحانه وتعالى أن يسلب الحياة قال { اللَّهُ يَنْفُكُ الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } (٧)
ومعني يتوفاها : أي يفصل روحها عن جسدها .

(١) سورة يوسف : آية رقم (٧٧)

(٢) د. محمود فلاح محمد سعد : النفس البشرية في ضوء الكتاب والسنة - ص ١٢ - ١٥ بتصرف ، وانظر / أنس احمد كرزون : منهج الإسلام في تركية النفس - ص ٦ - ٧ وانظر / محمود ابراهيم محمود نور : المنهج القرآني في تركية الأنفس - ص ٩ - ١٠ ، وانظر / لفظ النفس في القرآن الكريم : موقع إسلام ويب الإلكتروني .

(٣) الله والنفس البشرية للشيخ محمد متولي الشعراوي ، د/ جمال ابراهيم ، ص ٧ ، ط ١ ، دار الحرية للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٩ م ، بتصرف

(٤) سورة الشمس : آية ٧ الي ٨ .

(٥) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٢٢ - أخبار اليوم - القاهرة - ٢٠١١ - ص ١٣٥٥٩

(٦) محمد متولي الشعراوي : تفسير جزء عم - دار الراهية للنشر والتوزيع ، القاهرة - ٢٠٠٨ - ص ١٥٠

(٧) سور الزمر : الآية رقم (٤٢) .

ومن هنا نفهم معنى الأنفس ، فمدلول النفس هو امتزاج الروح والجسد معاً (١) فجاء في قوله تعالى { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } (٢) فيجب أن نفهم ونعي أن هناك الروح ، وهناك الجسد ، وهناك النفس ، والنفس كما ذكرنا - أي الشعراوي - هي التقاء الروح بالمادة ، أو امتزاج الروح بالجسد ، فإله سبحانه وتعالى بعد أن سوي آدم بيديه ، نفخ فيه من روحه فدبت الحياة في هذا الجسد ، ثم خلق حواء من آدم أو من ضلع ، إذاً فالإنسان من روح وجسد ، فالجسد تركه الله سبحانه وتعالى للإنسان ليكتشف الإنسان قوانينه على مدي العصور ، وعلى قدر ما أوتي به من علم ، ولكن الروح جعلها الله عز وجل سراً مغلقاً عن الإنسان لا يستطيع أن يصل إليه " (٣)

لذلك نرى الشيخ الشعراوي يؤكد أن العلاقة بين النفس والروح هي علاقة متلازمة :

فعرّف الروح : انها سر الحياة التي لا يعلمها إلا الله مصداقاً لقوله تعالى { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } (٤)

ولذلك نرى أن التكليف للنفس ، وهي فترة التقاء الروح بالمادة ، فنجد أن العذاب والنعيم يوم القيامة للنفس أيضاً ، ولذلك يعيد الله سبحانه وتعالى الخلق يوم القيامة ، حيث تعود الأرواح الي الأجساد مرة أخرى لتكون معدة للحساب ، ولذلك نجد آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن الآخرة وما سوف يحدث يوم القيامة ، لا تذكر فيه الروح وحدها ، ولا الجسد وحده ، بل تذكر النفس باعتبار أنه الجامع المشترك بين الروح والجسد فيقول سبحانه وتعالى { ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } (٥) وقوله تعالى { وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ } (٦) وقوله تعالى { وَأَنْتُمْ يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا } (٧) وهكذا نرى أن التكليف للنفس والعذاب للنفس والنعيم أيضاً للنفس " (٨)

وتعدد مدلول النفس عند الشيخ الشعراوي ، فيفسر كلمة النفس في قوله تعالى { نَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ } (٩) بأن الذي يكون في النفس هو ما أسر به إسراراً وخفي ولم يظهر ، لأن النفس تطلق ويراد بها الذات التي تضم الروح والجسد معاً. (١٠)

وتأتي عند الشيخ الشعراوي النفس بمعنى الذات الإنسانية ، حيث يفسر الشعراوي ما جاء في قوله تعالى { وَأَنْتُمْ يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا } (١١) فهما نفسان : الأولى هي الجازية ، والثانية : هي المجزي عنها ، حيث أنه يوم

(١) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي : ، ٢١م - ص ١٣١٦٢ - بتصرف

(٢) سورة الإسراء : آية ٨٥

(٣) محمد متولي الشعراوي : نهاية العالم - دار أخبار اليوم - القاهرة - ٢٠٠٦ - ص ٢٤

(٤) سورة الإسراء : آية (٨٥)

(٥) سورة آل عمران : آية رقم (١٦١)

(٦) سورة ق : آية رقم (٢١)

(٧) سورة البقرة : آية رقم (٤٨)

(٨) محمد متولي الشعراوي : نهاية العالم - دار أخبار اليوم - القاهرة - ٢٠٠٦ - ص ٢٦ - بتصرف

(٩) سورة المائدة : آية رقم (١١٦)

(١٠) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٦ - ص ٢٤٧٢ ، وانظر/أيضاً / محمد متولي الشعراوي : الأحاديث القدسية : إعداد : عادل أبو المعاطي -

القاهرة - دار الروضة للطبع والنشر والتوزيع - ١٩٩٤ م - ١ - ص ٨

القيامه يأتي إنسان صالح ليشفع عن إنسان عاصي قد أسرف في حق نفسه ، فيقول يا رب أنا سأجزي عن فلان أو أغني عن فلان أو أقضي حق فلان ، فيتبين هنا ان هذا الإنسان المشفع من الصالحين ، حتي تقبل شفاعته عند الحق سبحانه وتعالى (٢)

لذلك جاء قول الله تعالى في أية الكرسي {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} (٣)

كما يقرر الشيخ أن النفس هي العقل بمعنى القوة المفكرة في الإنسان فيقول : والمستقرىء لأوضاع الناس في الأرض ، يجد الناس لا يخرجون عن لونين :
الأول : لون عاقل تنفعه الحجة ويقنعه البرهان .

أما الثاني : فجاهل يتمادى في جهالته نكراناً للإقناع وعدم الانصياع للحجة " (٤)

(١) سورة البقرة : آية رقم (٤٨)

(٢) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي : - م ١ - ص ٣٢٣

(٣) سورة البقرة : آية رقم (٢٥٥)

(٤) محمد متولي الشعراوي : التربية في مدرسة النبوة - دار الحرية للنشر - القاهرة - ط ١ - ١٩٩٩ م - ص ٥٦

المبحث الثاني

العوامل المؤثرة في تكوين النفس في فكر الشعراوي

سوف نتحدث في هذا المبحث حول العوامل المؤثرة في تكوين النفس الإنسانية وسلوكها ، حيث تتأثر النفس البشرية بكل من العوامل الوراثية والبيئية ، ويشكلان معاً الشخصية والسلوكيات ، فالوراثة تحدد الاستعدادات والصفات الأولية ، بينما تلعب البيئة دوراً في تشكيل هذه الاستعدادات وتطورها .

فتكوين النفس الإنسانية موضوع مركزي في الفكر الإسلامي عموماً ، وفي فكر الشيخ الشعراوي خصوصاً ، حيث يرى الشيخ الشعراوي أن النفس البشرية تتأثر بعدة عوامل مختلفة تتفاعل معاً لتشكل طبائع وميول الإنسان ، ومن أهم هذه العوامل بحسب رأيه هو العامل الوراثي ، أي العامل الفطري ، و العوامل البيئية والاجتماعية ، وذلك من خلال التوجيه القرآني والنبوي .

حيث يبين الشيخ الشعراوي أن ادراك البشر للعالم الخارجي يكون بواسطة الحواس الخمس ، بينما ينتقل العلم بباطن النفس عبر إحساس داخلي أو إلهام يمنحه الله للإنسان ، حيث يقول رحمه الله : " إن الإنسان في صلته بالعالم الخارجي يتمتع بما نسميه الحاسة ، أو الحواس ، فأنت ككائن بشري حين تتصل بالعالم الذي يحيط بك ، فإنك تتصل عن طريق حواس حددت بخمس هي : أن يسمع الإنسان ، ويرى ، ويشم ، ويلمس ، ويتزوق ، هذه الحواس نفهم بواسطتها العالم الخارجي" (١)

ويركز الشعراوي علي أن مشيئة الله سبحانه وتعالى تنعكس في ذرات النفس ، فقد يرى الإنسان في إطار الشريعة المتكاملة إنساناً نفسياً ووثاماً إن أحيطت علاقته بالعقيدة والعبادات والنظم الشرعية ، في حين قد ينشأ التنافر والاضطراب عند مخالفة هذا النهج الرباني " (٢)

ومن خلال قراءة متأنية في فكر الشيخ الشعراوي وغيره من علماء النفس ، نجد أنهم يجتمعون للقول بأن هناك عاملين رئيسيين لهم الأثر الكبير في تشكيل وتكوين وعي النفس الإنسانية وسلوكها ، وهما :

أولاً : العامل الوراثي .

ثانياً : العامل البيئي .

وعلى الرغم من تباين وجهات النظر حول العامل الأبرز في هذا التأثير ، إلا أنهم يجتمعون على أن الوراثة والبيئة لهما دوراً حاسماً في تشكيل سلوك الإنسان ، حيث تشير الأبحاث إلى أن التأثير الوراثي لا يعمل بمعزل عن العوامل البيئية ، بل يتفاعل معها بطرق معقدة تؤثر على الشخصية .

على مر العقود ظهرت عدة نظريات تحاول تفسير هذه العلاقة ، بعضها يؤكد على دور الجينات الوراثية بشكل رئيسي ، بينما يرى البعض الآخر أن البيئة هي العامل الأهم .

مفهوم العامل الوراثي :

(١) محمد متولي الشعراوي : الله والنفس البشرية - دار الحرية للنشر والتوزيع - القاهرة - ط ١ - ١٩٩٩ م - ص ٥

(٢) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - مجلد ٤ - ص ٢١٢٢ - بتصرف

الوراثة تعني انتقال الصفات البيولوجية والجينية من الآباء إلى الأبناء عبر الحمض النووي (DNA) تلعب الجينات دوراً رئيسياً في تحديد ملامح الشخصية : الذكاء والميل نحو سلوكيات معينة مثل الانطواء أو الجرأة وتشابهاً في السمات الشخصية والقدرات الإدراكية حتى عند نشأتها في بيئات مختلفة ، مما يعزز فكرة التأثير الوراثي . ومع ذلك فإن الجينات لا تعمل بشكل مستقل ، بل تتأثر بظروف الحياة ، مثل التغذية والتربية والتجارب الحياتية التي قد تؤدي إلى تفعيل أو تعطيل بعض الجينات من خلال آليات تُعرف بالتعديلات فوق الجينية .

مفهوم العامل البيئي وتأثيره على السلوك :

تشمل البيئة جميع العوامل الخارجية التي تحيط بالفرد وتؤثر في نموه وسلوكه ، مثل : الأسرة ، التعليم ، العادات والتقاليد والمجتمع . (١)

ونستطيع أن نستخلص العاملين الوراثي والبيئي من خلال ما تحدث عنه الشيخ الشعراوي أثر والده في تكوينه فيقول : يشهد الله أنني أخذت من معلمي ١٠ % من ثقافتني ، وأخذت من أبي الرجل الأمي ٩٠ % من ثقافتني " (٢)

فتأثير العامل الوراثي والبيئي على تكوين شخصية الفرد هو تأثير كبير وواسع النطاق ، فالبيئة التي يتربى فيها الطفل ، بما في ذلك الأسرة والمدرسة والمجتمع ، تلعب دوراً حاسماً في تشكيل قيمه ومعتقداته وسلوكياته وحتى صحته النفسية .

لهذا كان للنشأة والبيئة الحاضنة الأساس والمنطلق الأول في تأسيس وتكوين الشخصية ، وهي المؤثرة والصانعة وهي المكون للمنظومة الفكرية والروحية والثقافية ، بل هي التي تشكل القيم والمبادئ والعادات والأعراف ، وهي من تخلق مؤثراتها الفكرية والنفسية والأخلاقية والسلوكية في نمط حياة الإنسان ، فالنشأة هي مصنع التربية والبنائية لقواعد التربية وأساس نوعية الشخصيات ، سواء أكان الناتج صالحاً أم طالحاً ، وهذا ما أثبتته الدراسات والأبحاث في علم الاجتماع والنفس في تأثير هذين العاملين على شخصية الإنسان .

ولهذا حظيت التربية الإسلامية باهتمام بالغ في اختيار نشأة وتربية الفرد المسلم على أعلى معايير التربية الإنسانية حتى قبل تكوين نطفته في رحم أمه ، إذ وردت أحاديث شريفة وعديدة عن رسول الله المصطفى لتأتي عملية الاختيار الحاضنة الأفضل لكلا الجانبين - الزوج أو الزوجة - لإيجاد بيئة أبوية صالحة تتمثل فيها القدوة والنموذج الأمثل في الخلق الإنساني وعلى كل صعيد ومستوى في المعاملات الإنسانية والحياتية تتوافق مع مفهوم الفطرة الإنسانية التي خلقها الله سبحانه وتعالى عليها الإنسان .

والناظر في آيات القرآن يجد أن القرآن قد تحدث عن نوعين من تركيبة النفس :

(١) د. أحلام محمود علي مطالقة : أثر الوراثة والبيئة في بناء الشخصية الإنسانية في السنة النبوية والفكر التربوي المعاصر - بحث مشترك منشور بكلية الشريعة - جامعة اليرموك - الأردن - ٢٠٠٨ م ، وأنظر / موقع اليكتروني robgenes.com : الوراثة والبيئة في علم النفس - وهذا البحث يبين النظريات الثمانية التي تفسر العلاقة بين الوراثة والبيئة وهي : نظرية الوراثة الصارمة - نظرية الحتمية البيئية - نظرية التطور المشترك - نظرية الحساسية البيئية التفاضلية - نظرية التأثيرات البيئية المبكرة - نظرية التفاعل الجيني البيئي - نظرية التطور العصبي والنفسي - نظرية الذكاء الموروث مقابل المكتسب .

أولاً : التزكية الفطرية :

التزكية الفطرية هي التي تكون مع الإنسان وملازمة له منذ ولادته ، وعندما يكون في مرحلة الطفولة والبراءة إلى أن يبلغ الحلم ، فعنده فطرية الإيمان ، ونقاء السيرة ، وطهارة النفس ، وصفاء القلب .

قال تعالى {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي بَغَيْرِ نَفْسٍ لَّكَ جُنْتُ شَيْئًا تُكْرَهُ} (١)

وردت هذه الآية في سياق سرد القرآن الكريم لقصة سيدنا موسى عليه السلام مع العبد الصالح الخضر، فبعد المشهد العجيب الأول وهو خرق السفينة ، كان المشهد العجيب الثاني وهو قتل الغلام الصغير ، المشار إليه بقوله {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ} فاشتد بموسى الغضب ، وأخذته الحمية الدينية ، فانطلق لسانه عليه السلام ولعله هنا يمثل كل إنسان على سليقته حال رؤيته مثل هذا المشهد - حيث قال { أَقْتَلْتَنِي بَغَيْرِ نَفْسٍ لَّكَ جُنْتُ شَيْئًا تُكْرَهُ} كيف عرف سيدنا موسى عليه السلام وحكم أن نفس الغلام زكية هكذا ، رغم أنه لأول مرة يرى هذا الغلام ؟

إنها التزكية الفطرية التي هي الأصل الذي يولد بها كل إنسان ، لقد وصف النفس بالزكية ، لأنها نفس غلام لم يبلغ الحلم ، فلم يقترب ذنباً ، فكان زكياً طاهراً على أصل خلقته ، وهذه هي التزكية الفطرية ، فكل إنسان يولد على التزكية الفطرية التي تشمل كونه على عبادة الله ، وطاهراً من العيوب والذنوب (٢)

ولما انضم إلى ذلك كون هذا القتل بغير نفس ، أى: بغير مستند لقتله ، ازداد عجب سيدنا موسى عليه السلام فقال {لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا تُكْرَهُ} أى : منكراً عظيماً (٣).

يقال : نكر الأمر ، أى: صعب واشتد.

والمقصود { لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا } أشد من الأول - وهو خرق السفينة - في فظاعته واستتكار العقول له (٤)

ومن قبيل التزكية الفطرية أيضاً ما جاء في سورة مريم في قوله {وَأُذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} (٥)

يقول الإمام الرازي: لما علم جبريل عليه السلام خوفها { قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ } ليزول عنها ذلك الخوف ، ولكن

الخوف لا يزول بمجرد هذا القول ، بل لابد من دلالة تدل على أنه كان جبريل عليه السلام وما كان من الناس (٦)

قال القرطبي (١): قال لها جبريل عليه السلام {إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ} أسند الفعل إليه وإن كانت الهبة من الله تعالى لأنه أرسل به { لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا }

(١) سورة الكهف : آية رقم (٧٤)

(٢) الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير - م ١٥ - ص ٣٧٨ .

(٣) ابي محمد الحسين بن مسعود البغوي : معالم التنزيل - تحقيق : محمد عبد الله النمر وآخرين - دار طيبة للنشر - الرياض - ١٤٠٩ هـ - م ٥ - ص ٢٩٣٩ ، وانظر/ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم - م ٥ - ص ١٨٣ .

(٤) د. محمد سيد طنطاوي : التفسير الوسيط - طبعة دار المعارف - القاهرة - ٢٠١٣ م - م ٨ - ص ٥٥٦ .

(٥) سورة مريم : آية رقم (١٦ - ١٩)

(٦) الإمام أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الملقب بفخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب - دار الفكر - القاهرة - ١٩٨١ م - م ٢١ - ص ٥٢٣

قال ابن عباس: ولداً صالحاً طاهراً من الذنوب ، وهو عيسى عليه السلام ، أو نامياً على الخير ، أي مترقياً من سن إلى سن على الخير والصلاح (٢).

قال الإمام أبو زهرة (٣) أي : غلاماً طاهراً نامياً في جسمه ونفسه وروحه ، وكل ما يتصل بالنمو الإنساني الكامل خلاصة القول : أن التزكية الفطرية هي تزكية يمر بها كل إنسان يولد في هذه الحياة الدنيا ، وتكون تلك التزكية الفطرية في مرحلة بداية ولادة الإنسان ، إلى مرحلة أن يصير غلاماً ، لأنه في تلك المرحلة غير مكلف ، بل هو في مرحلة الصفاء والنقاء والإيمان الفطري بالله ، وتمتد التزكية الدائمة من الله بعد ذلك للأنبياء دون غيرهم ، لأنهم متصفون بالعصمة والوقوع في الزلل .

ثانياً : التزكية المكتسبة :

يقصد بالتزكية المكتسبة: التزكية التي يكتسبها الإنسان من خلال مجاهدته لنفسه الأمانة بالسوء ، ومقاومة شهواته المختلفة ، لتتخلّى تلك النفس عن القبائح والردائل ، وتتخلّى بالفضائل من السلوكيات والأخلاق ، من خلال العمل بالطاعات والمبرات والقربات ، وهذا يعني أن التزكية المكتسبة تحتاج لأمرين :

الأمر الأول : عزيمة قوية وإرادة متينة ، وذلك من خلال المجاهدة والصبر والمصابرة .

الثاني : الاستمرار طالما بقي الإنسان على قيد الحياة ، وذلك من خلال المداومة على الطاعة .

من أجل ذلك أمر الله الحق بها ، فقال تعالى { وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } (٤)

يحض الحق سبحانه وتعالى على تزكية النفوس وتطهيرها ، يقول تعالى ذكره : ومن يتطهر من دنس الكفر والذنوب بالتوبة إلى الله ، والإيمان به ، والعمل بطاعته ، فإنما يتطهر لنفسه ، وذلك أنه يثيبها به رضا الله ، والفوز بجنانه ، والنجاة من عقابه الذي أعده لأهل الكفر به (٥).

فالجملّة الكريمة دعوة من الله تعالى للناس إلى تزكية النفوس وتطهيرها من كل سوء ، بعد بيان أن كل نفس مسؤولة وحدها عن نتائج أفعالها ، وأن أحداً لن يلبي طلب غيره في أن يحمل شيئاً عنه من أوزاره (٦)

وقوله {وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} يعني: وإلى الله مصير كل عامل منكم أيها الناس ، مؤمنكم وكافركم ، وبركم وفاجرهم ، وهو مجاز جميعكم بما قدم من خير وشر على ما أهل منه (٧)

قال الرازي: {وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} أي: مصير المتزكي إن لم تظهر فائدته عاجلاً ، فالمصير إلى الله يظهر عنده في يوم اللقاء في دار البقاء ، والوازر إن لم تظهر تبعة وزره في الدنيا فهي تظهر في الآخرة ، إذ المصير إلى الله (٨)

(١) ابي عبد الله محمد بن احمد بن ابي بكر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن - مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة - ٢٠٠٨ م - ٣ - ص ١٨٤ .

(٢) القاضي ناصر الدين ابي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البضاوي - تحقيق : محمد صبيحي ، د. محمد احمد الأطرش - دار الرشيد - دمشق - بدون م - ٤ - ص ٨ .

(٣) الإمام محمد احمد مصطفى ابو زهرة : زهرة التفاسير - دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٨٧ م - ٩ - ص ٤٦٢٣

(٤) سورة فاطر : آية رقم (١٨)

(٥) ابي جعفر محمد بن جرير الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن - تحقيق: محمود محمد شاكر - دار التربية والتراث - مكة - بدون م - ٢٠ - ص ٥٦٤

(٦) د. محمد سيد طنطاوي : التفسير الوسيط - م ١١ - ص ٣٤٠ .

(٧) محمد بن جرير الطبري : جامع البيان - م ٢٠ - ص ٤٥٦

قال صاحب الظلال { وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ } لا لك ولا لغيرك ، إنما هو يتطهر لينتفع بطهره ، والتطهر معنى لطيف شفاف ، يشمل القلب وخوالجه ومشاعره ، ويشمل السلوك واتجاهاته وآثاره ، وهو معنى موج رفاف {وَاللَّهُ الْمَصِيرُ} وهو المحاسب والمجازي ، فلا يذهب عمل صالح ، ولا يفلت عمل سيئ ، ولا يوكل الحكم والجزاء إلى غيره ممن يميلون أو ينسون أو يهملون (٢)

وهذا ما أكده الشيخ الشعراوي حيث قال : من حسن حظي أن البيئة التي نشأت فيها تتسم بالصلاح والتقوى ، فأما بيئتي الخاصة فقد كان أبي رجلاً طيباً ، وجدي كان رجلاً له في طريق الله مجال ، والبيئة العامة التي أعيش فيها وهي القرية ، فالقرية - عادة - لا توجد فيها المبالذ التي توجد في المدن وكل هذا حصننا من السير في طريق الغوايات ، لأنه لم يكن في محيطنا أسباب الغوايات " (٣)

وهذه يبين بأن نتاج العامل الوراثي والبيئي على الشيخ محمد متولي الشعراوي كان الدافع لبناء النفس وتركيتها على الصلاح والاستقامة وبعدها عن طريق الغوايات والأخلاق المبتذلة ، وهذا ما يؤكد أثر النشأة والبيئة في تكوين النفس الإنسانية وتركيتها نحو الأخلاق الفاضلة .

ومن أبرز ما تحدث عنه الشيخ محمد متولي الشعراوي عن البيئة التي عاش فيها وسر سلوكه مسلك الصلاح وما كان يتمتع به ساكني قريته من تقوى وصلاح وحب للعلم والعلماء وتشجيع ومنافسة لحفظ القرآن والمداومة على صلاة الجماعة والالتزام بالمظهر الإسلامي سلوكاً ومظهراً ، هو نتاج طبيعي لقرية مشحونة طوال العام بالمناسبات الدينية والبهات الروحية والاحتفالات بموسم الحج وما يتضمنه من عبادة وذكر في العشر الأوائل من ذي الحجة وعيد الأضحى وشهر رمضان وما يتبعه من احتفال بعيد الفطر ثم الاحتفال بالمولد النبوي وعاشوراء وهذا الزخم يجعل الإنسان دائم الذكر والعبادة والتفكير والرقى الروحي ، بجانب الاحتفالات الدينية التي تقيمها الطرق الصوفية في قريتنا ، حيث كان يوجد في قريتنا مشايخ خمس طرق : شيخ طريقة سيدي أبي خليل ، وشيخ طريقة سيدي أبو الحسن الشاذلي ، وشيخ طريقة سيدي أحمد الرفاعي ، وشيخ طريقة سيدي عبد القادر ، وشيخ طريقة سيدي أحمد البدوي ، وكان لكل شيخ مريدوه ، وكل جماعة تدعو شيخها إلى البلدة في كل أو بعض المناسبات ، وعندما يأتي الشيخ تحتفل به البلدة كلها ، وتجد جميع المساجد عامرة والخير ظاهراً ... ومعنى هذا أن جميع شهور السنة كانت لا تخلوا من مناسبة لشحن المواجيد والمشاعر الدينية " (٤)

(١) الإمام فخر الدين الرازي : تفسير مفاتيح الغيب - م ٤ - ص ١٢٣ .

(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن - دار الشروق - القاهرة - ٢٠٠٣ م - ٥ ص ٢٩٣٩

٣ فاطمة السحراوي : الشيخ محمد متولي الشعراوي مشوار حياتي آراء وأفكار - المختار الإسلامي للطبع والنشر والتوزيع - القاهرة - ١٩٨٨ م - ص ٩ وانظر / محبوب محمد حسن : الشعراوي من القرية إلى العالمية - دار التراث الإسلامي - القاهرة - ١٩٩٠ م - ص ٨ .

٤ سعيد أبو العينين : الشعراوي الذي لا نعرفه - ص ١٥ .

وبناءً عليه يعد تكوين النفس عند الشعراوي مدخلاً رئيسياً في تكوين الشخصية الأخلاقية والسلوكية ، حيث يستشهد علي ذلك بقوله تعالى { وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا } (١)

حيث أن الذكر هنا مقصود به التذكير بالقرآن الكريم وهو المنهج النازل من السماء وطبقه رسول الله ﷺ ، حيث أن الذكر هنا مقصود به العذاب الذي ينتظر من يخالف المنهج ، لقوله تعالى { وَذَكِّرْ بِهِ } يدل علي أن منطق الفطرة يقتضي أننا نعرف أن الحق لا يمكن أن يعامل المتقين في الدنيا كما يعامل المنحرفين (٢).

العوامل الوراثية الفطرية :

ان من مزايا العقيدة الإسلامية انها عقيدة فطرية ، بمعنى انها ليست غريبة عن الفطرة الإنسانية أو مغايرة لها ، بل هي تلائم الفطرة وتتميمها ولا تصادمها ، وهي عقيدة تشبع الجوعة الفطرية التي لا تشبعها النظم الفلسفية ولا المذاهب الوثنية ولا الثراء المالي (٣)

قال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } (٤)

ويؤكد الشيخ الشعراوي أن الإنسان يولد علي الفطرة السوية كما جاء في حديث الشريف الذي رواه الإمام مسلم : عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ " ما من مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كما تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بِبَهِيمَةٍ جَمْعَاءَ ، هل تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَذَعَاءَ " ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه { فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } (٥)

فهو يبين أن الفطرة هي الأساس التي خلق الله عليها الإنسان ، بينما تشكل الوراثة البيولوجية الجانب الآخر من المكون الفطري ، و أن الله خلق الإنسان مع استعداد نفسي فطري لقبول الحق والخضوع لله سبحانه وتعالى ، قال ابن كثير رحمه الله : " فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده ، وأنه لا إله غيره " (٦)

ويركز الشيخ الشعراوي رحمه الله علي العامل الوراثي باعتباره جزءاً من التكوين الفطري للإنسان وتركيزه نفسه ، ويستدل علي ذلك بما ورد في قصة أبناء سيدنا آدم عليه السلام قابيل وهابيل وما دار بينهما من صراع بين الخير والشر حتي أفضت الأمور الي قتل الأخ لأخيه .

قال تعالى { فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ } (٧)

(١) سورة الأنعام : أية رقم (٧٠)

(٢) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٦ - ص ٣٧١٤ .

(٣) د. محمد أحمد خليل ملكاي : عقيدة التوحيد في القرآن الكريم - دار الزمان للنشر - المدينة المنورة - ط ١ - ١٩٨٥ م - ص ٢٦

(٤) سورة الروم : أية رقم (٣٠)

(٥) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري : صحيح مسلم - تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٩٩١ م - كتاب القدر - باب

معنى كل مولود يولد على الفطرة - المجلد ٤ - ص ٢٠٤٧ - رقم الحديث: ٢٦٥٨

(٦) الحافظ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم - المجلد ١١ - مؤسسة قرطبة للنشر والتوزيع - القاهرة - ط ١ - ٢٠٠٠ م - ص ٢٦

(٧) سورة المائدة : أية رقم (٣٠)

يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله " ولننتبه هنا أن الإنسان فيه مَلَكَتَانِ اثنان ، ملكة تُحِبُّ الحق وتُحِبُّ الخير ، وملكة أهوائية خاضعة للهوى ، فالملكتان تتصارعان (١) ففي قوله تعالى { فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ } أمرين :

الأول : أنه لا يزال فيه بقية من آثار النبوة ، لأنه من أبناء سيدنا آدم عليه السلام ، ولا تزال المسألة تتأرجح معه ، هل يقتل أخاه أم لا ؟

والثاني : أن النفس الشريرة الهوائية تغلبت علي الخيرة ، كأن هناك تجاذباً وتصارعاً وتدافعاً فيما بينهما (٢) إذاً فالأجيال والذرية عند الشعراوي يتكون فيها الاستعداد الداخلي لسلوكها المستقبلي ، فالإنسان في جوهره يولد بفطرة صالحة ، لكن قابليته للخير والشر ترجع جزئياً الي ماهية صنيعته الوراثية سواء كانت صفات العائلة أو جيناته الشخصية ، والباقي ما تحمله نفسه من قوي داخلية.

أثر البيئة والمجتمع في تكوين النفس وتزكيته :

يؤكد كلاً من الفكر الإسلامي وعلم النفس الحديث أن البيئة المحيطة والمجتمع هما من أهم العوامل الرئيسية في تكوين شخصية الإنسان وتوجهه ، حيث تشير بعض الدراسات السلوكية والاجتماعية المعاصرة ، ان البيئة أساساً للأنماط السلوكية للفرد ، كما أنها تعتبر أداة لتعديل هذا السلوك ، ومع تلك العملية تصبح الجماعة أكثر مقدرة على توجيه نفسها ، كما يصبح كل عضو أكثر مقدرة على التوجيه الذاتي (٣)

وهذه الرؤية تتلاقى مع ماورد في التراث الإسلامي من قاعدة " ان الإنسان ابن بيئته التي نشأ فيها " بل و يتفق معها الشيخ الشعراوي رحمه الله الذي رأى أن النفس الإنسانية تقوم علي خلايا إيمانية وأخري ردائية تنبثق من خلال البيئة المحيطة به.

حيث يري الشعراوي أن للبيئة الاجتماعية المحيطة بالإنسان تشكل دوراً أساسياً في تشكيل نفسه البشرية، حيث أن الإنسان يعرض بصفة مستمرة لظروف خارجية في المجتمع تحفزه أو تحذره ، ويستدل علي ذلك في قوله تعالى {وَإِلَّاكَ نَعْبُدُ وَإِلَّاكَ نَسْتَعِينُ} (٤) حيث أن العبد يعلن بإرادته الخالصة اختياره لعبادة الله وحده دون سواه ، ملتزماً بالحدود التي شرعها سبحانه حتى لا يقع في المعصية ، فالعبادة هنا تمثل اختيار الحق ، أما الاستعانة فهي إقرار بأن الثبات على هذا الطريق يحتاج إلى معونة الله وتوقيفه ، إذ إن النفس قد تميل إلى الشهوة والهوى ، ولا ينجو الإنسان من ذلك إلا بعون ربه (٥)

(١) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - المجلد ٥ - ص ٣٠٧٨

(٢) محمد متولي الشعراوي : المصدر السابق - بتصرف

(٣) د. أحمد سيد حمادي محمد : ممارسة برنامج للتدخل المهني في طريقة العمل مع الجماعات وتنمية وعي المرأة بالمشاركة في المشروعات البيئية - مجلة دراسات في

الخدمة الاجتماعية - العدد ٦٤ - ج ١ - القاهرة - ٢٠٢٣ - ص ٨

(٤) سورة الفاتحة : آية رقم (٥)

(٥) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١ - ص ٧٨ - بتصرف

ومن خلال ذلك نؤكد أن النفس الإنسانية تتعرض لظروف نفسية داخلية بحكم الوراثة كما تتعرض لظروف خارجية تتعلق بالمجتمع والبيئة ، فالبيئة تكون مزاج الإنسان السلوكي والأخلاقي ، فهي إما تشكل في الفرد وازعاً ذاتياً من صوته الداخلي فيمنعه من المعصية ، وهو ما يتحقق من خلال النفس اللوامة ، أو أن هذا الوازع لا يكون إلا من البيئة المحيطة .

يرى الشيخ الشعراوي أنه إذا ساد مجتمع ظلامي خالٍ من قيم إيمانية ، فإن الفرد يفقد ردة النفس وردع المجتمع معاً ، فينبغي تغيير الواقع بإرساء مناهج دينية وانتظار الإحياء الإلهي ، وإلا بقيت النفس الضالة بلا هداية .
وبعبارة أخرى ، يعتبر الشيخ الشعراوي أن البيئة والمجتمع هما امتداد للنفس الأمانة أو اللوامة ، وإذا لم تعدل النفس عبر ردة ذاتي أو مجتمعي عادل ، فسيخرج الأفراد عن الجادة (١)

مع تأكيد الشيخ الشعراوي إلى مراعاة خلق الإنسان ، فالإنسان خلق ضعيفاً ، وخلق هلوياً ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يدخل أحدكم الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته ، قالوا ولا أنت يا رسول الله ، قال : حتى أنا .

فسواء كان العامل الوراثي أو البيئي فإن ذنوب الإنسان في الدنيا كبيرة، إذا حكم فقد يظلم ، وإذا ظن فقد يسيء، وإذا تحدث فقد يكذب، وإذا شهد فقد يبتعد عن الحق، وإذا تكلم فقد يغتاب، هذه ذنوب نرتكبها بدرجات متفاوتة، ولا يمكن لأحد أن ينسب الكمال لنفسه حتى الذين يبذلون جهدهم في الطاعة لا يصلون إلى الكمال، فالكمال لله وحده ، ورسول الله يقول " كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون " (٢).

(١) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٣ - ص ١٥٣٦

(٢) حديث شريف : رواه الإمام أحمد في مسنده والإمام الترمذي وابن ماجه والحاكم / انظر : محمد متولي الشعراوي - تفسير الشعراوي - م ١ - ص ٤٩

المبحث الثالث

أقسام النفس في فكر الشعراوي

يُعد موضوع أقسام النفس من الموضوعات المحورية في الفكر الإسلامي ، نظراً لتأثيره المباشر على فهم الإنسان لذاته ، وتحديد مساره لحياته الروحية والسلوكية ، فالنفس - باعتبارها جوهر الإنسان ومقر إدراكه وإرادته - هي الميدان الذي تتجلى فيه معاني الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية ، والسمو والانحطاط ، لذا فإن تفسير القرآن الكريم بوصفه الكتاب الذي يهدي الناس إلى صراطٍ مستقيم ، لم يغفل التطرق إلى هذا الموضوع بإسهاب ، حيث وردت فيه آيات كثيرة تتحدث عن النفس ، وتصف حالاتها المختلفة ، وتبين كيفية التعامل معها وتركيتها ، وقد اهتم علماء التفسير والفقه والتصوف عبر العصور بدراسة هذه الآيات ، واستخرجوا منها تصنيفات متعددة للنفس، تباينت في عددها وتسمياتها ، لكنها اتفقت على الجوهر ، وهو أن النفس ليست كياناً ثابتاً ، بل هي متحولة وتمر بالإنسان مراحل متعددة في تربيتها وتركيتها.

وقد وقع الاختلاف بين الباحثين في حصر عدد هذه الأحوال التي وصف بها القرآن الكريم النفس الإنسانية، فمنهم من أوصلها إلى سبعة: "أماره، ولؤامة، ومطمئنة، وزكية، وحوادية - أي: تستحوذ على الإنسان فتدفعه إلى تكرار أنماط سلوكية وسواسية - وظالمية، ومجاهدة، ومنهم من أوصلها إلى اثنتي عشرة حالة: النفس المطمئنة، واللؤامة، والزكية، والمجادلة، والملمهة، والأماره، والمهتدية، والمجاهدة، والشاكرة، والصالحة، والشحيحة، والخيرة، والظاهر أنه بهذه الطريقة يمكن أن تصل هذه الأنواع إلى أكثر من ذلك، إلى الحد الذي اعتبرت فيه كل صفة من صفات النفس نوعاً من أنواع النفس الإنسانية، لذلك ظهرت الحاجة إلى التمييز بين المستويات الأصلية التي تحدد أنواع النفس، والمستويات الفرعية التي تلحق بها، والمعيار لمعرفة المستويات الأصلية أنها لا تندمج في غيرها، وأنها تصف الحالة العامة للنفس بحيث تندرج تحتها جزئيات السلوك، وأنها تكون مذكورة في آية من آيات .

وواضح أن وصف النفس بهذه الأوصاف لا يعني نفوساً متعددة، بل هي أحوال تعتري كل نفس على تفاوت في غلبة حال منها أو آخر، واستقرار النفس على حال من تلك الأحوال لا يلغي تواجد الأحوال الأخرى، ويشق لها الاسم من الحالة الغالبة عليها في لحظة من اللحظات، فيقال نفس أماره، أو لؤامة، أو مطمئنة .

ومن هنا تأتي أهمية دراسة أقسام النفس عند الشيخ محمد متولي الشعراوي ، فقد كان منهجه قائماً على ربط النصوص القرآنية بالواقع الإنساني ، وتحليل حالات النفس من خلال ما يعيشه الإنسان من صراعات داخلية ، وما يمر به من تجارب واقعية في حياته ، فهو لا يقدم تصنيفاً جامداً للنفس ، بل يصورها ككائن حي ، يمر بمراحل نمو وتطور .

لذا تُعد النفس البشرية آية مبهرة من آيات الله تعالى في خلقه ، وجهاز خفي وسر غامض ، وهي موضع الحساب والثواب والعقاب ، ومن عجيب إعجاز القرآن أنه جعلها وجهة للخطاب في كثير من آياته {يا أيها النفس}

ويُبرز الشعراوي أن النفس البشرية تتكون من أقسام متعددة ، لاسيما الثلاثة الأبرز: النفس الأمانة بالسوء ، النفس اللوامة ، والنفس مطمئنة ، حيث يقول رحمه الله : " وقد جعل الله في النفس الإنسانية نفساً لوامة ، ونفساً تأمر بالسوء ، ونفساً مطمئنة " (١)

ومن خلال ما تم عرضه حول تعريف النفس سابقاً تبين لنا تنوع الرؤى حول مفهوم النفس وهل هي الروح أم البدن أم كلاهما ؟ ولعل هذا وإن كان في ظاهره سمة تباين ، إلا أننا نلاحظ كذلك أن العلماء تنوعت أراؤهم حول أقسام النفس الإنسانية ، وتنوعت كذلك الآراء حول المسمى الصحيح : هل هي أقسام أم أوصاف أم حالات ؟ يرى البعض أن النفس البشرية في التصور الإسلامي تنقسم في الغالب إلى عدة أقسام ، أبرزها : النفس الأمانة بالسوء ، والنفس اللوامة ، والنفس مطمئنة ، ولكل منها أوصاف تميزها عن غيرها .

وهناك من يرى أنها نفس واحدة باعتبار ذاتها ، ولكنها ثلاثة باعتبار صفاتها . وهناك من يرى أنها واحدة ولكنها متعددة ليس باعتبار صفاتها ولكن باعتبار حالاتها ، أي بحسب التزامها بفطرتها والمنهج الرباني الموجه لها وقوة الإرادة والمجاهدة ، أو عكس ذلك ، أو تقلبها بين هذا وذاك صعوداً وهبوطاً . وفيما يلي نستعرض بعض هذه الآراء :

الإمام المناوي يذكر بأن للنفس أقسام متعددة ، منها : النفس الأمانة : وهي التي تميل إلى الطبيعة البدنية ، وتأمر بالذات والشهوات الحسية ، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية ، فهي مأوى الشر ومنبع الأخلاق الذميمة . النفس اللوامة : التي تنورت بنور القلب قدر ما تنبتهت به عن سِنَّة الغفلة كلما صدرت منها سيئة بحكم جبلتها الظلمانية نفتها بلوم وتنبوب عنها .

النفس مطمئنة : التي تنورت بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة وتخلقت بالأخلاق الحميدة . النفس النباتية : كما أول الجسم الطبيعي من جهو ما يتولد ويزيد ويتغذى النفوس الناطقة : هي الجواهر المجردة عن المادة في ذاتها مقارنة في أفعالها ، وكذا النفوس الفلكية . النفوس القدسية: التي لها ملكة استحضر جميع ما يمكن للنوع أو قريباً من ذلك على وجه يقيني، وهذا نهاية الحدس النفوس الرحمانية : الوجود العام المنبسط على الأعيان عيناً ، وعلى الهيولي الحاملة لصور الموجودات ، والأول مرتب على الثاني سمي به تشبيهاً بنفس الإنسان ، المختلف بصور الحروف مع كونه هواء ساذجاً ، ويعبر عنه بالطبيعة عند الحكماء " (٢)

ما ذكره الإمام المناوي يتلاقى في كثير من جوانبه مع ما ذكره ابن سينا في كتاب "النجاة" عن مفهوم النفس وقواها : فالنفس عند ابن سينا هي مصدر الحركة داخل الجسد وهذه القوة هي التي تدفع الى الحركة ، أي أن النفس هي : كمال أول لجسم آلى ذي حياة بالقوة .

(١) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٦ - ص ٣٢٨٧

(٢) عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي : التوقيف على مهمات التعاريف - النون والفاء - ص ٣٢٨ .

ونلاحظ تأثر فلاسفة المسلمين بتعريف أرسطو للنفس ... والنفس كجنس واحد ينقسم الى ثلاثة قوى :

إحداها النفس النباتية: وهي كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يتولد ويربو ويتغذى. (١)

ثانيها النفس الحيوانية: وهي كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يدرك الجزئيات ويتحرك بالارادة.

ثالثها النفس الإنسانية: وهي كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يفعل الافعال الكائنة بالاختيار الفكري والاستنباط بالرأي، ومن جهة ما يدرك الامور الكلية، ورغم تعدد قوى النفس وتنوعها فهي ذات واحدة وذلك لان وحدتها من تداخلها ببعضها البعض .

ورغم تعدد قوى النفس وتنوعها فهي ذات واحدة ، وذلك لان وحدتها من تداخلها ببعضها البعض، مثلا لو كان الغضب مستقلا عن الحس ولا رباط بينهما ، لما اتفقا معا ، فلولا الحس لا غضب ، وكل القوى تؤدي الى مبدأ واحد وجميع ما في الإنسان من أعضاء هي شئ واحد هي النفس. (٢)

واليك طريقة تقسيم القوى:

قوى النفس النباتية: للنفس النباتية بدورها ثلاث قوى: غاذية ، ومنمية ، ومولدة .

القوة الغاذية : تؤمن الغذاء للجسم وتوزعه عليه حسب حاجيه آليه ويزيد الغذاء في الجسد بمقدار ما يكفيه .

القوة المنمية : تزيد في الجسم الذي هي فيه بواسطة الغذاء تزيده في أقطاره ، طولاً وعرضاً وعمقاً لتبلغ به كماله في النشوء .

القوة المولدة : تأخذ من الجسم الذي هي فيه الجزء الكافي ليشبهها بالقوة ، فتعمل فيه وتجعله يستمد ما يصير شبيها خلقا لهذا بالفعل .

قوى النفس الحيوانية : لها قوتان : محركة ومدركة .

المحركة وهي على قسمين : إما محركة باعثة ، وإما محركة فاعلة .

(١) معنى التغذي: الاستعاضة عما تحلل من الجسم - معنى النمو : الزيادة في اقطار الجسم حسب التناسب الطبيعي .

(٢) الحسين بن علي بن سينا : النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعية والألهمية - المقالة السادسة في النفس - مطبعة السعادة - القاهرة ١٩٣٨ م - ص ١٥٧ - ١٦٢ بتصرف .

القوة الباعثة : هي النزوعية والشوقية ، وهي إما شهوانية تحرك طلبا للذة ، وإما غضبية تحرك لتدفع بالشيء المتخيل الفاسد الى الغلبة .

القوى الفاعلة : هي قوة تنبعث في الاعصاب والعضلات فتشد الأوتار - الاعصاب والعضلات - وتمدها ليتحرك بها صاحب النفس حسبما يريد .

القوة المدركة : تنقسم الى قسمين أيضاً : قوى تدرك من خارج ، وقوى تدرك من داخل .

القوى المدركة من الخارج : هي الحواس الخمس : البصر والسمع والشم والذوق واللمس .

أما القوى المدركة من باطن (داخل) : فهي الحس المشترك ، والخيال أو المصورة ، والمتخيلة ، والوهمية (الوهم) والحافظة الذاكرة .

قوى النفس الناطقة الإنسانية : تنقسم الى قسمين أو قوتين: عاملة وعالمة ، وكل واحدة منهما تسمى عقلاً .

القوة العاملة أو العقل العلمية : والقوة العاملة أو العقل العلمية النظرية العملي متجه الى البدن ، هي تحرك البدن وهي التي تتكون منها الأخلاق ، والنظري متجه الى المبادئ الأولى ، وبها تكون المعرفة ، والتي تدرك من خلالها المفاهيم الكلية والمعاني العقلية .

القوة العاملة (العملية) أو العقل العملي :

وهي تلك القوة التي تدبر بها النفس البدن الانساني نحو الجزئيات على ضوء الآراء الجزئية التي يتوصل إليها الإنسان ، إما عن مقدمات ذائعة أو أولية ، أو عن تجربة واختبار ، وتحدث ردات فعل مختلفة كالخجل والحياء والضحك والبكاء ، كما قد تؤثر على المتخيلة والوهم فتستنبط التدابير في الامور الإنسانية ، كما قد تؤثر على العقل النظري ، فتولد الآراء والمفاهيم العامة كقولنا : الكذب قبيح والظلم اقبح .

القوة العاملة (النظرية العلمية) أو العقل النظري :

وهي القوة التي يحتاج اليها العقل ليصبح عقلاً بالفعل وتنقسم الى أربع مراتب :

العقل الهولاني : هو في القوة فقط لا شيء منه بالفعل .

والعقل بالملكة : (القوة الممكنة) وهو ما يستخرج من العقل الهولاني ، كأن نعرف ان الكل اعظم من الجزء .

والعقل بالفعل : أو ما اكتسب من معقولات وصارت بالفعل .

والعقل المستفاد : أو العقل المطلق عندما يعقل الإنسان بالفعل الصور ويعقل انه يعقلها . (١)

ولكن حين ننتقل من الفكر الفلسفي المتأثر بالفكر اليوناني وخاصة أرسطو وأفلاطون ، إلى الفكر الإسلامي المرتكز على القرآن والسنة النبوية ، نجد فهماً مغايراً في العرض والتحليل ، فمثلاً نجد ابن سينا يستعرض في النصوص السابقة كلامه عن النفس وأقسامها بعرض يتسم في ظاهره بالدراية والشمولية والمعرفة التامة بحقيقة النفس وأنواعها ولكن حين نتوجه لأصحاب الصبغة الدينية نجد عرضاً يؤكد أن النفس والحديث عنها إذا خرج عن إطار فهم النص القرآني والنبوي فإنه يتحدث عن شيء صوري وفق خيال من ترجموا النصوص اليونانية وتأثروا بها دون الغوص في حقيقة النفس .

فعلى سبيل المثال نجد الشيخ محمد الغزالي يؤكد " أن النفس لا يعرف حقيقتها وكنهها وطبيعتها وتكوينها إلا الله تعالى ، ويستشهد بقول الله تعالى {ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي} فلا يعرف النفس إلا الله ، وعلم النفس الذي وضع الآن يتكلم عن أعراض تلحق النفس الإنسانية ، ولكنه لا يفسر النفس ، فيتحدث عن الانتباه وعن الذاكرة وعن الميول الفطرية وعن أشياء كثيرة في علم النفس ، لكن لا يستطيع هذا العلم أن يعرف طبيعة أو ماهية النفس ، ولكن نعرف أشعة الشمس والانكسار وأشعة الانعكاس وبعد الصورة بالنسبة للضوء الساقط عليها .

ثم يقول الشيخ محمد الغزالي : فالنفس الإنسانية محاولة الوصول إلى أغوارها عبث وجنون ولأنها من الله ، والله نفخ فيها من روحه ، فإذا عرفت هذه النفخة عرفت الله ، وما تعرفه عن النفس الإنسانية أو الروح الإنسانية بأن لها مظاهر ولها أوصاف ولها اتجاهات ورغبات ولها منازل تصعد وتهبط منها ، كل هذه صفات . (٢)

ثم يتحدث الشيخ محمد الغزالي عن صفات النفس فيقول :

النفس اللوامة : هي صفة شخص يضيق بالرديلة ويأبى أن ينحدر إليها ، وإذا مسه شيء منها تغير وتغيظ وحاسب نفسه وارتفع ، وهي النفس التي أقسم الله بها .

النفس الأمارة بالسوء : وهي نفس هابطة .

النفس المطمئنة : وهي صفة نفس تقية نقية تخاف بأس الله وعقابه ، وهي لن تستقر وتستريح إلا إذا عادت إلى ربها من قريب ، وصاحب هذه الشخصية مستقر ، لا يكذب ولا يتملق ولأنه مطمئن إلى ما عند الله . (١)

(١) الحسين بن علي بن سينا : النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعية والألهمية - ص ١٥٧ - ١٦٢ بتصرف

(٢) أ.د أحمد عمر هاشم : النفس في القرآن - دار الفضيل للنشر - القاهرة - ١٩٩٦م - ص ١٢ - ١٤ .

ويشير الشيخ صلاح مفتاح (٢) إلى أقوال العلماء في أنواع النفس كما أشار إليها القرآن الكريم وهي كالتالي:
النفس السوية (الملهمة) :

قال تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} (٣) في هذه الآية صفتان للنفس: سوية وملهمة، ومعنى سوية: "إن حملنا النفس على الجسد فتسويتها: تعديل أعضائها على ما يشهد به علم التشريح، وإن حملناها على القوة المدبرة فتسويتها: إعطاؤها القوى الكثيرة ، كالقوة السامعة، والباصرة، والمخيلة، والمفكرة، والمذكورة على ما يشهد علم النفس .

وقال الإمام ابن كثير في معنى قوله تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا} أي: "خلقها الله سوية مستقيمة على الفطرة القويمة وقال الإمام الشوكاني في فتح القدير: "ومعنى سواها: خلقها وأنشأها وسوى أعضائها .

قال عطاء: يريد جميع ما خلق من الجن والإنس، والتتكير للتفخيم .

وقيل: المراد نفس آدم { فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } أي: عرفها وأفهمها حالهما وما فيهما من الحسن والقبح.

قال مجاهد: عرفها طريق الفجور والتقوى والطاعة والمعصية .

وقال الفراء: { فَأَلْهَمَهَا } عرفها طريق الخير، وطريق الشر ، والصفة الثانية: قال الله تعالى: { فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } بين لها ما ينبغي أن تأتي أو تذر من خير أو شر، أو طاعة أو معصية.

والإلهام : أن يوقع في قلبه ، وإذا أوقع الله في قلب عبده شيئاً ألزمه ذلك الشيء .

النفس الأمارة بالسوء :

تخلق النفس الإنسانية سويةً على الفطرة، ملهمة من الله سبحانه وتعالى، ثم تطرأ عليها وساوس الشيطان، فتتحول من السواء الذي خلقت عليه، وتأمر صاحبها بالسوء، وقد أطلق العلماء على النفس التي تتغلب عليها هذه الحالة اسم النفس الأمارة بالسوء، وأخذوا هذا المسمى من كلام الله تعالى في كتابه الكريم، وذكروا لها تعريفات تدور كلها حول معاني واحدة، ومن هذه التعريفات.

١- هي التي تميل إلى الطبيعة البدنية، وتأمر بالذات والشهوات الحسية، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية، فهي مأوى الشرور، ومنبع الأخلاق الذميمة .

٢- هي التي تأمر صاحبها بما تهواه من الشهوات المحرمة واتباع الباطل ، إذن فهي نفس لا تأمر صاحبها بخير ، والأمر من النفس نوعان :

النوع الأول :الأمر بالخير إذا بقيت على أصل الفطرة.

والثاني :الأمر بالسوء إذا انحرفت عن سواء الفطرة، ومما يشمل ذلك في القرآن قوله تعالى عن أول قتل وقع في الأرض { فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ } (٤)

(١) أ.د أحمد عمر هاشم : النفس في القرآن - دار الفضيل للنشر - القاهرة - ١٩٩٦ م - ص ١٢ - ١٤ .

(٢) الشيخ صلاح بن سمير محمد مفتاح : أنواع النفس البشرية في القرآن الكريم - مقال منشور بموقع شبكة الألوكة الألكتروني .

(٣) سورة الشمس : أية رقم (٧ - ٨)

(٤) سورة المائدة : أية رقم (٣٠)

وقال تعالى : { وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } (١)

قال الإمام الشوكاني في فتح القدير: " إن هذا الجنس من الأنفس البشرية شأنه الأمر بالسوء لميله إلى الشهوات، وتأثيرها بالطبع، وصعوبة قهرها، وكفها عن ذلك إلا ما رحم ربي ، أي: إلا من رحم من النفوس فعصمها عن أن تكون أمارة بالسوء، أو إلا وقت رحمة ربي وعصمته لها .

إذن فهذه النفس هي التي تسير بصاحبها إلى طرق اتباع الهوى والشهوات وفعل المنكرات، ولا ينجو من الوقوع في حبالها والاستجابة لرغباتها إلا من ثاب إلى عقله، واستمع إلى ضميره، وهي أيضا النفس التي تجب مجاهدتها قال تعالى على لسان يعقوب لما أخبره بنوه أن الذئب أكل يوسف { قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } (٢) فهذه الآيات نسبت الأفعال السيئة للنفس، فهي الأمانة والمسولة والمطوعة .

وفي مواضع أخرى من كتاب الله نجد نفس الأفعال منسوبة للشيطان ، كما في قوله تعالى عن موسى لما دفع المصري فكان في تلك الدفعة أجله { وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِهُ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ } (٣) فالشيطان قرين النفس الأمانة بالسوء، فهو الذي يوسوس للنفس، وهي التي تستجيب وتنفذ النفس اللوامة :

النفس اللوامة هي النفس التي أقسم الله تعالى بها في قوله تعالى { وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ } (٤) وقد اختلف أهل التفسير واللغة في تعريف النفس اللوامة .

قال صاحب كتاب التعريفات: النفس اللوامة: هي التي تنورت بنور القلب قدر ما تنبعت به عن سنة الغفلة، كلما صدرت عنها سيئة، بحكم جبلتها الظلمانية، أخذت تلوم نفسها، وتتوب عنها .

وقال صاحب كتاب تيسير الكريم الرحمن : هي جميع النفوس الخيرة والفاجرة ، سميت { لوامة } لكثرة تردها وتلومها وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها، ولأنها عند الموت تلوم صاحبها على ما عملت، بل نفس المؤمن تلوم صاحبها في الدنيا على ما حصل منه، من تقريط أو تقصير في حق من الحقوق ، أو غفلة .

وقال الزمخشري: النفس المتقية التي تلوم النفوس فيه - أي: في يوم القيامة - على تقصيرهن في التقوى أو بالتالي لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت في الإحسان ، وعن الحسن : إن المؤمن لا تراه إلا لائماً نفسه، وإن الكافر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه .

وقيل: هي التي تتلوم يومئذ على ترك الزيادة إن كانت محسنة، وعلى التقريط إن كانت مسيئة، وقيل: هي نفس آدم، لم تزل تتلوم على فعلها الذي خرجت به من الجنة .

(١) سورة يوسف : آية رقم (٥٣)

(٢) سورة يوسف : آية رقم (٨٣)

(٣) سورة القصص : آية رقم (١٥)

(٤) سورة القيامة : آية رقم (٢)

يقول الإمام ابن القيم في أقسام القرآن: "وكل نفس لوامة، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر وترك الخير، فتبادر إلى التوبة، والنفس الشقية بالضد من ذلك .

وجه المناسبة بين القسم بالقيامة والنفس اللوامة :

ذكر العلماء عدة أوجه في المناسبة بين القسم بالقيامة والنفس اللوامة، نكتفي بذكر بعض هذه الوجوه وهي :
الوجه الأول : أن أحوال القيامة عجيبة جداً، والمقصود من إقامة القيامة إظهار أحوال النفوس، أي: سعادتها وشقاوتها، فقد حصل بين القيامة والنفوس اللوامة هذه المناسبة الشديدة .

الوجه الثاني : القسم وقع بالنفس اللوامة على معنى التعظيم لها من حيث إنها أبداً تستحق فعلها وجدها واجتهادها في طاعة الله .

الوجه الثالث : يوم القيامة هو يوم الحساب، والنفس هي ذلك الجانب الذي يناقشه الحساب.

الوجه الرابع : النفس اللوامة هي حساب النفس في الدنيا، ويوم القيامة هو حساب النفس في الآخرة.

ومن خلال ذلك يتبين أن النفس اللوامة قسمان ، وذلك بحسب من تحل به :

نفس المؤمن اللوامة :

وهي النفس التي أقسم بها في قوله تعالى { وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ } (١) وهي التي قصدها الحسن البصري في قوله: إن المؤمن لا تراه إلا لائماً لنفسه، وهي النفس التي تلوم ذاتها على التقصير والتفريط في جنب الله تعالى وتأمل التعويض فتقول { وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ } (٢)

نفس الكافر واللوم :

هذه نفس ظالمة، ولومها لذاتها يكون في حالة مذنب أقر بذنبه، واعترف بخطيئته، فلام نفسه؛ لأنه أتاها؛ ولكن كان ذلك في وقت لا ينفع معه الندم ، وفي مثل هذا يقول الله تعالى { إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا } (٣)

النفس المطمئنة :

النفس المطمئنة ، هي النفس المؤمنة التي لا يستبد بها القلق في أي حال من أحوالها، في السراء أو الضراء، إنها في حال واحدة أبداً من الرضا بما قسم الله لها، فهي في السراء شاكرة حامدة، وفي الضراء صابرة راضية، فلا الغنى يُطغيها، ويخرج بها عن طريق الاستقامة، ولا الفقر يسخطها، ويعدل بها عن الاطمئنان إلى قضاء الله فيها، وحكمه عليها، إنها نفس مطمئنة ثابتة، على حال واحدة في إيمانها بالله، ورضاها بما قسم لها، وهذا الاطمئنان، وذلك الرضا، لا يجدهما إلا المؤمنون بالله ، المتوكلون عليه، المفوضون أمورهم إليه، فالاطمئنان الذي تصيبه بعض النفوس، ويكون صفة غالبية عليها، هو ثمرة الإيمان الوثيق بالله ، القائم على أصول ثابتة من المعرفة بالله سبحانه

(١) سورة القيامة : أية رقم (٢)

(٢) سورة الزمر: أية رقم (٥٥)

(٣) سورة النبأ: أية رقم (٤٠)

وتعالى ، وما له جل شأنه من سلطان مطلق متمكن ، قائم على كل ذرة في هذا الوجود ، وأنه لا يقع في هذا الوجود شيء إلا بتقديره سبحانه ، وبمقتضى حكمته وعلمه، وعدله .

والنفس المطمئنة هي التي ذكرها الله تعالى في قوله {يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ} (١) وعرفها أهل اللغة بأنها: هي التي تم تنويرها بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة، وتخلقت بالأخلاق الحميدة كما اختلف المفسرون في المقصود بالنفس المطمئنة في هذه الآية ، فقال ابن عباس رضي الله : المطمئنة إلى ما قال الله ، والمصدقة بما قال .

والاطمئنان هو الاستقرار والثبات، واليقين بالحق، وهو المراد من قوله تعالى {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُنْخِئُ الْمَوْتَى} قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (٢) ولا يحصل هذا الاطمئنان إلا بذكر الله ، كما قال تعالى {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} (٣) والطمأنينة هي المعرفة الحقة بالله تعالى، فثبت أن من أثر معرفة الله لشيء غير الله فهو غير مطمئن، وليست نفسه نفساً مطمئنة ، وكل من كان غير ذلك كان أنسه لله ، وشوقه إلى الله وبقاؤه بالله ، وكلامه مع الله ، فلا جرم أن يخاطب عند مفارقة الدنيا بقوله {يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ} والحديث عن النفس المطمئنة ورد في سياق آيات كريمة عن تجلي عظمة الله سبحانه وتعالى، وقد برزت الجحيم حقيقة ماثلة للعيان، هنالك يتذكر الإنسان كل ما اقترب من ذنوب ، ولكن ماذا ينفعه التذكر، إنه يتمنى لو كان في حياته قد عمل لهذا اليوم ما يُجَنِّبُه عذاب الجحيم، أي رعب، وأي هلع يستولي عليه، وقد رأى المصير الأليم، فلما وصف حال من اطمأن إلى الدنيا، وصف حال من اطمئن إلى معرفته وعبوديته، فقال {يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ} تقف نفوس المؤمنين مطمئنة بما وعدها الله به في الآخرة، في رفقة عباده الصالحين، ولا تعاني من هذا القلق النفسي وتلك الحيرة والضياح التي تشكو منها المجتمعات الغربية، وهي ضريبة الشرود عن منهج الله ، قال تعالى {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} (٤) فالمسلم بين هذه الجموع الشقية يجد هذه الطمأنينة .

النفس الزاكية والزكية :

وهذه النفس هي التي ورد ذكرها على لسان سيدنا موسى في قول الله تعالى {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا} (٥) وورد في قوله تعالى: {زَكِيَّةً} قراءتان متواترتان عن النبي صلى الله عليه وسلم عن رب العزة سبحانه :

(١) سورة الفجر : أية رقم (٢٧)

(٢) سورة البقرة : أية رقم (٢٦٠)

(٣) سورة الرعد : أية رقم (٢٨)

(٤) سورة طه : أية رقم (١٢٤)

(٥) سورة الكهف : أية رقم (٧٤)

القراءة الأولى : لنافع ، وابن كثير، وأبي عمرو، وأبي جعفر، وابن جمار، وهي بإثبات ألف بعد الزاي، وتخفيف الياء زَاكِئَةً .

والقراءة الثانية : بغير ألف مع تشديد الياء، وهي رواية حفص، ومن وافقه من القراء، وقد أشار أهل التفسير إلى معنى هاتين الكلمتين ، فقال الإمام الرازي في تفسيره ، قال الكسائي: "الزَاكِئَةُ والزَّكِيَّةُ" لغتان ومعناها الطاهرة. وقال أبو عمرو: الزَّاكِئَةُ التي لم تذنّب، وَالزَّكِيَّةُ التي أُذْنِبَتْ ثم تابَتْ . وقال ثعلب: الزَّكِيَّةُ أبلغ ، إذن فالنفس الزكية بالمد بعد الزاي أو القصر هي النفس الطاهرة (١).

وإذا ما انتقلنا إلى الشيخ الشعراوي لاستعراض أقسام النفس وأحوالها وصفاتها ، فهو يرى أن :
النفس الأمانة بالسوء : وهي المرحلة الدنيا التي تدفع الإنسان إلى الشهوات والمعاصي .
والنفس اللوامة : وهي المرحلة الوسطى التي تلوم صاحبها على الذنوب وتدفعه إلى التوبة .
والنفس مطمئنة : وهي أعلى المراتب التي تطمئن إلى منهج الله وتسكن إلى طاعته .
ثم يتحدث الشيخ الشعراوي عن مهمة النفس اللوامة ووظيفتها في ردع النفس الأمانة فيقول رحمه الله " إن مهمة النفس اللوامة : هي أن ترد على كل ما توسوس به النفس الأمانة بالسوء ، لكن إن لم تلم النفس اللوامة، فالنفس الأمانة بالسوء تتماذى ولا يردعها رادع .

أما النفس مطمئنة : فهي النفس التي تطمئن إلى منهج الله ، ومثال ذلك الإنسان الذي تلح عليه شهوته لارتكاب معصية ما فيرتكبها، ومن بعد ذلك يندم ويلوم نفسه، ويتوب عن المعصية، هذا الإنسان يردع نفسه ذاتياً، لكن إن سيطرت النفس الأمانة بالسوء فلا رادع "(٢).

ويتلاقى الشعراوي مع ما ذكره ابن القيم رحمه الله بأن نفس الإنسان متقلبة بين لوامة وأمانة بالسوء ومطمئنة : " بأن النفس قد تكون أمانة تارة ، وتارة لوامة ، وتارة مطمئنة ، بل في اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل فيها هذا وهذا ، والحكم للغالب عليها من أحوالها ، فكونها مطمئنة ، وصف ومدح لها ، وكونها أمانة بالسوء وصف ذم لها ، وكونها لوامة ينقسم الي المدح والذم ، بحسب ما تلوم عليه "(٣)

ونتین من خلال ما ذكره الشيخ الشعراوي أن هذه الأقسام تمثل مراحل تطور النفس، وأن الإنسان يتقلب بين كافة مراحلها وأحوالها ، حيث يبدأ الإنسان بنفس أمانة بالسوء ، ثم يجاهدها حتى تتحول إلى نفس لوامة ، وأخيراً يصل إلى درجة النفس مطمئنة ، وهي الغاية التي يسعى إليها كل مؤمن يرجو النجاة في الدنيا والآخرة .

النفس الأمانة بالسوء :

(١) الشيخ صلاح بن سمير محمد مفتاح : أنواع النفس الشريفة في القرآن الكريم - مقال منشور بموقع شبكة الألوكة الألكتروني - يتصرف

(٢) محمد متولي الشعراوي : المرجع السابق - ص ٣٢٨٧

(٣) الإمام ابن القيم الجوزية : إغاثة اللفهان في مصاديق الشيطان - م ١ - تحقيق : محمد غريب شمس - دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع - مكة المكرمة - السعودية -

ط ١ - ١٤٣٢ هـ - ص ١٣١

يعرفها الشيخ الشعراوي أنها هي التي تدفع الإنسان إلى المعصية وتُلح عليه في اتباع الهوى والشهوة ، فهي عدو من داخل الإنسان، ولولا رحمة الله لسلطت على صاحبها، لذلك جاء في قوله تعالى { وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } (١)

فيقول الشيخ الشعراوي رحمه الله : " ومن لُطْف الله أن قال عن النفس: إنها أمارة بالسوء ، وفي هذا توضيح كافٍ لطبيعة عمل النفس ، فهي ليست أمرة بالسوء ، بمعنى أنها تأمر الإنسان لتقع منه المعصية مرة واحدة وينتهي الأمر، لا، بل انتبه أيها الإنسان إلى حقيقة عمل النفس، فهي دائماً أمارة بالسوء، وأنت تعلم أن التكاليفات الإلهية كلها إما أوامر أو نواهٍ ، وقد تستقبل الأوامر كتكليف يشق على نفسك، وأنت تعلم أن النواهي تمنعك من أفعال قد تكون مرغوبة لك ، لأنها في ظاهرها ممتعة ، وتبلي نداء غرائز الإنسان" (٢)

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " النفس الأمانة بالسوء هي التي يغلب عليها اتباع هواها بفعل الذنوب والمعاصي" (٣)

إن النفس الأمانة وهي من خلال اسمها تدل على المرحلة التي تكون فيها النفس خبيثة ممتلئة بالأهواء، مستعدة بدرجة كبيرة لتلقى الوسوس الشيطانية؛ فلذلك لا تأمر إلا بالشر، لكن هذا لا يعني عدم إمكانية تطهيرها وتركيتها وترقيتها من تلك الحالة إلى حالة أخرى أكثر طهراً، بل إن ذلك ممكن، والقرآن الكريم أشار إليه عند ذكره لتحول السحرة وغيرهم إلى الإيمان، قال تعالى { فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُدُجِينَ * قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } (٤) ولولا ذلك لما كان هناك حاجة لعلم الأخلاق وغيره من العلوم المرتبطة بسياسة النفس وتهذيبها (٥).

يري الشيخ الشعراوي أن هذه النفس إذا سيطرت على صاحبها انعدم فيه كبح المعصية ، فيتحوّل جزء من الإنسان إلى أداة للمعاصي حيث يوضح ذلك في قوله رحمه الله : " هب أن نفساً ولعت بمخالفة المنهج ولم تعد نفساً لوامة، وتظل ترتكب المعاصي حتى تعتاد على المعصية ، ويموت فيها الوازع الإيماني، فتجدها قد عشقت -والعياذ بالله- مخالفة المنهج ، بل أصبحت نفساً أمارة بالسوء" (٦) حيث أن الإنسان قد يضحي بكل شيء من أجل هذه النفس، حيث يبين الشيخ الشعراوي إلى أن هذه النفس ليست شراً مطلقاً، بل هي جزء من طبيعة الإنسان، وقد خلقها الله فيه لحكمة بالغة، وهي أن يُجاهدها الإنسان ويحاول السيطرة عليها ، فينال بذلك الأجر والثواب ، قال تعالى {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ} (٧)

(١) سورة يوسف : أية رقم (٥٣)

(٢) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١١ - ص ٦٩٩٢

(٣) شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية : مجموع الفتاوى - م ٩ - كتاب المنطق - دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة - مصر - ط ٢ - ٢٠٠١ م - ص ٢٩٤

(٤) سورة الشعراء : أية رقم (٤٥) الي (٤٧)

(٥) د. نور الدين أبو لحية : مثالب النفس الأمارة - دار الأنوار للنشر والتوزيع - لبنان - ط ١ - ٢٠١٩ م - ص ١٠

(٦) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٨ - ص ٤٨٨٣

(٧) سورة النازعات : أية رقم (٤٠)

أما عن نهي الله عز وجل عن فعل هذه المعاصي و الشهوات ، ليس لأن بها تقوم مصالح الحياة ، لكن شرع حدوداً ، فمن التزمها سلم ، ومن انقاد لأهوائه هلك ، مستشهداً بحديث رسول الله ﷺ " حُقَّت الجنة بالمكاره ، وحُقَّت النار بالشهوات" (١)

والمكاره تعني : ما تكرهه النفوس عادة ، مثل: الصبر على الطاعات، الصيام مع الجوع والعطش ، القيام من النوم لصلاة الفجر، الجهاد بالنفس والمال، كظم الغيظ ، العفو، الحياء، الصبر على البلاء ، والشهوات: ما تميل إليه النفوس من اللذات ، خصوصاً المحرمات مثل: الزنا ، شرب الخمر، الغيبة ، أكل الحرام ، الترف المفرط ، الظلم ، التسلط ، اتباع الهوى .

فيقول الإمام النووي رحمه الله : "هذا من بديع الكلام وجوامعه ، وهو من أجمع الكلم، إذ جمع فيه الشر كله بحذافيره والخير كله كذلك، ومعناه: لا يوصل إلى الجنة إلا بارتكاب المكاره، ولا يوصل إلى النار إلا باتباع الشهوات" (٢)

وقال ابن حجر العسقلاني رحمه الله : " المعنى أن الجنة لا يدخلها أحد إلا بارتكاب المكاره ، والنار لا يدخلها أحد إلا بارتكاب الشهوات، فمن أراد دخول الجنة فليقتحم المكاره، ومن أراد النجاة من النار فليترك الشهوات" (٣) إذاً فطريق النجاة مغلف بالمجاهدات، وطريق الهلاك مُغَرٍّ بالملاذات، فيقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: " أن المعاصي قد تُغريك، ولكن العاقل هو من يملك زمام نفسه، ويُقَدِّرُ العواقب البعيدة، ولا ينظر إلى اللذة العارضة الوقتية، إلا إذا نظر معها إلى الغاية التي توصله إليها تلك اللذة، لأن شيئاً قد تستلذ به لحظة قد تشقى به زمناً طويلاً، ولذلك قلنا: إن الذي يُسرف على نفسه غافل عن ثواب الطاعة وعن عذاب العقوبة، ولو استحضر الثواب على الطاعة، والعذاب على المعصية، لامتنع عن الإسراف على نفسه" (٤)

ويربط الشيخ الشعراوي بين اندفاع النفس إلى الفاحشة ، وبين خفوت نور الإيمان ساعة المعصية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يَنْتَهَبُ نَهْبَةً يرفع الناس إليه أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن" (٥) يعني ينتفي عنه وصف الإيمان في لحظة وقوعه في هذه المعصية ، لأنه غفل عن العاقبة ، وغفل عن الله ، ولو استحضر الله في ذهنه ما أقدم علي هذا الخطأ، حيث إن المؤمن إذا أقدم على الكبائر، فمعنى ذلك أن

(١) حديث شريف: أخرجه البخاري - الجامع الصحيح - كتاب الرقاق - باب في الخوض - حديث رقم ٦٤٨٧ ، ومسلم - كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها -

باب: حُقَّت الجنة بالمكاره وحُقَّت النار بالشهوات - حديث رقم ٢٨٢٢

(٢) الإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي : شرح صحيح مسلم - ج ١٧ - مؤسسة قرطبة للنشر والتوزيع - القاهرة - ط ٢ - ١٩٩٤م - ص ١٦٥

(٣) الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري - ج ١١ - دار الريان للتراث - القاهرة - ط ١ - ١٩٨٧م - ص ٤١٨

(٤) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١١ - ص ٦٩٩٣

(٥) حديث شريف : أخرجه الإمام البخاري - الجامع الصحيح - كتاب الحدود - باب: لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن - حديث رقم ٦٧٨٠ ، والإمام مسلم

- الجامع الصحيح - كتاب الإيمان - باب: نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن الزاني والسارق وشارب الخمر - حديث رقم ٥٧

نور الإيمان غاب لحظة وقوعها، ولولاه لما وقع، ولكنه لم يذهب إلى نفي الإيمان ذاته، بل نقصانه أو غيابه مؤقتاً. (١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "مراد النبي ﷺ أن مرتكب الكبيرة يضعف إيمانه حتى يصير كأنه ليس معه من الإيمان ما يردعه عن المعصية، ولهذا قيل: يخرج منه الإيمان حتى يكون كالظلة فوقه، فإذا أُلْقِيَ رجع إليه" (٢) إن هذه النفس الأمارة التي ترتكب الفواحش والكبائر ولا تلقي لذلك بالاً، فهي لا تؤمن بالآخرة ولا يهتمها إن عصت الله أو أطاعته، وذلك لفساد عقيدتها وكفرها، فهي لا تشعر بذنب ولا ندم، لأن الكل عندها سيان، حيث لا تؤمن بالنار فتخاف من عذابها، ولا بالجنة فتطمع في نعيمها، وقلوبها مظلم لعدم معرفة الله، وتراكم أثر المعاصي والكفر عليه، فلم يعد يشعر بالخوف من الله ولا من عذابه، لأنه قلب ميت لا حياة فيه بالإيمان.

النفس الامارة بالسوء في فكر الشعراوي بأنها قوة داخلية فطرية تدفع الإنسان نحو نزواته الطبيعية ما لم يُقَوِّمها شرعٌ يسهم في تشذيبها، حيث جسد الشعراوي هذا الصراع باعتباره محطة مركزية في البناء الأخلاقي، حيث لا يكفي التحذير أو النصيحة، بل يحتاج الأمر إلى مجاهدة واعية تمتزج فيها التزكية بالوعي ومحاسبة النفس، ولعل من أبرز أرائه أنها لا تُهزم إلا باستنهاض إرادة تؤمن بالغاية الروحية، وبمرافقة للفكر الصالح، تُعين على اجتراح التغيير.

النفس اللوامة :

النفس اللوامة : هي النفس التي تقع في المرتبة الثانية بعد النفس الأمارة، لتحضر صاحبها لأن تتحول نفسه إلى نفس مطمئنة، ودورها بذلك محدود ومؤقت، ويمكن تحديده في جانبين، أو وظيفتين:

الأول : تزكية النفس وتهذيبها من كل مثالب النفس الأمارة، ذلك أنه لا يمكن أن تبنى الأخلاق الطيبة إلا بعد اجتثاث ما يخالفها من الأخلاق الخبيثة.

الثاني: ترقية النفس إلى المحال التي تطمئن فيها للإيمان، لتصبح بذلك أهلاً لدرجة النفس المطمئنة.

وهذان الدوران يحتاجان إلى التعرف على المناهج الصحيحة التي يمكن أن تسير بالنفس سيرا صحيحا، حتى لا ينحرف بها صاحبها في الوقت الذي يريد فيه تهذيبها والرقى بها.

وقد ذكرها القرآن الكريم ، وأثنى عليها في قوله تعالى: { وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ } (٣) حيث عرفها الشيخ الشعراوي فقال: "هي النفس التي تصنع شراً مرة ، فيأتي من داخل النفس ما يستتكر هذا الشر فتعود الي الخير" (٤)

قال ابن كثير رحمه الله: "فقال قره ابن خالد، عن الحسن البصري في هذه الآية : إن المؤمن والله مانراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ وإن الفاجر يمضي قدماً ما يعاتب نفسه" (٥)

(١) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٢١ - ص ١٢٨٩٨

(٢) شيخ الإسلام احمد ابن تيمية : مجموع الفتاوي - تحقيق : عبدالرحمن بن محمد بن قاسم - ج ٧ - مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة - السعودية - بدون - م ٢٠٠٤ - ص ٢٩٢

(٣) سورة القيامة : آية رقم (٢)

(٤) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٢٦ - ص ١٦٥٧٠

(٥) الحافظ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم - ج ٨ - تحقيق : سامي بن محمد السلامة - دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض - السعودية - ط ٢ - ١٩٩٩ م -

وقال جوبير: "بلغنا عن الحسن أنه قال في قوله { وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ } قال : ليس أحد من أهل السماوات والأرض إلا يلوم نفسه يوم القيامة "(١)

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " النفس اللوامة هي التي تذنب وتتوب فعنها خير وشر، لكن اذا فعلت الشر تابت وأنابت، فتسمي لوامة، لأنها تلوم صاحبها علي الذنوب، ولأنها تتلوم: أي تتردد بين الخير والشر"(٢).
يقول سيد قطب رحمه الله : " فهذه النفس اللوامة المتيقظة النقية الخائفة المتوجسة التي تحاسب نفسها وتتلفت حولها و تتبين حقيقة هواها، وتحذر خداع ذاتها ، هي النفس الكريمة علي الله ، حتي ليذكرها مع القيامة ، ثم هي السورة المقابلة للنفس الفاجرة ، نفس الإنسان الذي يريد ان يفجر ويمضي قدماً في الفجور، والذي يكذب ويتولي ويذهب الي أهله يتمطي دون حساب لنفسه ودون تلوم ولا تحرج ولا مبالاه "(٣)

ويُبين الشعراوي أن هذه النفس تتميز بعدة خصائص، من أبرزها:
الضمير الحي : حيث تكون حساسة للخطأ، ولا تستطيع أن تمرّ على الذنب مرور الكرام .
الحرص على التوبة: حيث تسعى جاهدة للعودة إلى الله .

الاستغفار من ذنوبها.

الشعور بالمسؤولية : حيث تدرك أنها مسؤولة عن أفعالها، وأنها ستحاسب عليها.
كما أنها تتميز بالرحمة والشفقة ، حيث ترحم نفسها ، وتشفق عليها من عذاب الله .
ويُشبه الشعراوي هذه النفس بالمريض الذي يشعر بألمه ، ويبحث عن دواء له ، ويحرص على اتباع تعليمات الطبيب حتى يُشفى (٤)

إن مهمة النفس اللوامة هي أن ترد على كل ما توسوس به النفس الأمارة بالسوء، لكن إن لم تلم النفس اللوامة، فالنفس الأمارة بالسوء تتماذى ولا يردعها رادع، حيث يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله : " إن ذلك الإنسان الذي تلح عليه شهوته لارتكاب معصية ما فيرتكبها، ومن بعد ذلك يندم ويلوم نفسه، ويتوب عن المعصية، هذا الإنسان يردع نفسه ذاتياً، لكن إن سيطرت النفس الأمارة بالسوء فلا رادع "(٥)

والنفس اللوامة هي نفس عظيمة وكريمة الأصل، ولا عجب أن يقسم الله عز وجل بها، ولو كانت غير ذلك لم تلم صاحبها، فهي أظهر معدنا من النفس الكافرة التي لا تلوم صاحبها على ترك معروف ولا تندم على فعل منكر، فلا

(١) الحافظ ابن كثير : المصدر السابق

(٢) شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية : مجموع الفتاوى - م ٩ - كتاب المنطق - دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة - مصر - ط ٢ - ٢٠٠١ م - ص

٢٩٤

(٣) سيد قطب : في ظلال القرآن - م ٦ - دار الشروق - القاهرة - ط ٣٢ - ٢٠٠٣ م - ص ٣٧٦٨

(٤) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٤ - ص ٢٣٧٣ - بتصرف

(٥) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٦ - ص ٣٢٨٧

تجد تلك الصفة إلا في مؤمن، وذلك بدليل ما بينه النبي ﷺ من أن المؤمن يفرح بحسنه ويستاء من معصيته، فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " إِذَا سَرَّتْكَ حَسَنُكَ، وَسَاءَتْكَ سَيِّئُكَ، فَأَنْتَ مُؤْمِنٌ " (١) وهذا يعرفه المؤمنون بالسليقة، حيث تجدهم يحملون هم الدنيا بما فيها إن وقعوا في معصية، بل تجد منهم من يبكي لذلك حتى تبل دموعه ثيابه من غزارتها، ومنهم من يقيم الليل يتحسر على معصيته ويناجي ربه قائلاً: "يا رب ظلمت نفسي فاغفر لي، يارب عصيتك وقصرت في طاعتك فاعفو عني" أو نحو ذلك، ويتوافق في ذلك أنين المذنبين وتوبتهم وندمهم على المعاصي وتحسرهم على ما صدر منهم ، وقال تعالى " قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ " (٢)

فكان الله سبحانه وتعالى قد قدر غفلة الإنسان عن المنهج الذي وضعه له، فوضع له وسائل التوبة إليه ، فيقول الشيخ الشعراوي: " وسائل التوبة ثلاث مراحل: تشريعها رحمة، ثم الإقبال عليها من المذنب اعترافاً وإنابة، وقبولها منه سبحانه رحمة، فالتشريع يطلب منك أن تفعل، وحين تتوب يتوب الله عليك " (٣) وهنا فإن تشريع التوبة رحمة ، لا للمذنب فقط ، بل ولغيره أيضاً، لأن الله لو لم يشرع التوبة، كان الذي يعمل معصية ولا يجد مغفرة يتمادي في المعاصي، وإذا تمادي في المعاصي تغلب عليه النفس الامارة بالسوء ويكون من الخاسرين .

إن لم تلم النفس صاحبها كيف لها أن تتوب وتحقق شروط التوبة التي قال العلماء أن من أهمها الندم على المعصية، ثم إن الندم فيه فائدة بتزكية النفس، فهو نوع من الألم الروحي الذي يصيب صاحبه إن لام نفسه على فعل منكر، وبه رياضة روحية وإيمانية تطهر بها النفوس وتجلي القلوب من السواد الذي تركه الذنب فيها، ولذا فالنفس اللوامة تكون ذكية عادة بذلك اللوم ، وقوية الايمان والتقوى لربها، وإلا لم تتأذى من ذنب فعلته. يقول مالك ابن دينار رحمه الله : " رحم الله عبداً قال لنفسه النفيسة: ألسنت صاحبة كذا، ألسنت صاحبة كذا، ثم ندمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله، فكان لها قائداً " (٤)

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله الي بعض عماله فقال: " حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإن من حاسب نفسه في الرخاء قبل الشدة عاد أمره الي الرضا والغبطة، ومن ألهمته حياته وشغلته أهواؤه عاد أمره الي الندامة والحسرة " (٥)

وقال الحسن البصري رحمه الله : " إن المؤمن قوامٌ على نفسه، يحاسب نفسه لله عز وجل، وإنما خفَّ الحساب يوم القيامة على قومٍ حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة

(١) حديث شريف : رواه ابن ماجه - السنن - كتاب الزهد - باب الورع والتقوى - رقم (٤٢٢١) / وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه - رقم (٣٤١٤) / ووالحاكم في المستدرك (٥٨/١) وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي

(٢) سورة الأعراف : آية رقم (٢٣)

(٣) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٧ - ص ٤٠٩٠

(٤) الحافظ ابن أبي الدنيا : محاسبة النفس - تحقيق : المسعصم بالله أبي هريرة - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط ١ - ١٩٨٦ م - ص ٣٤

(٥) الحافظ ابن أبي الدنيا : المرجع السابق

إن المؤمن يُفجّوه الشيء ويُعجبه ، فيقول: والله إنك من حاجتي، والله ما إليك من سبيل، هيهات .. حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردتُ إلى هذا؟ ما لي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا أبداً.
إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن، وحال بينهم وبين شهواتهم.

إنّ المؤمن أسيرٌ في الدنيا، يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقي الله عز وجل، يعلم أنه مأخوذٌ عليه في سمعه، ومأخوذٌ عليه في بصره، ومأخوذٌ عليه في لسانه، ومأخوذٌ عليه في جوارحه (١)

أقسام النفس (أحوالها وصفاتها) عند الشعراوي:

بالإضافة إلى ما سبق ذكره عن أقسام النفس عند الشيخ الشعراوي نجد أنه في تفسيره للقرآن الكريم ، يتحدث عن أحوال النفس وصفاتها ومراتبها المختلفة عبر لحظاتٍ واعية وروحانية، "فالنفوس الزكية" - كما وصفها الشعراوي - هي التي اجتزت مشقات الزمان والهوى حتى زالت عنها أدران الرذائل الجسدية والمعنوية، وأن النفس البشرية مكونة من ملكات ودوافع متعددة، وليس دافعا واحداً، فهو يبين في تفسيره أن الله عز وجل قد خلق النفس البشرية كملكات متعددة، ملكة تحب الأريحية ، وأخرى تحب الشح، والملكة التي تحب الأريحية إنما تطلب ثناء الناس، والتي تحب الشح إنما تفعل ذلك ليطمئن صاحبها أنه يملك ما يغنيه.

وكلتا الملكتين تتصارع في النفس الواحدة، لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { قُوا أَنْفُسَكُمْ } (٢) فالنفس تقي النفس، لأن الملكات فيها متعددة، وبعض الملكات تحب تحقيق المتعة والشهوة، لكن هناك ملكة إيمانية تقول: تذكر أن هذه الشهوات عاجلة ، ولكنها عظيمة المتاعب فيما بعد. (٣)

ويتناول الشعراوي أقسام النفس وصفاتها وأحوالها الي عدة أقسام كما ذكرت وتناولها في تفسيره للقرآن الكريم:

أولاً: النفس الملهمة (بين الخير والشر):

حيث جاء في قوله تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا * فَأَلْهَمْنَاهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} (٤) وهذه الآيات الأربع تمثل القاعدة النظرية النفسية للإسلام، وهي مرتبطة ومكملة للآيات التي تشير الي ازدواج طبيعة الإنسان كقوله تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِقُ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} (٥)

كما أنها مرتبطة ومكملة للآيات التي تقرر التبعة الفردية كقوله تعالى: { كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ } (٦) التي تقرر أن الله يرتب تصرفه بالإنسان علي واقع هذا الإنسان ، كقوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } (١).

(١) الإمام ابن القيم الجوزية : إغاثة اللهفان في مصاديد الشيطان - م ١ - تحقيق : محمد غريرد شمس - دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع - مكة المكرمة - السعودية -

ط ١ - ١٤٣٢ هـ - ص ١٣٥

(٢) سورة التحريم : أية رقم (٦)

(٣) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٥ - ص ٢٧٤٤

(٤) سورة الشمس: من الآية (٧) الي (١٠)

(٥) سورة ص : من الآية (٧١) الي (٧٢)

(٦) سورة المدثر: أية رقم (٣٨)

يقول الشيخ الشعراوي: "إن الإنسان مزود بإستعدادات متساوية للخير والشر، والهدي والضلال، فهو قادر علي التمييز بين ماهو خير وبين ماهو شر، كما انه قادر علي توجيه نفسه الي الخير والي الشر سواء، وأن هذه لقدرة كامنه في كيانه، يعبر عنها القرآن بالإلهام تارة: { وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّيْنَاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } ويعبر عنها بالهداية تارة كقوله تعالى: { وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ } (٢) فهي كامنة في صميمه في صورة استعداد، والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية ، إنما توقظ هذه الإستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا وهناك ، ولكنها لا تخلقها خلقاً، فهي مخلوقة فطرة وكائنة طبعاً، وكامنة إلهاماً". (٣)

ولقد أودع سبحانه وتعالى في نفس الإنسان خصائص القدرة على إدراك الخير والشر، والهدي والضلال، والحق والباطل، كما جاء في قوله تعالى: { وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }، ليختار أيهما يشاء، طريق الخير والطاعة لله عز وجل ، أم طريق الشر واتباع الشهوات. (٤)

يقول الشعراوي : " ورحمه من الله عز وجل بالإنسان أن لم يدعه لإستعداد فطرته الإلهامي، ولا للقوة الواعية المالكة للتصرف، فأعانه بالرسالات التي تضع له الموازين الثابتة الدقيقة، وتكشف له عن موحيات الإيمان، ودلائل الهدى في نفسه وفي الآفاق ومن حوله، وتجلو عنه غواشي الهوى فيبصر الحق في صورته الصحيحة، وبذلك يتضح له الطريق وضوحاً كاشفاً لا غبش فيه ولا شبهة، فتتصرف القوة الواعية حينئذ عن بصيرة وإدراك لحقيقة الإتجاه الذي تختاره وتسير فيه". (٥)

وهذه في جملتها هي مشيئة الله عز وجل للإنسان، أن جعل له حرية الإختيار للطريق الذي سوف يسلكه سواء كان خيراً أو شراً.

ثانياً: النفس الراضية: القنوعة بقضاء الله:

ولقد عرف الشيخ الشعراوي النفس الراضية بأنها هي النفس التي رضيت بما أوتيت، فمن خلال تفسيره لقول الله عز وجل {لِيَدْخِلَهُمْ مُدْخَلَ رِزْوَانِهِ} (٦)، فيعرف الرضا بأنه هو اقتناع النفس بشيء تجد فيه متعة، بحيث لا تستشرف إلى أعلى منه، ولا تبغي أكثر من ذلك. (٧)

يقول الشعراوي : " لذلك بعد أن ينعم أهل الجنة بنعيمها، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، بعدها يتجلى الحق سبحانه عليهم فيقول لعباده المؤمنين: يا عبادي أرضيتم؟ فيقولون: وكيف لا نرضى وقد أعطيتنا

(١) سورة الرعد : آية رقم (١١)

(٢) سورة البلد : آية رقم (١٠)

(٣) محمد متولي الشعراوي: تفسير جزء عم - دار الراجية للنشر والتوزيع - القاهرة - بدون - ٢٠٠٨ - ص ٣٨٧

(٤) محمد متولي الشعراوي: المرجع السابق - ص ٣٧٤

(٥) محمد متولي الشعراوي: المرجع السابق - ص ٣٨٨

(٦) سورة الحج: آية رقم (٥٩)

(٧) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ١٦ - ص ٩٨٩٩

ما لم تعط أحداً من العالمين؟ قال: ألا أعطيك أفضل من هذا؟ قالوا: وهل شيء أفضل مما نحن فيه؟ قال: نعم، أُجِلْ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً^(١)

وجاء في قوله تعالى {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} (٢) فالمخاطب في هذه الآية هو النبي ﷺ بأن الله سبحانه وتعالى سيعطيه عطاءً كبيراً مستمرا في الآخرة يجعل النبي ﷺ راضياً بما أُعطي له من الله من الخير والبركات، في الدنيا والآخرة، ومما يُعد من الكرامات التي لا يحصيها إلا الله، ليستحضر في خاطره جميل صنع ربه به، ومودته له، وفيضه عليه. (٣)

بُيِّنَ الشعراوي أن النفس الراضية هي التي تسلم أمرها لله تسليماً كاملاً، فلا تضطرب إذا نزل بها بلاء، ولا تغتر إذا أفيض عليها من النعم، بل يكون حالها ثابتاً في السراء والضراء، وهي التي لا تعترض على قدر الله، ولا تقول "لماذا أنا؟ عند وقوع المصائب، بل تدرك أن ما اختاره الله لها خير مما تختاره لنفسها، وأن الرضا مقام يجمع بين العمل والجزاء :

فالعَمَلُ: أن يرضى الإنسان عن ربه في كل حال.

أما الجزاء: أن يرضى الله عن عبده، مصداقاً لقوله تعالى: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} (٤)

يقول الشعراوي : " ذلك أن صدق الصادقين يوم القيامة ، هو صدق موصول بصدقهم في زمن التكليف وهو الدنيا ويتلقون رضاء الله : {لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} (٥)

وإن تساءل إنسان: كيف يرضى العبد عن ربه؟؛ نقول: إن العباد المؤمنين عندما يعاينون الجزاء المعد لهم في الآخرة يمتثلون بالحبور ويقولون: {الحمد لله الذي صدّقنا وَعْدَهُ وَأَوْثَقَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرُ مَا نَشَاءُ} (٦)(٧)

إذاً فإن تميز النفس الراضية يكمن في أنها قنوعة بما قسم الله لها من رزق ومعاش، لا تنتظر إلى ما عند الآخرين بحسد، وإنما بحمد لله على ما أنعم، وإذا ابتليت لا تنهار ولا تجزع، بل تستقبل الابتلاء بالصبر والرضا، وإذا أنعم الله عليها لم تتكبر، بل قابلت النعمة بالحمد والشكر، وأدركت أنها فضل من الله، فهي نفس -كما يصفها الشعراوي- سَلِمَتْ من الشكوى على الله ، فلا تحمل في قلبها حقداً على قدره ، أو ضيقاً من حكمه

ثالثاً: النفس المطمئنة: صاحبة السكينة الإلهية :

عرف الشعراوي النفس المطمئنة بأنها : نفس آمنت بأن الله عز وجل هو المدبر لها، وأن ما يكتبه الله لها من الخير والشر خير حكمة، فقبلت قضاء الله برضا وسكينة في القلب، وسكنت إلى ذكر الله، فلا تؤثر عليها المخاوف أو

(١) محمد متولي الشعراوي: المصدر السابق

(٢) سورة الضحى: أية رقم (٥)

(٣) محمد متولي الشعراوي: تفسير جزء عم - دار الراجحة للنشر والتوزيع - القاهرة - بدون - ٢٠٠٨ - ص ٤٠٨ - بتصرف

(٤) سورة المائدة: أية رقم (١١٩)

(٥) سورة البينة: أية رقم (٨)

(٦) سورة الزمر: أية رقم (٧٤)

(٧) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٦ - ص ٣٤٨١

التقلبات النفسية الناتجة من الشك، وتتجلى في سلوك يوافق هذا الإيمان: تطيع الله، ترضى منه، وتطمئن عند المواجهة مع البلاء أو اليأس. (١)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهي التي تحب الخير والحسنات وتريده، وتُبغض الشر والسيئات وتكره ذلك، وقد صار ذلك لها خلقاً وعادة ومملكة" (٢)

وبين الشعراوي أن النفس المطمئنة تعني الإطمئنان وسكون القلب واستقراره وأنسه الي عقيدة لا تطفو الي العقل ليناقلها من جديد. (٣)

يفسر الشيخ الشعراوي قول الله عز وجل {يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً} (٤) فيقول الشعراوي: "إنها عطفة تنسم فيها أرواح الجنة منذ النداء الأول: {يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ} المطمئنة الي ربها، المطمئنة الي طريقها، المطمئنة الي قدر الله بها، المطمئنة في السراء والضراء، وفي البسط والقبض، وفي المنع والعطاء، المطمئنة فلا ترتاب، والمطمئنة فلا تتحرف، والمطمئنة فلا تتلجلج في الطريق، والمطمئنة فلا ترتاع في يوم الهول الرعب" (٥)

قال الحسن البصري رحمه الله: إن الله تعالى إذا أراد أن يقبض روح عبده المؤمن، اطمأنت النفس إلى الله تعالى، واطمأن الله إليها. (٦)

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: إذا توفي المؤمن أرسل الله إليه ملكين، وأرسل معهما تحفة من الجنة، فيقولان لها: اخرجي أيتها النفس المطمئنة راضية مرضية، ومرضيا عنك، اخرجي إلى روح وريحان، ورب راض غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك وجد أحد من أنفه على ظهر الأرض (٧)

وقال سعيد بن زيد: قرأ رجل عند النبي ﷺ يا أيتها النفس المطمئنة، فقال أبو بكر: ما أحسن هذا يا رسول الله فقال النبي ﷺ: "إن الملك يقول لك يا أبا بكر". (٨)

حيث يوقفنا الشعراوي طويلاً عند وصف النفس بالطمئنة، فيلفت الانتباه إلى أن هذا الوصف ليس مجرد تحميل لفظي جميل، بل هو مؤشر على أن النفس وصلت إلى درجة استئناس داخلي مع الله، بحيث لا تقف عند المظاهر والمخاوف، بل تجاوزت ذلك إلى الأمان الداخلي الصادق الذي يُسلم القلب لكل ما يرتبه الله، لا الخوف، ولا التردد، ولا انتظار السيئات، فالنفس المطمئنة قد تجرعت البلاء أو المحن، لكنها تُدرك حضور الله أمامها بكل خطوة تمر

(١) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٩ - ص ٥٩٢٩

(٢) شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية: مجموع الفتاوى - م ٩ - كتاب المنطق - ط ٢ - ٢٠٠١ م - ص ٢٩٤

(٣) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ١٢ - ص ٧٣١٨

(٤) سورة الفجر: من الآية (٢٧) إلى الآية (٢٨)

(٥) محمد متولي الشعراوي: تفسير جزء عم - دار الراجية للنشر والتوزيع - القاهرة - بدون - ٢٠٠٨ - ص ٣٦٦

(٦) أبي الحسن البصري: النكت والعيون - ج ٦ - دار الكتب العلمية - بيروت - بدون - ٢٠٠٨ - ص ٢٧٢

(٧) الإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي: تفسير البغوي - ج ٨ - دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض - السعودية - ط ٤ - ١٩٩٧ م - ص ٤٢٤

(٨) الإمام الحافظ شمس الدين القرطبي: الجامع لأحكام القرآن - ج ٢٢ - مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع - بيروت - لبنان - ط ١ - ٢٠٠٦ م - ص ٢٨٦

بها، وتجد في ذلك راحة لا تكسر، حيث جاء في قوله تعالى {الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} (١)

يقول الشعراوي " ان إطمئنان القلب هو النتيجة الإيمان بالعقيدة، وقد يمر علي القلب بعض من الأغيار التي تزلزل الإيمان، ونقول له لن تمر به تلك الهواجس من الأغيار: انت لم تعط الربوبية حقها، لأنك انت المولود في أي شيء ينالك" (٢)

إن النفس المطمئنة ليست مجرد وصف شعري، بل هي حالة روحية نابعة من يقين إيماني وتركيز عملية: ثمارها سكون القلب، قوة الصبر، وراحة النفس عند مواجهة الأحوال .

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوتِ الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده" (٣)

رابعاً: النفس السوية: الفطرة المستقيمة:

تعد النفس السوية من المفاهيم المركزية في الفكر الإسلامي، إذ يشير إليها القرآن في قوله تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا} (٤) حيث أقسم الله بالنفس الإنسانية وبمن سواها، أي عدل خلقها وأودع فيها الاستعداد الكامل لقبول الخير والشر .

وقد فسر الإمام الطبري التسوية بأنها إتمام خلق النفس وتهيئتها للفجور والتقوى. (٥)

ويرى الإمام ابن كثير أن الله جل وعلا جعلها مستقيمة معتدلة، أي خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة (٦)

وذهب الإمام الرازي إلى أن تسويتها تعني إمدادها بقوى متوازنة من العقل والشهوة والغضب لتختار الطريق الأقوم في حين أكد القرطبي أن النفس السوية هي المهيأة لقبول الحق .

ونلاحظ أن الإمام الغزالي يستكمل هذا المعنى حين اعتبر أن كمال النفس يتحقق بانقياد قواها للعقل والشرع من غير إفراط أو تفريط، وهو ما عبّر عنه ابن القيم بمفهوم القلب السليم، أي النفس الطاهرة من الشرك والهوى .

ومن ثم ، فالنفس السوية هي النفس التي استقامت على الفطرة، واعتدلت قواها، واطمأنت بذكر الله، وتزكت بالطاعة، لتكون محلاً للنجاة في الدنيا والآخرة.

كما أن "التسوية" عند الشيخ محمد متولي الشعراوي هنا ليست مجرد التوازن الجسدي، بل هي توازن روحي وعقلي وأخلاقي، إذ خلق الله النفس مؤهلة للاختيار بين الفجور والتقوى، وجعل في داخلها بوصلة فطرية تُرشدها إلى الحق إذا لم تُفسد بالشهوات أو الشبهات.

(١) سورة الرعد: أية رقم (٢٨)

(٢) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ١٢ - ص ٧٣١٩

(٣) حديث شريف: أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر - حديث رقم ٢٦٩٩ / وأخرجه كذلك الترمذي في سننه - حديث رقم ٣٣٧٨ (وقال حديث حسن)

(٤) سورة الشمس: أية رقم (٧)

(٥) الإمام الطبري: تفسير الطبري - ج ٢٤ - تحقيق: د. عبدالله بن عبدالحسن التركي - دار هجر للنشر - القاهرة - ط ١ - ٢٠٠١ م - ص ٤٤٠ - بتصرف

(٦) الإمام الحافظ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم - ج ٨ - دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض - السعودية - ط ٢ - ١٩٩٩ م - ص ٤١١ - بتصرف

حيث يُنظر إلى هذه التسوية على أنها عملية تكامل شامل، لا يقتصر على الجانب الجسدي، بل يمتد ليشمل التوازن العقلي والروحي والأخلاقي، فالنفس السوية هي تلك التي وُضعت فيها القوى المتعارضة لتكون مادةً للصراع الداخلي، كي يختار الإنسان بإرادته الحرة طريق الخير على حساب دوافع الشر، ويُفهم من ذلك أن تربية النفس وتركيتها ليست مجرد تهذيب سلوكي، بل هي إعادة ضبط لبوصلة داخلية وُدعت فيها الفطرة المستقيمة.

خامساً: النفس المتعلقة بالله عز وجل: التوجه الروحي:

إن النفس المتعلقة بالله هي النفس التي تتخذُ الله مقصداً وحيداً في وجودها، وتُحرِّك أنفاسها كلها نحو رضاه، لا يُرضيها إلا أن تكون محبة الله هي المحيط بكل شيء: أفكارها، وأفعالها، وخوفها، ورجاؤها، وامتناؤها، وتوجُّهها في الابتلاء والنعمة، هذه النفس لا تكفيها معرفة الله مجردة، بل تتحرَّك نحو التجسيد العملي لهذه المعرفة، فتجد نفسها إذا صلَّت تتجه لله بخشوع، وإذا دَعَتْ تستجيب به بخشوع القلب، وإذا فتحت عينيها في صباحها تُحمِّده، وإذا نزل عليها الليل تُغكِّر في أمور الآخرة، تُحسُّ بأن الله يُشاهدها ويسمعها، وهذا الوعي يهيئها لخشية وقرب واطمئنان.

إن النفس المتعلقة بالله هي الحالة التي تستقر فيها النفس البشرية على حب الله تعالى فوق كل محبوب، وتعلق القلب به وحده دون سواه، مع شعور عميق بالفناء في إرادته والرضا بقضائه .

يقول ابن القيم رحمه الله: أربع مواطن تبين مقدار تعلق القلب بالله، أحدها: عند أخذ مضجعه وتفرغ حواسه وجوارحه عن الشواغل، وعند انتباهه من النوم، فأول شيء يسبق إلى قلبه ذكر محبوبه، وعند دخوله في الصلاة. (١)

ويُجسِّد الشعراوي النفس المتعلقة بالله كتوجه روحي قائم على التحرر القلبي من عبودية الخلق إلى عبودية الخالق عز وجل، حيث يرى أن هذا التعلق هو جوهر التوحيد العملي، ففي تفسيره، يربط بين تعلق النفس بالله وتحقيق السكينة في زمن الفتن، مؤكداً أن من يستشعر رقابة الله في سره وعلايته يعيش في حالة استتارة تُبَدِّد ظلمات الشك والقلق ، ، ذلك لما جاء في قوله تعالى {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} (٢) ، حيث يطمئن القلب بذكر الله ويتعلق به. (٣)

إن التوجه الروحي عند هذه النفس يعني أن يكون حضور الله شعوراً متواصلاً، ليس فقط في اللحظات التعبدية، بل يُخلِّق حالة وجود: أي أن تُعاش النفس كونها عبداً له، وأن تحسَّ في أدقِّ أمورها أن الله مطلعٌ، وأن تُراعي الأثر في نفسها من كل أمر، وأن تُحدِّث ذاتها إذا قصَّرت، وأن تُسارع للتوبة، وأن تشاقق الليلة يرضى فيها عنها ربها، أو لقاءه، إنها نفس لا تكتفي بما يُقال من ألفاظٍ ، بل تطالبُ التحقق من المعنى في القلب والسرائر، في الطاعة الخفية والعلانية، في الخضوع والمراقبة.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال: يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على

(١) ابن القيم الجوزية: طريق المحترمين وباب السعادتین - م ١ - دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع - مكة المكرمة - السعودية - ط ١ - ٢٠٠٨ م - ص ٣٠٦

(٢) سورة الرعد: آية رقم (٢٨)

(٣) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ١٢ - ص ٧٣٢٠

أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف" (١)

نستخلص مما ذكره الشيخ الشعراوي أن الذكر الخالص والرضا بالقضاء هما عمودا هذا التوجه، فالذاكر الله بقلبه يُحوّل الطاعات إلى لذة روحية تسمو فوق المتع الدنيوية، كما يرى أن التعلق بالله يُحرّر الإنسان من الخوف من المخلوقين، فيستشعر معية الله في كل لحظة، مما ينعكس على سلوكه بالثبات عند الشدائد والرضا بالقليل من الرزق، ويختتم بأن هذا التوجه ليس رهبانية، بل هو حياة متوازنة تجمع بين العمل الدنيوي والاستعداد الآخروي، حيث يكون الله هو الغاية والوسيلة، ويؤكد هذا ما ذكره بقوله " من عرف الله لم يتعلق قلبه بغير الله "

سادساً: النفس المتأملّة: التفكير في الخلق:

يمثل التفكير في الخلق عند الشعراوي ركيزة محورية للنفس المتأملّة، حيث يحوله من مجرد تأمل فلسفي إلى عبادة قلبية تطلق العقل من أسر المادية ليدرك حكمة الخالق، حيث ان التأمل والتفكير في خلق الله عز وجل إنما هو نشاط روحي عقلي يُحرّك النفس للتأمل في مظاهر الكون حولها: السماء والأرض، الليل والنهار، الكواكب، الأنفس البشرية، فيرى أن آيات الكون - من الذرة إلى المجرة - ليست ظواهر طبيعية فحسب، بل نصوص إلهية مفتوحة تحتاج إلى التأمل والتدبر بإيمان خالص.

يقول الشيخ الشعراوي: "إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يبني التصور الإيماني على جذور ثابتة في النفس البشرية، لأن الإنسان الذي يفاجأ بهذا الكون، وفيه سماء بهذا الشكل: بلا عمد، وتحتها الكواكب، وأرض مستقرة، بالله ألا يفكر فيمن صنع هذا؟ والله لو أن واحدا استيقظ من نومه ووجد سرادقا قد نصب في الميدان ليلا لوقف ليسأل: ما الحكاية؟ فما بالنا بواحد فتح عينيه فوجد هذا الكون المنتظم الذي يعطيه أسباب الحياة؟" (٢)

هذا المنهج يربط بين التفكير الإسلامي والفلسفة في البحث عن "العلة الأولى" لكنه يفارقها بجعل الغاية ليست المعرفة المجردة، بل الغاية هي "التقوى" كثمرة للتفكير والتأمل، ولقد جاء في قوله تعالى {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} (٣)

يرى الشعراوي أن التفكير هنا هو : استيقاظ للنفس لكي ترى أن خلق السماوات والأرض ليس عبثاً، وأنه خلق على نظام وحكمة في سنن وقوانين، وأن هذه السنن تدعو المؤمن ليعمر قلبه بما يليق من خشيةٍ وحبٍّ وامتنان .

(١) حديث شريف: رواه الترمذي - الجامع - كتاب صفة القيامة والرقائق والورع - باب ما جاء في حفظ الله - حديث رقم ٢٥١٦ / رواه أحمد بن حنبل في

مسنده - حديث ابن عباس رضي الله عنهما - حديث رقم ٢٦٦٩

(٢) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ١٩ - ص ١٩٤٦

(٣) سورة آل عمران: آية رقم (١٩٠ - ١٩١)

كما يربط بين نظريات العلم الحديث كالانفجار الكبير وآية {أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمُوتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} (١)، ليؤكد أن التفكير الإسلامي سبق العلم في اكتشاف أسرار الكون، لكنه يرفض أن يكون العلم بديلاً عن الإيمان، بل أداة لتعميق اليقين.

وفي هذا السياق، يجعل التفكير جسراً بين عالمي الغيب والشهادة، حيث تتحول مشاهدات الطبيعة إلى "شهود" على عظمة الخالق، فينتقل الناظر من التفكير في "كيف" الخلق إلى "لماذا" الخلق، وهو ما يميز النفس المتأملّة في فكره؛ فهي لا تكتشف قوانين الطبيعة فقط، بل تُدرك وراءها "إرادة حكيمة" و"غاية عليا"، فيصبح الكون مرآة تعكس صفات الله - كالقدرة والحكمة - لا مجرد آلة صماء.

الشعراوي أيضاً يربط بين التفكير والاستتارة القلبية، حيث يبين أن من يتأمل في خلق الله يُدرك أن كل ظاهرة فيه عالم صغير يُنبه الإنسان إلى أن وجوده هو أيضاً آية، وأن داخله أسراراً لم تكشف بعد، وأن العلم الحديث يكشف بعضها، لكن لا ينهي المهمة، فالتفكير يُبقي النفس حيّة متيقظة، لا غافلة، لا تتخدد بظاهر الأشياء، بل تطالب المعنى وراء المظهر، فيقول رحمه الله: "حين تتأمل السماء والأرض تجد دقة الخلق، فكأنه سبحانه قد جعل نفسك مقياساً، إنك ستعلم أحوالها تباعاً، وأنتك ستُهدّي مع الأيام، إلى سر جديد في هذه النفس، هذا السر لم يعرفه الأولون، لكنك حين تتقدم في البحث العلمي وآلات السبر وآلات الاختبار تتعرف وتكتشف هذا الجديد" (٢)

سابعاً: النفس المتواضعة: الخشوع لله :

يُمثل الخشوع لله عند الشعراوي ذروة التجلي الروحي للنفس المتواضعة، حيث ينتقل من سلوك ظاهري إلى حالة قلبية تذوب فيها "الأنا" أمام عظمة الخالق، حيث يرى أن الخشوع ليس مجرد انكسار جسدي في الصلاة، بل "استسلام الوجود كله" لله عز وجل، في تفسيره لقوله تعالى {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} (٣) يقول الشيخ الشعراوي: "والخشوع يجعل الإنسان يستحضر عظمة الحق سبحانه، ويعرف ضالة قيمته أمام الحق سبحانه وتعالى، ومدى عجزه أمام خالق هذا الكون، ويعلم أن كل ما عنده يمكن أن يذهب به الله تعالى في لحظة، ذلك أننا نعيش في عالم الأغيار، ولذلك فنخضع للذي لا يتغير، لأن كل ما يحصل عليه الإنسان هو من الله وليس من ذاته، والذين يغترون بوجود الأسباب نقول لهم: اعبدوا واخشعوا لواهب الأسباب وخالقها، لأن الأسباب لا تعمل بذاتها، والله سبحانه وتعالى يجعل الأيام دولا - أي متداولة بين الناس - إنسان يفاخر بقوته، يأتي من هو أقوى منه فيهزمه، إنسان يفاخر بماله، يضيع هذا المال في لحظة" (٤) حيث إن الخشوع هو القبول بعلو الله، والخضوع لمن ترى أنه فوق كل شيء، أن يُستعمل الإنسان ما عنده من مواهب وقدرات دون تعالي، وأن يكون قوام عمله أن يرتضي رضا الله، لا أن يفاخر بقدراته عند الناس.

(١) سورة الأنبياء: آية رقم (٣٠)

(٢) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٦ - ص ٣٧٢٦

(٣) سورة البقرة: آية رقم (٤٥)

(٤) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ١ - ص ٣٠٩

يتبين لنا من خلال ما تم ذكره أن من أقوى ما يربط بين النفس المتواضعة والخشوع ، إن الله تعالى يحب أن يقبل إليه العبد طائعا خاضعا ، يغتنم الصبر والصلاة كوسيلتين للخضوع الحقيقي ، فالصلاة تعلم النفس أن تنزل ما عندها من كبرياء أو أنانية ، وأن تكون خاشعة بين يدي الرحمن ، والخشوع في هذا المعنى هو تربوية للنفس ، تجعلها أن تعرف مقامها ، ولا تنساه بين علو وعسر ، بين يسر وشدة ، فتكون الحياة كلها عبادة ، والقلب خاشعا ، واللسان رادعا ، والسلوك متواضعا ، لا من أجل المظاهر ولكن لأجل الحق ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله" (١)

ثامنا : النفس الصابرة : الثبات على الإبتلاء :

يُعتبر الابتلاء في العقيدة الإسلامية سنة من سنن الله سبحانه وتعالى في خلقه ، وهي آلية لتحقيق المقاصد الشرعية وامتحان لقلوب المؤمنين ، حيث يهدف الابتلاء إلى تمييز الصادق من المنافق ، القوي من الضعيف ، فهي تلك النفس المؤمنة التي تتحلى بقوة داخلية تمكنها من الثبات والاحتساب عند نزول الابتلاءات بأنواعها دون جزع أو تسخط . وقد رفع القرآن من شأنها فجعلها سببا للفلاح ، ومحبة الله عز وجل ، والمعية الإلهية والأجر بغير حساب كما في قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَاعْلَمُوا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (٢) وقوله تعالى {وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} (٣) والثبات في الابتلاء إنما يكون بتوافر عدة عناصر :

أولها : الصبر ، الذي هو حبس النفس عن الجزع ، والسكوت على ما تكره ، وتحمل الأذى بصدرٍ رحب .

ثانيًا : الإيمان الكامل بالقضاء والقدر ، أي الاعتقاد بأن ما أصاب الإنسان لم يزل من علم الله ، وليس إلا ما قدره الله وأنه لا يصيب الإنسان إلا ما كتب له .

ثالثًا : القناعة والرضا ، أي ألا يكون هناك مقاومة باطلة ضد ما كتبه الله ، بل قبول قلبي مطمئن ، يستمد سكينته من اليقين بأن الله حكيم لا يضيع عبده الصابر .

رابعًا : الاستعانة بالله بالدعاء والذكر والرجوع إليه ، فهذه الوسائل تُعين على تحمل المصائب ، والتماس الجزاء والثواب يرى الشيخ الشعراوي أن الابتلاء ليس شراً بالمعنى المطلق ، بل هو جزء من حكمة إلهية لتربية النفس ، وموعد لاختبار الإيمان ، وصقل للروح ، فالنفس التي تثبت عند الابتلاء تُظهر صورة الحقيقة في العقيدة ، حيث الصبر كالكساء الذي يقي النفس من البرد والبلاء ، ويُعليها إلى منازل لا يصل إليها من يجزع عند أول موجة من البلاء ، فجاء في قوله تعالى {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} (٤)

(١) حديث شريف: رواه مسلم في صحيحه - كتاب البر والصلة والآداب - باب استحباب العفو والتواضع - حديث رقم ٢٥٨٨ / ورواه الترمذي في سننه - كتاب

البر والصلة - باب ما جاء في التواضع - حديث رقم ٢٠٢٩ ، وقال: حديث حسن صحيح

(٢) سورة آل عمران: أية رقم (٢٠٠)

(٣) سورة آل عمران: أية رقم (١٤٦)

(٤) سورة البقرة: أية رقم (١٥٥)

يقول الشيخ الشعراوي : " نعرف أن مجرد الابتلاء ليس شراً ، ولكن الشر هو أن تسقط في الابتلاء ، فكل ابتلاء هو اختبار وامتحان ، ولم يقل أحد: إن الامتحانات شر ، إنها تصوير شرّاً من وجهة نظر الذي لم يتحمل مشاق العمل للوصول إلى النجاح ، أما الذي بذل الجهد وفاز بالمركز الأول ، فالامتحانات خير بالنسبة له ، إذن فقوله الحق : {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ} أي سنصنع لكم امتحاناً يصفى البطولة للعقيدة الجديدة " . (١)

ولقد ذكر سبحانه وتعالى أن قمة الابتلاءات هي أن ينال الإنسان الشهادة في سبيل الله ، ولقد ذكر فضل الشهادة في سبيله عز وجل ، فإن قمة الابتلاء عند الإنسان في ادراكه هو فقد الحياة ، ولكنه سبحانه وتعالى قد أعطي للمؤمن مناعة من الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات .

يقول الشعراوي رحمه الله : " وكل ما دون حياة الفرد هو أمر ترفي بالنسبة لفقد الحياة نفسها ، فمن لم يفقد حياته ، فستأتي له ابتلاءات فيما دون حياته وهي ابتلاءات الخوف والجوع ونقص الأموال ، ونقص في عدد الأخوة المؤمنين ، وكذلك نقص في الثمرات ، وكل هذه أشياء يحبها الإنسان ، ويأتي التكليف ليطلب من المؤمن أن يترك بعضاً مما يحب ، وتلك الابتلاءات تدخل في نطاق بقاء التكليف " (٢) .

النفس الصابرة عند الشعراوي ليست من تحمل الصبر ظاهرياً فقط ، بل من تصبر من القلب ، من النفس ، من العجز ، من الاختيار ، من النزاع الداخلي ، من الخوف ، من الجوع ، من الضائقة ، وتظل ثابتة رافعة ذهنها إلى الله سبحانه وتعالى وطامحة إلى الجزاء ، مستبشرة بالخير بعد الصبر ، متيقنة أن الابتلاء إنما فضل لمن صبر ، وأن الله مع الصابرين ، هذه النفس التي لا تغتر بسهولة أو ضعفها ، بل تستمد منها قوة واستقامة ، وعلاقة حية بدينها وربها .

تاسعاً: النفس الشاكرة: الإعراف بالنعمة:

النفس الشاكرة في القرآن الكريم هي تلك النفس المؤمنة التي تعترف بجميل الله عليها وتُظهر هذا الاعتراف قلباً ولساناً وجوارح .

فالشكر لغة هو الظهور والإعلان ، يقال : شكرتُ الله :- أي أظهرت نعمته .

واصطلاحاً : هو عبادة القلب بالاعتراف بنعمة المنعم مع الثناء عليه ومحبته .

يرى الشيخ متولي الشعراوي أن اعتراف النفس بالنعمة من أبرز المراتب الروحية التي تُظهر مدى ارتباط العبد بخالقه ، فالنفس الشاكرة ليست التي تحمد الله فقط لفظياً ، بل هي التي تتذكر النعم ، وتُقر بها قلباً ، وتستخدمها في طاعةٍ وشكرٍ ، ولا تغتر بها أو تنسها بمجرد الغياب أو النقصان ، حيث وقد قرن الله الشكر بالإيمان في قوله تعالى {أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٍ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} (٣) وجعله سبباً لزيادة النعم ودفع النقم لقوله تعالى {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} (٤) حيث يقول الشعراوي رحمه الله : " وهكذا يكون معنى الآية : أني

(١) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٢ - ص ٦٥٩

(٢) محمد متولي الشعراوي: المصدر نفسه

(٣) سورة سبأ: آية رقم (١٣)

(٤) سورة إبراهيم: آية رقم (٧)

أعلمكم بتوكيد من ربكم أنكم إن شكرتم ليزيدنكم من نعمه وعطائه، لأن الشكر دليل ارتباط بالوهاب، وأنكم سلختم أنفسكم من الاعتزاز بما أوتيتهم، وعلمتم أنه هو وحده الوهاب" (١) وتتجلى حقيقة الشكر في ثلاثة أركان :

أولاً : شكر القلب بإدراك أن النعم من الله وحده دون شريك لقوله تعالى {وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَرُونَ} (٢)

ثانياً : شكر اللسان بالثناء والحمد والدعاء لقوله تعالى {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (٣)

ثالثاً : شكر الجوارح باستخدام النعم في طاعة الله كالإنفاق من المال لقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (٤)

يشير الشعراوي إلى أن الاعتراف بالنعم يتجلى أيضاً في حسن توظيفها، حيث أن تُستخدم النعمة في فعل الخير، في خدمة الآخرين، في الطاعة، وفي تحسين الذات، فالشكر لا يكفي بالقول، بل يُمارس بالفعل، بأن تُعطي مما وهبك، بأن تبذل ولا تحتسب، بأن تكون وسيلة لبركة لنفسك وللناس من حولك، هذا الفعل هو الذي يكمل الاعتراف الحقيقي، فالقلب الذي يشكر ينطلق باليد ليعبر عما في القلب .

وقد ضرب الله نماذج خالدة للنفس الشاكرة كسيدنا إبراهيم عليه السلام الذي شكر الله على الولد في الكبر لقوله تعالى {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ} (٥)

وسيدنا سليمان عليه السلام الذي شكر الله عز وجل على الملك فقال {هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۚ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} (٦)

وأم سيدنا موسى التي شكرت الله على نجاة ابنها لقوله تعالى {فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ} (٧) يؤكد الشيخ الشعراوي أن النفس الشاكرة هي تلك التي تدرك أن كل نعمة من الله لها عنوان، أن الله هو المنعم، وأنها لا تستحق منها شيئاً إلا برحمته وفضله، فتتشأ حالة من الامتنان الدائم، تُولد السكينة على القلب، وتُحفز الإنسان على أعمال الشكر والتقدير، بما يعكس الامتداد العملي للاعتراف بالنعم في حالة التواضع، الشكر، والعمل الصالح، وهي علاج لأمراض القلب كالكبر والجحود فالشكر يذيب حواجز الغرور ويربط العبد بخالقه مباشرة، ويؤكد أن الشكر ليس مجرد كلمات بل منهج حياة يبدأ من تفاصيل اليوم كشكر الله على لقمة الطعام وشجرة الماء، لقوله تعالى {فَانظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ} (٨) وصولاً إلى النعم الكبرى كالإيمان والصحة.

(١) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ١٢ - ص ٧٤٤٦

(٢) سورة النحل: آية رقم (٥٣)

(٣) سورة الفاتحة: آية رقم (٢)

(٤) سورة المنافقون: آية رقم (١٠)

(٥) سورة إبراهيم: آية رقم (٣٩)

(٦) سورة النمل: آية رقم (٤٠)

(٧) سورة القصص: آية رقم (١٣)

(٨) سورة الانعام: آية رقم (٩٩)

بعد هذا التتبع المتأنى لأقسام النفس وصفاتها في تفسير الشيخ محمد متولي الشعراوي، يتجلى لنا بوضوح عمق الرؤية القرآنية التي قدمها هذا العالم الجليل في فهم النفس الإنسانية، ولقد استطاع الشعراوي -بمنهجه الفريد- أن يربط بين النصوص القرآنية والأبعاد النفسية والتربوية، مبرزاً كيف أن القرآن لا يكتفي بتشخيص حالات النفس، بل يقدم العلاج الشامل من خلال التزكية والتربية الإيمانية.

لقد قدم الشيخ الشعراوي رحمه الله رؤية متكاملة تجمع بين الفطرة السليمة والتأمل العقلي والعبادة القلبية، معتبراً أن النفس الإنسانية قابلة للارتقاء من حالة الأمارة بالسوء إلى المقامات العليا من الطمأنينة والرضا، ومن خلال استقراء تفسيره نجد أنه أولى اهتماماً خاصاً للجوانب العملية في تزكية النفس، معتمداً على القرآن الكريم والسنة النبوية كمصدرين أساسيين للهداية والتوجيه .

الفصل الثاني

أمراض ومعوقات تزكية النفس في فكر الشعراوي

تمهيد :

سوف نستعرض في هذا الفصل ثلاث مباحث

المبحث الأول : تزكية النفس بين المحمود والمذموم :- وفي هذا المبحث نستعرض معايير التمييز بين التزكية المحمودة والتزكية المذمومة ، وتتبع الوسائل الموصلة للمحمود والمذموم ، مع الموازنة بين ما تم طرحه من خلال فكر الشيخ محمد متولي الشعراوي وغيره من مفكري وعلماء المسلمين .

المبحث الثاني : الغفلة والهوى والتقليد الأعمى :- إن تزكية النفس غاية سامية وركيزة أساسية في بناء شخصية المسلم، غير أن الطريق إليها محفوف بالعقبات والأمراض التي تُضعف أثرها وتُعيق مسيرتها ، وقد نبه القرآن الكريم والسنة النبوية إلى جملة من هذه الأمراض التي تعترض القلب، وتثقل الروح وتمنعها من صفاء العبودية والخشوع، ومن أبرزها: الغفلة والهوى والتقليد الأعمى الذي يُطفئ نور البصيرة ويعطل نعمة التفكير السليم.

ونود استعراض ما طرحه الشيخ محمد متولي الشعراوي من معالجة لهذه الأمراض وتلك المعوقات بالشرح والتفصيل لوضع العلاج النافع والشفاء الدائم المستنبط من القرآن والسنة النبوية ، لما تمثله هذه المعوقات من غلق لمنافذ الهداية والعمل الصالح والسلوك الأخلاقي القويم .

المبحث الثالث : تخلية النفس من الرذائل والأخلاق الذميمة :- في هذا المبحث نستعرض ما سطره الشيخ محمد متولي الشعراوي حول ضرورة تخلية النفس تخليصها أولاً من الرذائل والأخلاق المذمومة ، وتخلية القلب من المزالق التي تبعد الإنسان عن جادة الحق وتجعل نفسه أسيرة لشهواتها ونزواتها ، وتهياة النفس للتطهير والرجوع إلى الله والتخلي بمكارم الخلاق .

المبحث الأول

تزكية النفس بين المحمود والمذموم

تتأرجح تزكية النفس بين المحمود والمذموم في الفكر الإسلامي ، فالنوع المحمود هو تطهير النفس من الرذائل وتميئتها بالصفات الحسنة كالإيمان والصدق ، وهو أساس الفلاح في الدنيا والآخرة ، بينما المذموم هو مدح الإنسان لنفسه وثناؤه عليها دون وجه حق ، مما يجعله عرضة للكبر والغرور ، وهذا ما نهى عنه القرآن الكريم والسنة النبوية يقول الإمام ابن كثير في تفسير قوله تعالى {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ} أي تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم {هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} كما قال تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا} (١) يقول الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ} أي لا تمدحوها ولا تُثَنُّوا عليها ، فإنه أبعد من الرياء وأقرب إلى الخشوع ، وقال ابن عباس : ما من أحدٍ من هذه الأمة أزيه غير رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) .

ويطرح الإمام القرطبي ثلاث مسائل في تفسير لقول الله تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ} الأولى : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ} هذا اللفظ عام في ظاهره ولم يختلف أحد من المتأولين في أن المراد اليهود ، واختلفوا في المعنى الذي زكوا به أنفسهم :

قال قتادة والحسن : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وقولهم : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى .

وقال الضحاك والسدي : قولهم لا ذنوب لنا وما فعلناه نهاراً غفر لنا ليلاً وما فعلناه ليلاً غفر لنا نهاراً ، ونحن كالأطفال في عدم الذنوب .

وقال مجاهد وأبو مالك وعكرمة : تقديمهم الصغار للصلاة لأنهم لا ذنوب عليهم ، وهذا يبعد عن مقصد الآية .

وقال ابن عباس : ذلك قولهم آباؤنا الذين ماتوا يشفعون لنا ويذكوننا .

وقال عبد الله بن مسعود : ذلك ثناء بعضهم على بعض ، وهذا أحسن ما يقيل فإنه الظاهر من معنى الآية .

والتزكية : التطهير والتبرئة من الذنوب .

الثانية : {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ} يقتضي الغض عن المزكي لنفسه بلسانه ، والاعلام بأن الزاكي المزكى من حسنت أفعاله وزكاه الله عز وجل ، فلا عبرة بتزكية الإنسان نفسه ، وإنما العبرة بتزكية الله له .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَطَاءٍ قَالَ : سَمِعْتُ ابْنَتِي بَرَّةَ ، فَقَالَتْ لِي زَيْنَبُ بِنْتُ أَبِي سَلَمَةَ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ هَذَا الْإِسْمِ ، وَسَمِعْتُ بَرَّةَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ ، فَقَالُوا : بِمَ نُسَمِّيَهَا؟ فَقَالَ : سَمُّوَهَا زَيْنَبَ .

فقد دل الكتاب والسنة على المنع من تزكية انفسان نفسه " (٣)

(١) سورة النساء : أية رقم (٤٩)

(٢) ابي عبد الله محمد بن احمد بن ابي بكر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن - م ١٧ - ص ١١٠ .

(٣) الإمام القرطبي : المرجع السابق - م ٥ - ص ٢٤٦ .

مما لاشك فيه أن الحق سبحانه وتعالى هو المطهر للنفوس ، والمزكي لها بهدايته وتوفيقه، ولهذا نسبت التزكية إليه سبحانه وتعالى في قوله { بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ } (١)

يقول الدكتور محمد سيد طنطاوي في تفسيره لقول الله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ } والرؤية: إما بمعنى الإبصار: أي ألم تنظر إليهم، وإما بمعنى الإدراك القلبي متضمناً معنى الوصول والانتهاء: أي ألم ينته علمك إليهم. والاستفهام في قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ } للتعجب من أحوالهم، والتهوين من شأنهم، حيث بالغوا في مدح أنفسهم مع أنهم كاذبون في ذلك ، فهم يصفون أنفسهم بالأفعال الحسنة، ويمدحونها مدحاً كثيراً، مع أنهم لا يستحقون إلا الذم بسبب سوء أقوالهم وأفعالهم (٢).

ومن صور التزكية المذمومة ما ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى { وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى } (٣) لأن ذلك هو أظهر معانيه، لإخبار الله عنهم أنهم إنما كانوا يزكون أنفسهم دون غيرها. فالمراد بتزكيتهم أنفسهم: ادعائهم الطهارة عن المعاصي والردائل، وهذا يدل على إدعائهم الصلاح ، لكن الحق سبحانه وتعالى يبطل معتقدتهم وإدعائهم بإثبات ضده ، فيقول تعالى { بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ } وهذا إضراب وإعراض عن قولهم (٤).

فهذه الآية تقتضي الغض من المزكي لنفسه بلسانه، والإعلام بأن الزاكي المزكى من حسنت أفعاله وزكاه الله عز وجل، فليدع العباد تزكية أنفسهم، ويفوضوا أمر ذلك إلى الله سبحانه وتعالى، فإن تزكيتهم لأنفسهم مجرد دعاوى فاسدة، تحمل عليها محبة النفس، وطلب العلو، والترفع والتفاخر .

قال الإمام الرازي عند تفسيره لقول الله تعالى { فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى } (٥) لما بالغ اليهود في تزكية أنفسهم، أي: أثتوا على أنفسهم بما ليسوا هم له بأهل، ذكر الله تعالى في هذه الآية أنه لا عبرة بتزكية الإنسان نفسه، وإنما العبرة بتزكية الله له، لأن التزكية متعلقة بالتقوى ، والتقوى صفة في الباطن ، ولا يعلم حقيقتها إلا الله ، فلا جرم لا تصلح التزكية إلا من الله ، وفي هذا دلالة على أن الإيمان يحصل بخلق الله تعالى ، لأن أجل أنواع الزكاة والطهارة وأشرفها هو الإيمان ، فلما ذكر الله تعالى أنه هو الذي يزكي من يشاء، دل على أن إيمان المؤمنين لم يحصل إلا بخلق الله تعالى .

(١) سورة النساء : أية رقم (٤٩ - ٥٠)

(٢) د. محمد سيد طنطاوي : التفسير الوسيط - م ٣ - ص ١٧٩

(٣) سورة البقرة : أية رقم (١١١)

(٤) أبي جعفر محمد بن جرير الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن - م ٨ - ص ٤٥٥

(٥) سورة النجم : أية رقم (٣٢)

وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَقَالَ : عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الثَّالِثُ إِنَّهُ إِرْشَادٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، فَخَاطَبَهُمُ اللَّهُ وَقَالَ : هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، عَلِمَ مَا لَكُمْ مِنْ أَوَّلِ خَلْقِكُمْ إِلَى آخِرِ يَوْمِكُمْ ، فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ رِيَاءً وَخِيَلَاءً ، وَلَا تَقُولُوا لِآخَرِ أَنَا خَيْرٌ مِنْكَ وَأَنَا أَزْكَى مِنْكَ وَأَنْتَقَى ، فَإِنَّ الْأَمْرَ عِنْدَ اللَّهِ ، وَوَجْهٌ آخَرٌ وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى وَجُوبِ الْخَوْفِ مِنَ الْعَاقِبَةِ ، أَيْ لَا تَقْطَعُوا بِخَلَاصِكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ عَاقِبَةَ مَنْ يَكُونُ عَلَى النَّقَى ، وَهَذَا يُؤَيِّدُ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ : أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لِلصَّرْفِ إِلَى الْعَاقِبَةِ (١)

وَإِذَا مَا انْتَقَلْنَا إِلَى تَرْكِيبَةِ النَّفْسِ بَيْنَ الْمَحْمُودِ وَالْمَذْمُومِ فِي فِكْرِ الْإِمَامِ بَدِيعِ الزَّمَانِ سَعِيدِ النُّورِ ، نَرَى أَنَّهُ تَحَدَّثَ عَنْ ذَلِكَ فِي كِتَابِ الْكَلِمَاتِ وَالْمَكْتُوبَاتِ وَالْمَثْنَوِي الْعَرَبِيِّ النَّوْرِيِّ (٢) مِنْ خِلَالِ الْخُطُوبَاتِ التَّالِيَةِ :

الخطوة الأولى : كما تشير إليها الآية الكريمة {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ} وهي عدم تركيبة النفس ، ذلك لأن الإنسان حسب جبلته وبمقتضى فطرته محب لنفسه بالذات ، بل لا يحب إلا ذاته في المقدمة ، ويضحى بكل شيء من أجل نفسه ، ويمدح نفسه مدحا لا يليق إلا بالمعبود وحده ، وينزه شخصه ويبرئ ساحة نفسه ، بل لا يقبل التقصير لنفسه أصلاً ويدافع عنها دفاعاً قوياً بما يشبه العبادة ، حتى كأنه يصرف ما أودعه الله فيه من أجهزةٍ لحمده سبحانه وتقديسه إلى نفسه ، فيصيبه وصف الآية الكريمة {مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} (٣) فيعجب بنفسه ويعتد بها ، فلا بد إذن من تركيتها ، فتزكيته في هذه الخطوة وتطهيرها هي بعدم تركيتها .

الخطوة الثانية : كما تلقنه الآية الكريمة من درس {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ} (٤) وذلك : أن الإنسان ينسى نفسه ويغفل عنها ، فإذا ما فكر في الموت صرفه إلى غيره ، وإذا ما رأى الفناء والزوال دفعه إلى الآخرين ، وكأنه لا يعنيه شيء ، إذ مقتضى النفس الأمانة أنها تذكر ذاتها في مقام أخذ الأجرة والحظوظ وتلتزم بها بشدة ، بينما تتناسى ذاتها في مقام الخدمة والعمل والتكليف ، فتزكيته وتطهيرها وتربيتها في هذه الخطوة هي العمل بعكس هذه الحالة ، أي عدم النسيان في عين النسيان ، أي نسيان النفس في الحظوظ والأجرة ، والتفكير فيها عند الخدمات والموت .

والخطوة الثالثة : هي ما ترشد إليه الآية الكريمة : {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} (٥) وذلك : أن ما تقتضيه النفس دائماً أنها تنسب الخير إلى ذاتها ، مما يسوقها هذا إلى الفخر والعجب ، فعلى المرء في هذه الخطوة أن لا يرى من نفسه إلا القصور والنقص والعجز والفقر ، وأن يرى كل محاسنه

(١) الإمام فخر الدين الرازي : تفسير مفاتيح الغيب - م ٤ - ص ١٢٣

(٢) الإمام بديع الزمان سعيد النورسي : الكلمات - تحقيق : إحسان قاسم الصالحى - دار سوزلر - القاهرة - ٢٠٠٨ - ذيل الكلمة السادسة والعشرون -

ص ٥٤٩ / وأنظر : المثنوي العربي النوري : ص ٣٣٥ / وانظر المكتوبات : المكتوب التاسع والعشرون - القسم التاسع - ص ٥٨٦

(٣) سورة الفرقان : آية رقم (٣٤)

(٤) سورة الحشر : آية رقم (١٩)

(٥) سورة النساء : آية رقم (٧٩)

وكمالاته إحسانا من فاطره الجليل، ويتقبلها نعماً منه سبحانه ، فيشكر عندئذ بدل الفخر، ويحمده بدل المدح والمباهاة .

فتزكية النفس في هذه المرتبة هي في سر هذه الآية الكريمة {قَدْ أَلَحَّ مَنْ زَكَّاها} (١) وهي أن تعلم بأن كمالها في عدم كمالها، وقدرتها في عجزها ، وغناها في فقرها، أي كمال النفس في معرفة عدم كمالها ، وقدرتها في عجزها أمام الله ، وغناها في فقرها إليه .

الخطوة الرابعة : هي ما تعلمه الآية الكريمة {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} (٢) ذلك لأن النفس تتوهم نفسها حرة مستقلة بذاتها ، لذا تدعى نوعاً من الربوبية، وتضمّر عصياناً حيال معبودها الحق ، فبادراك الحقيقة الآتية ينجو الإنسان من ذلك ، وهي أن كل شيء بحد ذاته وبمعناه الاسمي : زائل ، مفقود ، حادث ، معدوم ، إلا أنه في معناه الحرفي ، وبجهة قيامه بدور المرآة العاكسة لأسماء الصانع الجليل ، وباعتبار مهامه ووظائفه : شاهد ، مشهود ، واجد ، موجود .

فتزكيتها في هذه الخطوة هي معرفة أن عدمها في وجودها ووجودها في عدمها ، أي إذا رأت ذاتها وأعطت لوجودها وجوداً ، فإنها تغرق في ظلمات عدم يسع الكائنات كلها .

يعني إذا غفلت عن موجدتها الحقيقي وهو الله ، مغتررة بوجودها الشخصي، فإنها تجد نفسها وحيدة غريقة في ظلمات الفراق والعدم غير المتناهية، كأنها اليراعة في ضيائها الفردي الباهت في ظلمات الليل البهيم .

ولكن عندما تترك الأنانية والغرور وترى نفسها حقاً أنها لا شيء بالذات ، وإنما هي مرآة تعكس تجليات موجدتها الحقيقي ، فتظفر بوجود غير متناه ، وتربح وجود جميع المخلوقات .

نعم ، من يجد الله فقد وجد كل شيء ، فما الموجودات جميعها إلا تجليات أسمائه الحسنی جل جلاله . (٣)

وحين نستعرض ما سطره الشيخ الشعراوي في تفسيره (٤) لقول الله تعالى {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُورُونَ أَنْفُسَهُمْ}

والتركية هي أولاً : التطهير من المعاييب ، وهذا يعني سلب النقيصة ، وبعد ذلك إيجاب كمالات زائدة فيها نماء والتركية التي زكوا بها أنفسهم - أي اليهود - أنهم قالوا {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} (٥)

وجاء الرد عليهم في هذه القضية بقوله الحق { قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ} (٦)

يعني : إن كنتم أحبائه وأبناءه فلماذا يعذبكم؟ إذن فهذه قضية باطلة، ثم ما فائدة أن تقولوا لنا ؟ أنملك لكم شيئاً ؟ إذا كنتم تكذبونها على من يملك لكم كل شيء وهو الله سبحانه وتعالى ، فما لنا نحن بكم ؟

(١) سورة الشمس: أية رقم (٩)

(٢) سورة القصص: أية رقم (٨٨)

(٣) الإمام بدیع الزمان سعید النورسي : الكلمات - ذیل الكلمة السادسة والعشرون - ص ٥٤٩ - ٥٥٢ / وأنظر : المتنوي العربي النوري : ص ٣٣٥ - ٣٣٧ /
وانظر المکتوبات : المکتوب التاسع والعشرون - القسم التاسع - ص ٥٨٦ - ٥٨٨ .

(٤) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٤ - ص ٢٣١١ -

(٥) سورة المائدة : أية رقم (١٨)

(٦) سورة المائدة : أية رقم (١٨)

ثم يبين الشيخ الشعراوي بأن التزكية التي فعلوها أنهم مدحوا أنفسهم بالباطل - أي مدح مذموم - وبرأوا أنفسهم من العيوب وادعوا أنهم أبناء الله وهم ليسوا أبناء الله وليسوا أحبائه .
وقالوا أيضاً { لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى } (١)

وتلك أيضاً قضية باطلة، وهنا نسأل : هل إذا زكى الإنسان نفسه بحق تكون تلك التزكية مقبولة ؟
نقول : علينا أن نسأل : ما المراد منها ؟ إن كان المراد منها الفخر تكن باطلة ومذمومة ، لكن تكون التزكية للنفس واجبة - أي ممدوحة - في أمر يحتم ذلك .

مثال ذلك : عندما تتركب جماعة زورقاً ويكون القائد أو من يجذف أو يمسك الشراع متوسط الموهبة، ثم قامت عاصفة ولا يقوي متوسط الموهبة على قيادتها ، هنا يتقدم إنسان يفهم في قيادة الزوارق أثناء العواصف ويقول لمتوسط الموهبة : ابتعد عن القيادة فأنا أكثر فهماً وكفاءة وقدرة منك على هذا الأمر ويزحزحه ويمسك القيادة بدلاً منه ، هذه تزكية للنفس ، وهي مطلوبة - أي ممدوحة - لأن الوقت ليس وقت تجربة، وهو يزكي نفسه بحق، إذن فهناك فرق بين التزكية بالباطل وبين التزكية بالحق . (٢)

ثم يستشهد الشيخ الشعراوي (٣) ويستدل بقصة سيدنا يوسف على تزكية النفس المحمودة فيقول :
" ونحن نعلم قصة سيدنا يوسف، ونعلم قصة رؤيا الملك حيث رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وكان المفروض العكس، انظر إلى الملحظية ، لأن سنين الجذب ستأكل سنين الخصب، لكن من الذي يتنبه إلى رموز الرؤيا ، فتعبير الرؤيا ليس علماً ، بل هبة من الله يمنحها لأناس ويجعلهم خبراء في فك رموز - شفرة - الرؤيا، ودليل ذلك أن الملك قال هذه الرؤيا للناس فقالوا له { أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ } (٤) وأضغاث مفردها ضغث، وهو الحشيش المخلوط والمختلف، لكنهم أنفصوا فقالوا { وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ } (٥)
لقد أنصفوا في قولهم ، لأن الذي يقول لك : لا أعلم فقد أفتى ، فما دام قد قال : لا أدري فسيضطررك إلى أن تسأل فهم عندما قالوا : أضغاث أحلام فقد احتالوا واحتاطوا لأنفسهم أيضاً وقالوا { وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ } وكان الحق سبحانه وتعالى قد صنع التمهيد ليوسف وهو في السجن عندما دخل عليه الفتیان { وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ } (٦)
ما الذي جعل الفتیین يعرفان أن يوسف المسجون هذا يعرف تأويل الأحلام ؟ لقد قالوا وأوضحنا العلة { إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } (٧)

(١) سورة البقرة: أية رقم (١١١)

(٢) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٤ - ص ٢٣١٣

(٣) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٤ - ص ٢٣١٣

(٤) سورة يوسف : أية رقم (٤٤)

(٥) سورة يوسف : أية رقم (٤٤)

(٦) سورة يوسف : أية رقم (٣٦)

(٧) سورة يوسف : أية رقم (٣٦)

ومعنى ذلك أنهما شهدا سمته وسلوكه ، وعرفا أنه إنسان مسالم ، فلما حَزَبَهما واشتد عليهما أمرٌ يتعلق بذاتهما قالوا : لا يوجد أحسن من هذا الإنسان نسأله، وقلت ولا أزال أكررها : إن القيم هي القيم ، والصادق محترم حتى عند الكذاب ، والذي لا يشرب الخمر محترم عند من يشرب بدليل أنهما عندما أشدت عليهما أمر قالوا {إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} وهل يحكم واحد على آخر أنه محسن إلا إذا كان عنده مقياس يعرف به الحسن ويميزه عن القبح ؟ وعندما قالوا ذلك الأمر لسيدنا يوسف ، كان من الممكن أن يجيبهما إلى تأويل رؤياهما، ولكن هذه ليست مهمته ، بل فكر : لماذا لا يستغل هو حاجتهما إليه لأمر يتعلق بشخصيهما ، وبعد ذلك ينفذ إلى مرادة هو منهما قبل أن ينفذا إلى مرادهما منه ، فهو نبي ومن سلالة أنبياء ، فأوضح لهما : وماذا رأيتما من إحساني؟ إن عندي أشياء كثيرة {قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْرَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا} (١)

فقد زكى نفسه ، لكن انظروا لماذا زكى نفسه ؟ هو يريد أن يأخذ بيدهما إلى ربه هو ، بدليل أنه قال { نلکما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي } (٢)

إذن فالتزكية هنا مطلوبة وممدوحة ، وقد ردّها الله ، وأعلن أن تلك ليست خصوصية لي ، بل كل واحد من خلق الله يستطيع أن يكون مثلي { إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } (٣) وبعد ذلك قال { وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ } (٤)

إذن فمن الممكن أن تكونوا مثلي إذا ما اتبعتم هذا الطريق، بعد ذلك قال لهم { أَزْيَابٌ مُتَّفِقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } (٥)

إذن فهو زكى نفسه أمامهما لكي يأخذهما إلى جانب من زكى ، وهو الحق سبحانه وتعالى، وبعد ذلك عندما علم الملك قال : انتوني به أستخلصه لنفسي، ويكون مقرباً مني ، ثم بعد ذلك جاءت سنون الجذب التي تنبأ بها أولاً في تفسير الرؤيا، وأشار عليهم بضرورة الادخار من سنين الخصب لسنين الجذب، لقد كانت التجربة إخباراً لأشياء ستحدث ، فلما وقعت علم أن المسألة ليست تجارب بل هي مسألة دقيقة .

فقال للملك { اجعلني على خَزَائِنِ الْأَرْضِ } (٦)

إذن فقد زكى نفسه ، وجاء بالحيشة { إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ } (٧)

لأن هذه المسألة تحتاج حفظاً وعلماً، فهي أمر غير خاضع للتجريب، فيجرب واحد فيخيب، ويجرب آخر فيخيب، لا، إنها تحتاج لحفظ وعلم، ومثال ذلك أيضاً عندما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقسم الغنائم، قال له المنافقون :اعدل يا محمد .. فيقول لهم: والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض ، فهو يزكي نفسه ، إذن فمتى

(١) سورة يوسف : آية رقم (٣٧)

(٢) سورة يوسف : آية رقم (٣٧)

(٣) سورة يوسف : آية رقم (٣٧)

(٤) سورة يوسف : آية رقم (٣٨)

(٥) سورة يوسف : آية رقم (٣٩)

(٦) سورة يوسف : آية رقم (٥٥)

(٧) سورة يوسف : آية رقم (٥٥)

تكون التزكية مطلوبة ؟ أولاً : أن تكون بحق ، وأن يكون لها هدف عند من يعلم التزكية ، وإلى من يعطيك التزكية ويثني عليك بما فيك ، وما أنت أهل له ، فتكون هذه تزكية ممدوحة وصحيحة ولذلك يقول الحق { فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى } (١)

لأنك تزكي نفسك عند الذي سيعطي الجزاء وهو يعلم ، إذن فمن الحق أن يزكي الإنسان نفسه في غير المواقف التي يحتاج فيها الأمر إلى تزكية تكون لفائدة المسلمين ، لا لفائدته الخاصة .

والحق يقول { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا } (٢)

إن الحق سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية، فمن الممكن أن واحداً يتصنع ويتكلف في نفسه مدة من الزمن أمامك ، لكن هناك أشياء أنت لا تدركها، لكن ربنا عندما يزكي تكون تزكيته عن علم وعن خبرة ، ومع ذلك حين يزكون أنفسهم ، أهذه محت حسناتهم ؟ لا ، فعلى الرغم من أنهم زكوا أنفسهم فالحق لن يأخذهم هكذا، ويضيع حسناتهم ولكنهم لا يظلمون فتيلًا ، وهذه مطلق العدالة. (٣)

يتضح مما سبق أن الشيخ محمد متولي الشعراوي تناول موضوع تزكية النفس من منظورٍ روحي وقرآني عميق يجمع بين التزكية السلوكية والإخلاص العقدي والتجرد من الأنا .

ومن خلال ما تم عرضه للإمام النورسي والشيخ الشعراوي وغيرهم من المفسرين والعلماء يمكننا الوقوف على أن وصول النفس للتزكية من خلال طريقتين :

تزكية إلهية : وهي التي يمن الله بها على عباده الصالحين بتوفيقه للتوبة والهدى .

تزكية بشرية : وهي سعي الإنسان في مجاهدة نفسه ليلبغ الكمال الإنساني في حدود طاقته .

وكلا الطريقتين هو محض فضل من الله ، وأنه سبحانه يزكي من يشاء { وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } (٤)

والفوز بهذه التزكية تكون بالإخلاص والعبودية والاعتراف بالتقصير والمداومة على التوبة والعجز والفقر والشكر لله رب العالمين، وتتحقق عبر ثلاث مراحل متكاملة :

التخلية : تطهير القلب من الأهواء والحسد والكبر والرياء والعجب والغرور .

التحلية : ملء القلب بالإيمان والرضا والصدق والتواضع والمداومة على طاعة الله وإخلاص العبادة له سبحانه .

التجلية : إشراق النور الإلهي في النفس، فيظهر أثر التزكية في السلوك والعمل ، قولاً وعملاً .

أما التزكية المذمومة: فهي عند الشعراوي والنورسي وعلماء المسلمين أخطر أمراض النفس ، لأنها تغلف الشر بثوب الخير ، وتتمثل في أن يزكي الإنسان نفسه ويمدحها ، والادعاء بالصلاح ، أو يرى أنه أبر من غيره ، وقد استدلوا على ذلك بقوله تعالى { فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى }

(١) سورة النجم : آية رقم (٣٢)

(٢) سورة النساء: آية رقم (٤٩)

(٣) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٤ - ص ٢٣١٣ - ٢٣١٦

(٤) سورة النور: آية رقم (٢١)

فالممدوح من التزكية هو : ما كان نابعاً من إخلاص لله تعالى ، مقروناً بالمجاهدة والمراقبة والمحاسبة .
أما المذموم فهو : ما كان نابعاً من العُجب بالنفس أو الرياء أو طلب السمعة .
وتتجلى التفرقة بين التزكيتين في ثلاثة أبعاد أساسية :

- البعد العقدي: إذ ترتبط التزكية الممدوحة بتوحيد الله وإخلاص القصد له ، بينما تتحرف المذمومة إلى تأليه الذات أو طلب الثناء .
- البعد الأخلاقي: فالممدوحة تُثمر تواضعاً ورحمة وعدلاً ، أما المذمومة فتورث كبرياء واحتقاراً للآخرين .
- البعد العملي: فالممدوحة تظهر في السلوك المستقيم والعمل الصالح ، والمذمومة في الادعاء والتظاهر دون واقع حقيقي .

وهكذا يتضح أن تركية النفس ليست غايةً شكلية ، بل هي رحلة تهذيبٍ ومجاهدة دائمة ، تُثمر نقاء السريرة وصلاح السلوك ، وتحقق التوازن بين الروح والجسد ، والعقل والقلب ، والإيمان والعمل .
ويمكننا استخلاص أهم صفات التزكية المحمودة فيما يلي :

- الإخلاص والنية الصادقة في العمل .
- الاستقامة على أمر الله في السر والعلن .
- المحاسبة والمراقبة للنفس دون اغترار أو رياء .
- التواضع بعد الطاعة ، إذ يرى العبد نفسه مقصر دائماً مهما عمل .

ومن صور التزكية المذمومة :

- مدح النفس وتعظيمها أمام الآخرين والاعتزاز بها سلباً وإيجاباً .
- التفاخر والرياء في الطاعة طلباً للثناء والمدح .
- الادعاء الكاذب والتصنع بالورع أو الزهد .
- الاستعلاء في التعامل على الخلق بحجة العبادة أو العلم .

المبحث الثاني

الغفلة والهوى والتقليد الأعمى

الغفلة : التركيز لا يتحقق إلا إذا كانت النفس واعية ويقظة ومتذكرة لله ، لأن الغفلة تطفئ نور البصيرة وتعطل عمل القلب ، فتجعل الإنسان غارقاً في الدنيا ، غافلاً عن مصيره الأخروي.

ومن هنا كانت الغفلة من أعظم موانع تركية النفس، لأنها تقطع الصلة بين العبد وربّه، وتضعف أثر الذكر والطاعة، وتفتح أبواب الشهوات والهوى، وتصرف القلب عن ذكر الله ، وتعلقه بغيره حتى يفقد الإحساس بالمراقبة والمحاسبة وقد ورد التحذير منها في قوله تعالى { وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ } (١) وقال سبحانه { اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ } (٢)

وقيل أن الغفلة هي : غيبة الشيء عن بال الإنسان وعدم تذكره له ، وقد استعمل فيمن تركه إهمالاً وإعراضاً كما في قوله تعالى {وهم في غفلة معرضون }

أو هي الذهول والنسيان وعدم التذكر ، والسهو عن الشيء المراد الانتباه له وعدم التيقظ وعدم الحفظ ، وتاركاً لأمره وغافلاً ومفرطاً فيها .

وقد وردت هذه المعاني في العديد من آيات القرآن الكريم منها قوله تعالى {وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً} (٣) ومنه قوله تعالى {ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ} (٤) ومنه قوله تعالى { قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ } (٥)

ومن الملفت للنظر هو إسهاب القرآن الكريم في الحديث عن الغفلة في واحد وعشرين سورة ، وذكرها صراحة في خمس وثلاثين آية من آياته، هذا بالإضافة إلى ما ورد في القرآن الكريم من ألفاظ متقاربة وأخرى مقابلة للفظ الغفلة في مواضع عديدة من آياته كلفظ النسيان .

ومن خلال ما ورد من لفظ الغفلة في القرآن يمكننا الوقوف على مفهوم الغفلة واستخلاص معناها :

الغفلة : سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ .

والغفلة : متابعة النفس على ما تشتهي .

والغفلة : غيبة الشيء عن بال الإنسان وعدم تذكره له.

والغفلة عن الشيء : نسيانه وإهماله والإعراض عنه .

(١) سورة الأعراف : آية رقم (٢٠٥)

(٢) سورة الأنبياء : آية رقم (١)

(٣) سورة النساء : آية رقم (١٠٢)

(٤) سورة الأنعام : آية رقم (١٣١)

(٥) سورة يوسف : آية رقم (١٣)

الغفلة في الاصطلاح :

قال الإمام المناوي : الغفلة فقد الشعور بما حقه أن يشعر به (١)

وقال الراغب الاصفهاني : الغفلة سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والنتيظ ، يقال : غفل فهو غافل (٢)

قال تعالى {لقد كنت في غفلة عن هذا} (٣)

وقال الإمام الجرجاني : متابعة النفس على ما تشتهي (٤)

ويقول الشيخ الشعراوي : أن الغفلة ضدها اليقظة، كما أن السهو ضده التذكر، والغروب ضده الشروق، والغياب ضده الحضور . (٥)

ومن صور الغفلة ومظاهرها التي ورد ذكرها في القرآن الكريم :

الغفلة عن آيات الله : فمن الناس من هو غافل عن آيات الله المنظورة وآياته المقرونة كما قال تعالى {وَأِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ} (٦)

فهو لا يتأمل ولا يتفكر في الآيات الكونية التي تدل على عظمة الله وقدرته ووحدانيته ، كمن قال الله في حقهم : {وَكَايُنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} (٧)
ولا يقبل على كتاب الله ليلتوه ويتدبره {وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ} (٨)

الغفلة عن عبادة الله : أن يتيه الإنسان في دروب الحياة الشائكة، ويُسخر كل طاقاته في العمل لهذه الدنيا الفانية، وينسى ما خلق من أجله وهو عبادة ربه سبحانه ، لا هم له إلا أن يستمتع بملذات هذه الدنيا الفانية، ولا هدف له إلا أن يركض وراء شهوات هذه الدنيا الزائلة ، غافل عن طاعة ربه، معرض عن عبادة خالقه، مضيع للفرائض، مسرف في المعاصي، مفرط في القربات، مكثر من السيئات .

وقد توعّد الله تعالى من يستكبر عن عبادته ويفرط في طاعته بأشد الوعيد فقال سبحانه {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} (٩) وقال عز وجل {قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ } (١٠)

(١) عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي المناوي : التوقيف على مهمات التعاريف - ص ٥٤٠ .

(٢) الراغب الأصفهاني : المفردات في غريب القرآن - ص ٦٠٩ .

(٣) سورة ق : آية رقم (٢٢)

(٤) الجرجاني : كتاب التعريفات ، ص ١٦١

(٥) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٧ - ص ٣٩٥١ .

(٦) سورة يونس : آية رقم (٩٢)

(٧) سورة يوسف : آية رقم (١٠٥)

(٨) سورة لقمان : آية رقم (٧)

(٩) سورة غافر : آية رقم (٦٠)

(١٠) سورة الماعون : آية رقم (٤ - ٧)

الغفلة عن الموت والدار الآخرة : فالغفلة تنسي العبد ربه وآخرته، وتجعله متعلقا بديناه، معرضا عن آخرته، لا يتذكر الموت، ولا يستعد ليوم الحشر، تائه غافل، حتى إذا نزل به الموت تمنى العودة وقال { رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ } (١)

قال تعالى { وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا (٢) أي كنت غافلا عن هذا اليوم مشغولا عنه بمتاع الدنيا الزائل، لم تتذكره ولم تستعد له { فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ } (٣) هأنذا الآن ترى الحقيقة التي كنت تتهرب منها، ها أنت الآن ترحل عن الدنيا التي ملأت قلبك واستعبدت جوارحك.

وقال الله سبحانه { اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ } (٤) فهم في غفلة عما خلقوا له، وإعراض عما زجروا به، كأنهم للدنيا خلقوا، وللتمتع بها ولدوا، وقلوبهم غافلة معرضة، وأجسادهم لاهية لاعبة.

الغفلة طريق إلى الهلاك والدمار: فبغفلة الإنسان عن مصيره يكون ظلمه وطغيانه، وعقاب الله للظالمين شديد. قال الله تعالى عن فرعون وقومه { فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُودِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ } (٥)

الغفلة سبب في الحرمان والخسران : فمن استولت الغفلة على قلبه ضل وتاه وضاع وفقد كل خير، فتراه يعيش في الدنيا كما تعيش الأنعام؛ لا هم له إلا في طعامه وشرابه وشهوته، وذلك هو الخسران المبين. قال الله تعالى { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } (٦) منعنتهم الغفلة من الانتفاع بهذه الجوارح التي جعلها الله سببا للهداية، كما قال الله تعالى { وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } (٧)

من استولت الغفلة على قلبه وعقله لا ينتفع بآية، ولا تؤثر فيه موعظة؛ لأنه لم يؤهل نفسه ويعدها للانتفاع بآيات الله كما قال تعالى { سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ } (٨)

(١) سورة المؤمنون : آية رقم (٩٩ - ١٠٠)

(٢) سورة ق: آية رقم (١٩ - ٢٢)

(٣) سورة ق: آية رقم (٢٢)

(٤) سورة الأنبياء : آية رقم (١ - ٣)

(٥) سورة الأعراف : آية رقم (١٣٥ - ١٣٦)

(٦) سورة الأعراف : آية رقم (١٧٩)

(٧) سورة الأحقاف: آية رقم (٢٦)

(٨) سورة الأعراف : آية رقم (١٤٦)

الغفلة سبب في الحسرة والندامة : سيتجرع مرارة الحسرة كل مَنْ غفل عن طاعة الله وعبادته وآياته، يوم لا ينفع ندم ولا تغني حسرة ، قال الله تعالى { وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحُسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ } (١) حينها يلوم المرء نفسه ويعاتبها على غفلتها وضلالها، يوم لا ينفع لوم ولا عتاب قال تعالى { وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ } (٢)

الغفلة سبب في تسلط الشيطان على الإنسان وإغوائه : فبذكر الله يبتعد، وبالغفلة عن ذكره يقترب، لذا أمر الله تعالى بذكره عند نزغات الشيطان، فقال سبحانه { وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ } (٣) وإذا ما انتقلنا إلى ما سطره الشيخ الشعراوي في تفسيره لقول الله تعالى وقوله { وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ } (٤) فيقول بأن الغفلة معناها: زحزحة الشيء عن بال الواجب ألا يزحزح عنه ، فكان الواجب أن يتذكره ولا يغفل عنه ، والغفلة غير النسيان ، لأن الغفلة أن تهمل مسألة كان يجب ألا تهمل ، وألا تغيب عن بالك ، أما النسيان فخارج عن إرادتك .

وغفلتهم هنا عن أصل وقمة الدين ، وهو الإيمان بالآلوهية ، فإن آمنت بالآلوهية فالغفلة عن الأحكام التي جاء بها الدين، وهذه هي المعاصي ، والكلام هنا عن الكافرين بدليل قوله بعدها { مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ } (٥) والغفلة عن الرب الأعلى مثلها الغفلة عن حكم الرب الأعلى ، وفرق بين غفلة وغفلة .
فغفلة هؤلاء غفلة عن القمة ، وعن الآلوهية ، لا عن التكاليف ، لأنهم ليسوا مؤمنين بالمكلف سبحانه.

وقوله تعالى { مُّعْرِضُونَ } تدل على الافتعال ، أي: أنهم مفتعلون هذا الإعراض؟ (٦)
ثم يوضح الشعراوي من خلال تفسيره لقول الله تعالى { ذَلِكَ أَنْ لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } (٧) أن سبب هلاك القرى وانتقام الله من الإنسان هو نتاج الغفلة عن منهج الله الذي أرسل به الرسل ، وابتعادهم عن قيم الدين ، فيقول : { وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } والغفلة ضد اليقظة ، فاليقظة هي تنبه الذهن الدائم ، والغفلة هي أن تغيب بعض الحقائق عن الذهن، ومعنى أن ربنا لا يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ، أي غير يقظين ، فلو أنهم كانوا يقظين ومتنبهين لما احتاجوا إلى الرسل ، لأن الله عندما خلق الخلق أرسل آدم إلى ذريته، وكان المفروض كما يلقي الآباء الأبناء وسائل حياتهم أن يلقنهم مع ذلك قيم دينهم. فكما أن الآباء يعلمون ذريتهم وسائل حياتهم، ثم ينقلونها

(١) سورة مريم: آية رقم (٣٩ - ٤٠)

(٢) سورة الأنبياء : آية رقم (٩٧)

(٣) سورة الأعراف : آية رقم (٢٠٠ - ٢٠٢) انظر / احمد عماري : الغفلة مفهومها ومخاطرها وسبل الوقاية منها - موقع الألوكة الشرعية الالكتروني .

(٤) سورة الأنبياء : آية رقم (١)

(٥) سورة الأنبياء : آية رقم (٢)

(٦) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٥ - ص ٩٤٧٨

(٧) سورة الأنبياء : آية رقم (٢)

ويزيدون عليها بابتكاراتهم، كان من الواجب على الآباء أن يقوموا بهذا العمل بالنسبة للقيم فتعيش القيم في الناس كما عاشت وسائل حياتهم.

ولماذا - إذن - عاشت وسائل حياتهم وتوارثوها وزادوا عليها أشياء؟ لأن زاوية الدين هي التي يغفل الناس عنها، بسبب أنها تقيد حركتهم في افعل و لا تفعل ، ولكنهم يريدون الترف في وسائل حياتهم .

لماذا إذن أيها الإنسان تحرص على الترفي في ترف الحياة ولا تحرص على الترفي في القيم؟ لقد كنت - على سبيل المثال - تشرب من الماء أو النبع بيدك ثم صنعت كوباً لتشرب منه، ونقيت الماء من الشوائب ونقلته من المنابع في صحاريج ، أنت ترفه حياتك المادية والمعيشية ، فأين إذن الاهتمام بقيم الدين ؟

ولو كانوا متيقظين ، لكان كل أب قد علم ابنه ما ورثه من آباءه من القيم، وعلى الرغم من ذلك رحم الحق سبحانه وتعالى هذه الغفلة، وكرر التنبيه بواسطة الرسل، وكلما انطمست معالم القيم التي يحملها المنهج فهو - جل وعلا - يرسل رسولاً رحمة منه وفضلاً وعدالة، ولم يكن يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون، والغفلة ضد اليقظة.

إذن لو كانوا متيقظين لما كانت هناك ضرورة للرسل، لأن الآباء كانوا سينقلون لأبنائهم القيم كما ينقلون إليهم وسائل حياتهم، وهذا الأمر مستمر معنا حتى الآن، والناس لو عنوا بمسائل قيمهم كما يعنون دائماً بمسائل حياتهم لاستقام منهج الخير في الناس وأصبح أمراً رتيباً. (١)

ويؤكد الإمام القرطبي (٢) أن الغفلة سبب لضلال الإنسان وحرمان النفس من التزكية والهداية ، فيقول في تفسيره لقول الله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ (٣) أي غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة ، فهذا : أي أرشدك ، والضلال هنا بمعنى الغفلة ، كقوله تعالى ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ (٤) أي لا يغفل ، وقال في حق نبيه ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ (٥)

ويوضح القرطبي في تفسيره لسورة المجادلة أن النسيان لعهد الله ومنهجه أو العمل به هو مرادف لمعنى الغفلة (٦) ويتناول الإمام الطبري غفلة الإنسان على أنها بطر وكفران بالنعمة فيقول في تفسيره لقول الله تعالى ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ بَاطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ (٧) قال : البطر : أشر أهل الغفلة وأهل الباطل والركوب لمعاصي الله (٨) .

الهوى :

إن النفس الإنسانية ميدان صراع بين العقل والهوى، وبين الوحي والشهوة ، ولا تزكو هذه النفس إلا إذا خضعت لميزان الشرع والعقل، وتحررت من أسر الأهواء والرغبات.

(١) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٧ - ص ٣٩٥٠ - ٣٩٥١ بتصرف

(٢) الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن - م ٢٠ - ص ٩٦

(٣) سورة الضحى : أية رقم (٧)

(٤) سورة طه : أية رقم (٥٢)

(٥) سورة يوسف : أية رقم (٣)

(٦) الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن - م ١٧ - ص ٣٠٦

(٧) سورة القصص : أية رقم (٥٨)

(٨) الإمام الطبري : تفسير الطبري جامع البيان - م ١٩ - ص ٦٠٢

فالهوى يعد من أخطر أمراض القلوب التي تفسد نية الإنسان وتعطل سيره إلى الله تعالى، وقد حذر القرآن الكريم منه في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} (١) ومن هنا كان الهوى من أشد موانع تزكية النفس ، لأنه يضعف الإرادة، ويغطي نور الفطرة، ويبعد الإنسان عن طاعة الله وسبيل الاستقامة .

وإن من أشد الأمراض التي تصيب القلوب فتفتك بها وتكون حائلاً بينها وبين الهداية هو مرض إتباع الهوى، ولخطورة هذا الداء فقد جعل سبحانه الفلاح والفوز يوم القيامة مرهون بمخالفة هوى النفس كما قال سبحانه {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ} (٢)

فإذا كان الإنسان متبعاً هواه معرضاً عن مولاه ، غارقاً في وحل المعاصي، بعيداً عن البر والخير، بهذا يكون قد بعد عن الهداية، وانتكست نفسه في الغواية، فاتباع الهوى من الموانع والعوائق التي تعيق تزكية نفس الإنسان للوصول إلى مولاه ، والفوز بالجنة ورضاه ، بل ويعيش في ضنك وشقاء في الدنيا وخسارة في الآخرة .
المعنى اللغوي :

هوي : الهاء والواو والياء: أصل صحيح يدل على خلو وسقوط ، أصله الهواء بين الأرض والسماء، سمي لخلوه . قالوا: وكل خال هواء، ويقال: هوى الشيء يهوي : سقط. وهواية : جهنم ، لأن الكافر يهوي فيها .

والهوى مقصور ، هوى النفس والضمير: أي: إرادتها، والجمع الأهواء، والهوى : محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه ، تقول : هوي بالكسر يهوي هوى أي: أحب ، ورجل هو: ذو هوى ، وامرأة هوية : لا تزال تهوى.

وهوى الشيء يهوي هويًا إذا سقط من علو إلى أسفل ، وذلك لأن الإنسان إذا اتبع هواه ، فقد هوى وسقط (٣) .

المعنى الاصطلاحي : ذكر العلماء عدة تعريفات للهوى ، منها :

الهوى: ميل النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع .

الهوى : ميل النفس في الاعتقاد وغيره إلى ما يجانب الحق .

الهوى : ميل القلب إلى ما يستلذ به .

الهوى : كل ما خالف الحق، وللنفس فيه حظ ورغبة من الأقوال والأفعال والمقاصد .

وقيل : هو ميل النفس إلى ما لا ينبغي . (٤)

الهوى في الاستعمال القرآني : وردت مادة هوي في القرآن الكريم (٣٨) مرة ، وجاء الهوى في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي ، وهو ما تميل إليه النفس وتشتيه، مثل قوله تعالى { وما تهوى الأنفس } وقوله تعالى {ولا تتبع الهوى}

(١) سورة الجاثية: أية رقم (٢٣)

(٢) سورة النازعات : أية رقم (٤٠ - ٤١)

(٣) انظر/ احمد بن فارس : معجم مقاييس اللغة - م ٦- ص ١٥ / محمد بن مكرم ابن منظور الأنصاري : لسان العرب - م ١٥ - ص ٣٧٢ / أبو الفيض محمد المرتضى الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس ، دار الهداية ، ج ٤٠ ، ص ٣٢٦ .

(٤) انظر/ عبد الرؤوف بن الحدادي المناوي: التوقيف على مهمات التعاريف - ص ٣٤٤ / الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن - ص ٨٤٩ / الجرجاني : كتاب التعريفات ، ص ٢٥٧ .

يقول الإمام القرطبي في تفسيره لقول الله تعالى {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} (١) عجب نبيه صلى الله عليه وسلم من إضمارهم على الشرك وإصرارهم عليه مع إقرارهم بأنه خالقهم ورازقهم ، ثم يعمد إلى حجر يعبد من غير حجة قال الكلبي وغيره : كانت العرب إذا هوى الرجل منهم شيئاً عبده من دون الله ، فإذا رأى أحسن منه ترك الأول وعبد الأحسن ، فعلى هذا يعني {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} وقال ابن عباس : الهوى إله يعبد من دون الله وقيل : {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} أي أطاع هواه . وعن الحسن : لا يهوى شيئاً إلا اتبعه (٢)

ويقول الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ} (٣) أي أنهم يتبعون آراء قلوبهم وما يستحسنونه ويحببه لهم الشيطان ، وأنه لا حجة لهم (٤)

ويذكر الإمام القرطبي أقوال العلماء عن العواقب الوخيمة لمن يتبع هواه ، وأن ذلك مذموم ، بل إن كلمة الهوى ما ذكرت في القرآن إلا في مواضع الذم ، فيقول في تفسيره لقول الله تعالى {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ هَوَاهُ إِلَهَهُ} قال ابن عباس والحسن وقتادة : ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه ، فلا يهوى شيئاً إلا ركبه . وقال عكرمه : أفرأيت من جعل إلهه الذي يعبد ما يهواه أو يستحسنه ، فإذا استحسن شيئاً وهويه اتخذه إلهاً . وقال سعيد بن جبير : كان أحدهم يعبد الحجر ، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى ربه وعبد الآخر . وقال مقاتل : نزلت في الحارث بن قيس السهمي أحد المستهزئين ، لأنه كان يعبد ما تهواه نفسه . قال الإمام الشعبي : إنما سمي الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه في النار . وقال ابن عباس : ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمّة ، قال الله تعالى {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ} (٥)

يقول الإمام ابن كثير أن نتاج نهى النفس عن هواها وبعدها عن متطلباتها غير المشروعة ، وتربيتها على الخوف من الله تعالى، فإن جزاؤها الجنة كما ورد في تفسيره لقول تعالى {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى} (٦) أي خاف القيام بين يدي الله ، وخاف حكم الله فيه ، ونهى نفسه عن هواها وردّها إلى طاعة مولاه {فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} أي منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء . (٧)

وحين نقف على معنى هوى في فكر الشيخ الشعراوي يمكننا الوقوف على هذا المعنى من خلال تفسيره لقول الله تعالى {وَمَنْ يَخْلُلْ عَلَيْهِ غُصْبِي فَقَدْ هَوَى} (١) مادة: هَوَى لها استعمالان، الأول: هَوَى يَهْوِي: يعني سقط من أعلى سقوطاً لا إرادة له في منعه، كأن يسقط فجأة من على السطح مثلاً ، والآخر : هَوَى يَهْوَى: أي أحبّ .

(١) سورة الفرقان : آية رقم (٤٣)

(٢) أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن - م ١٣ - ص ٣٥ - ٣٦ .

(٣) سورة القصص : آية رقم (٥٠)

(٤) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن - م ١٣ - ص ٢٩٥ .

(٥) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن - م ١٦ - ص ١٦٦ - ١٦٧ بتصرف / أنظر سورة الأعراف : آية رقم (١٧٦) .

(٦) سورة النازعات : آية رقم (٤٠ - ٤١)

(٧) الإمام ابن كثير : تفسير ابن كثير - م ٨ - ص ٣١٩ .

فيكون المعنى { فَقَدْ هَوَى } [طه: ٨١] سقط إلى القاع سقوطاً لا يبقى له قيمة في الحياة، أو هَوَى في الدنيا، ويَهْوِي في الآخرة ، كما جاء في قوله تعالى { فَأَمَّهُ هَاوِيَةٌ } (٢) فأمه ومصدر الحنان له هاوية، فكيف به إذا هوى في الهاوية ؟ هذه كلها عظمات ومواعظ للمؤمن ، يبينها الحق سبحانه وتعالى له كي يبيّن حركة حياته على ضوئها وهداها (٣)

ويتحدث الشيخ الشعراوي عن معنى هوى في موضع آخر فيقول : وكلمة هوى مُكونة من مادة الهاء والواو والياء ، ولها معانٍ متعددة، فلك أن تقو : هَوَى ، أو تقول: هَوَى، فإن قلت: هَوَى يهوي من السقوط من مكان عالٍ دون إرادة منه في السقوط ، وكأنه مقهور عليه، وإن قلت هَوَى يهوي، فهذا يعني أحب ، وهو نتيجة لميل القلوب ، لا ميل القوالب، وهنا يقول الحق سبحانه { فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } (٤) أي : أن مجيء الناس إلى هذا المكان لن يكون بدافع شهوة سياحة ، ولكن إقامة عبادة امتثالاً لأمر الله ، فما دام المكان قد أقيم فيه بيت لله باختيار الله ، فلا بد أن يُعَبَّدَ فيه سبحانه تنفيذاً لأمره ، فعلاقة الفؤاد بالحجيج علاقة قوية ، لأن الهوى في الحجيج هوى قلوب لا جيوب، وأنت تجد الإنسان يجمع النقود الخاصة بالحج، وقد يحرم نفسه من أشياء كثيرة من أجل أن يحظى بأداء تلك الفريضة . (٥)

ويوضح الشيخ الشعراوي أن معالجة هوى النفس تبدأ بالتسليم والقناعة والرضا ، ويبين من خلال تفسيره لقول الله تعالى {وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَّمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ } (٦) والسخط هو : عدم الرضا في القلب، ثم يتعدى ذلك إلى اللسان، مثلما قال حرقوص بن زهير لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اعدل يا محمد ، أي : أنه سخط بقلبه أولاً ، ثم أساء بلسانه ثانياً ، وساعة يعرض الحق سبحانه لنا الداء في المجتمع الإيماني فهو جل وعلا يعطي الدواء الذي يحمي المجتمع من هذا الداء لتحسين النفوس وتركيبتها، وهؤلاء الناس كانوا يعيبون تشريع الصدقة، رغم أنهم إن أعطوا منها رضوا، وإن لم يعطوا سخطوا . إذن : فموازينهم مختلفة ، وليست موازين حق ثابت ، بل هي موازين هوى النفس، لكن موازين الحق لا تتبع ولا تتوقف على هوى النفس ، بل هي موازين ثابتة يعدل فيها الإنسان حتى مع ألد أعدائه . ولكن هؤلاء الناس تختلف انفعالاتهم باختلاف مصلحتهم، إذا أخذوا رضوا، وإذا منعوا سخطوا ، لأن ميزانهم هو المصلحة الخاصة البعيدة عن كل عدل ، وهنا يأتي الحق سبحانه وتعالى بالعلاج فيقول سبحانه {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ } (٧) كيف يقول الحق سبحانه وتعالى {مَا آتَاهُمْ} مع أنهم لم يأخذوا شيئاً، بل إنهم قد سخطوا، لأنهم لم يأخذوا شيئاً .

(١) سورة طه : آية رقم (٨١)

(٢) سورة القارة : آية رقم (٩)

(٣) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٥ - ص ٩٣٤٨ - ٩٣٤٩ / وأنظر : م ٢ - ص ١٢٨٣ .

(٤) سورة ابراهيم : آية رقم (٣٧)

(٥) محمد متولى الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٢ - ص ٧٥٧٦ - ٧٥٧٧ .

(٦) سورة التوبة : آية رقم (٥٨)

(٧) سورة التوبة: آية رقم (٥٩)

نقول :إن الله يريد أن يلفتهم إلى أن له عطاء في المنح وعطاء في المنع ، فعطاء الحق سبحانه لمن أخذ، وحرمان الحق سبحانه للبعض، كل ذلك فيه عطاء من الحق جل وعلا، ولكن الناس لا يلتفتون إلى ذلك .

ورسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين منع الغنائم عن الأنصار في حنين أخذوا المعية مع رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام ، وهذا أكبر وأسمى من الغنائم ، وقال لهم رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : المحيا محياكم، والممات مماتكم ، لو سلك الناس شِعْباً وسلك الأنصار شِعْباً لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأنصار .

وبذلك أخذوا ما هو أكبر وأهم وأعظم من الغنائم ، إذن فقد يكون في المنع إيتاء .

الحق سبحانه وتعالى يقول {مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ} وهو عز وجل المشرع ، والرسول عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ هو المبلغ والمنفذ، فإذا ما رضوا بقسمة الله ، فالرضاء عمل قلبي كان عليهم أن يترجموه بكلام نزوعي هو {وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ} فكأن الرضا عمل القلب، والتعبير عن الرضا عمل اللسان، وما داموا قد احتسبوا الأمر عند الله، فالله هو الذي يرعى، وفي عطائه خير وفي منعه خير ، ولذلك نجد الطيبين من الناس إن غلبوا على أمرهم يقولون :إن لنا رباً، أي :إياك أن تفهم أنك حين منعتني أو أخذت حقي بأن اعتديت علي ستمضي بهذا الفعل دون عقاب ، لأن لي رباً يغار علي ، وسبحانه سيعوضني أكثر مما أخذت، ويجعل ما أخذته مني قسراً ، نعمة عليك .

ولذلك فأهم ما يجب أن يحرص عليه المؤمن ليس هو الصلة بالنعمة ولكن تربية النفس على الصلة بالمنعم ، وفي أن الله هو القادر على أن يعوض أي شيء يفوت. (١)

ثم يستطرد الشيخ الشعراوي على ضرورة تربية النفس على قبول عطاء الله ، بعيداً عن هوى النفس ورغباتها التي لا حدود لها ، حيث يقول : يوضح لنا سبحانه الصورة أكثر فيقول { سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} أي سيعوضنا عنها بخير منها، وعطاء الله دائماً فضل ، لأنه يعطي الإنسان قبل أن يكون قادراً على عبادته، حتى وهو في بطن أمه لا يقدر على شيء، فإذا كنت في الدنيا قد فكرت بالعقل الذي خلقك لك الله ، وعملت بالطاقة التي خلقها لك الله، وفي الأرض التي خلقها الله، فإنك في بطن أمك لم تكن قادراً على أي شيء ، وحين تخرج وتنمو وتكبر فأنت تحيا في كون مليء بنعم الله، لم تخلق فيه شيئاً، ولم توجد فيه خيراً ، وإنما جئت إلى الكون وهو كامل النعم ، فلا أنت أوجدت الأرض ولا صنعت الشمس، بل إن نعمة واحدة من نعم الله، إن توقفت هلك كل من في الأرض ، ونلمس أثر ذلك حين تأتي مواسم الجفاف في أي منطقة من العالم، ونرى كيف يهلك كل شيء، الزرع والإنسان والحيوان .

والحق سبحانه وتعالى قد خلقنا في عالم أغيار، فالقادر اليوم قد يصبح غير قادر غداً، والصحيح اليوم قد يصبح مريضاً معلولاً غداً، والقوي يضعف، حتى نعرف أن ما نملكه من قدرة وقوة ليست أموراً ذاتية فينا، ولكنها منحة من الله ، يأخذها وقتما يشاء، ونرى القوى الذي كان يفتك بيده ويؤذي بها غيره ويذل أناس بها ، نراه وقد أصيبت يده، فلا تصل إليها الأوامر من المخ فتشل ، إذن : ف قدرة أي إنسان ليست ذاتية فيه، بل هي من فضل الله سبحانه وتعالى، وكل شيء في الكون هو من فضل الله.

(١) محمد متولى الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٩ - ص ٥٢١٦ - ٥٢١٨ .

والحق سبحانه وتعالى يقول { سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ } ويقال: رغب في كذا أي أرادته، ويقال: رغب عن كذا، أي ترك هذا الأمر، ويقال: رغب إلى كذا أي سار في الطريق نحوه. وهنا قال الحق { إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ } وما دُمنّا إلى الله راغبين، كان يجب ألا نعزل عطاء الدنيا عن عطاء الآخرة، فالدنيا ليست كل شيء عندك، ما دُمت راغباً إلى الله الذي سيعطيك نعيماً لا حدود له في الآخرة، ولذلك فرغبتنا في الله كان يجب ألا تجعل النفس تسخط بسبب هواها على نعيم فاتنا في الدنيا، لأن هناك نعيماً بلا حدود ينتظرنا في الآخرة. (١)

وهذا يتلاقى مع ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه (٢)

وقد حذرنا القرآن الكريم ونهانا عن اتباع الهوى فقال تعالى { وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } (٣) " يؤكد الشيخ الشعراوي أن التشريع جاء من الله ليعصم الناس من الأهواء، لأن هوى إنسان ما قد يناقض هوى إنسان آخر، والباقون من الناس قد يكون لهم هوى يناقض بقية الأهواء، والحق سبحانه يقول { وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ } (٤) إذن فلا بد أن نتبع في حركتنا ما لا هوى له إلا الحق، والدين إنما جاء ليعصمنا من الأهواء، فالأهواء هي التي تميلنا، والذي يدل على أن الأهواء هي التي تميل إلى غير الحق، أن صاحب الهوى يهوى حكماً في شيء، ثم تأتي ظروف أخرى تجعله يهوى حكماً مقابلاً، إنه يلوي المسألة على حسب هواه، وإلا فما الذي ألجأ دنيا الناس إلى أن يخرجوا من قانون السماء الأول الذي حكم الأرض عند آدم عليه السلام؟ لقد خرجوا من قانون السماء حينما قام قوم بأمر الدين فأخذوا لهم من هذا سلطة زمنية، وأصبحوا يخضعون المسائل إلى أهوائهم " (٥)

ويوضح الشيخ الشعراوي أن قضايا الحياة يمكن أن تقسم إلى قسمين: قضايا تختلف فيها الأهواء.

وقضايا تتفق فيها الأهواء.

فالقضايا التي تختلف فيها الأهواء: هي القضية التي يخدم بها كل قائل لها فكرة عنده فقط، وإن كانت ضارة بغيره، فما دام الأمر قائماً على الأهواء فلا بد أن تختلف، فكل له هواه الخاص، فلو أن لكل واحد قضية ما التقينا على شيء أبداً، وصدق الحق تبارك وتعالى حين قال { وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ } (٦)

(١) محمد متولى الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٩ - ص ٥٢١٨ - ٥٢١٩.

(٢) حديث شريف: صحيح الجامع - ص ٣٠٤٥ / وأنظر: الطبراني في المعجم الأوسط - ص ٥٧٥٤.

(٣) سورة ص: آية رقم (٢٦)

(٤) سورة المؤمنون: آية رقم (٧١)

(٥) محمد متولى الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٢ - ص ١٢٨٢.

(٦) سورة المؤمنون: آية رقم (٧١)

ويتسأل الشيخ الشعراوي : إذن : فما المخرج من هذا الاختلاف والتباين ؟ المخرج أن يخرج كل واحد منا من هوى نفسه أولاً ، ثم نرد القضية التي اختلفت فيها أهواؤنا إلى من لا هوى له .

وربك سبحانه وتعالى هو وحده الذي لا هوى له ، ونحن جميعاً خلقه ، وكلنا عنده سواء ، ليس منا من بينه وبين الله نسب أو قرابة ، فشرع الله واحد للجميع ولا غضاضة ، فالكل خاضع لهذا الشرع متمتع له ، لأنه شرع الخالق سبحانه لا شرع أحد من الناس ، لذلك اشتهر قولهم : اللي الشرع يقطع صباعه ميخرش دم .

فأنا لم أخضع لك ، وأنت لم تخضع لي ، بل الجميع خاضع لله تعالى منصاع لأمره ، إذن : اتركوا قضايا الأهواء لله تعالى يشرعها لكم لكي ترتاحوا من تسلط بعضكم على بعض ، أما القضايا التي تتفق فيها الأهواء ، فهي القضايا المادية القائمة على المادة الصماء التي لا تجامل أحداً على حساب أحد ، ولا مانع أن تتبعوا الآخرين فيها ، لأنكم سوف تلتقون عليها قهراً و رغماً عنكم ، فالمعمل الذي تدخله لتجري التجارب التي توصلك لقضية ما مادية أو كيميائية معمل محايد لا يجامل أحداً " (١)

يبين الشيخ الشعراوي من خلال تفسيره لقول الله تعالى ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٢) فيقول : اتبعوا أهواءهم : لأنهم اختاروا عبادة من لا منهج له ولا تكليف ، عبداً إلهياً لا أمر له ولا نهى ، لا يرتب على التقصير عقوبة ، ولا على العمل ثواباً ، وهذا كله من وحي الهوى الذي اتبعوه . ثم يحذر الشيخ الشعراوي تقديم الهوى على العقل وعلى منهج الله تعالى فيقول : إياك أن تقدم الهوى على العقل لأنك حين تقدم الهوى يصير العقل عقلاً تبريرياً ، يحاول أن يعطيك ما تريد بصرف النظر عن عاقبته ، لكن بالعقل أولاً حدد الهوى ، ثم اجعل حركة حياتك تبعاً له .

والبعض يظن أن الهوى شيء مذموم على إطلاقه ، لكن الهوى الواحد غير مذموم ، أما المذموم فهي الأهواء المتعددة المتضاربة ، لأن الهوى الواحد في القلب يجند القلب كله لخدمة هذا الهوى ، فحين يكون هوى أن أذهب إلى مكان كذا ، فإن القلب يسعى ويخطط لهذه الغاية ، فيحدد الطريق ويعد الزاد ، ويأخذ بأسباب الوصول . وهذا الهوى هو المعنى في الحديث الشريف : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به " فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يمنع أن يكون للإنسان هوى تميل إليه نفسه وتحبه ، لأن ذلك الهوى يعينه على الجهاد والكفاح في حركة الحياة . (٣)

أما حين تتعدد الأهواء فلك محبوب ، ولي محبوب آخر ، فإنها لا شك تتعارض وتتعاقد ، والله تعالى يريد من المجتمع الإيمان أن تتساند كل أهوائه ، وأن تتعاقد لا تتعارض ، وأن تتضافر لا تتضارب ، لأن تضارب الأهواء يبدد حركة الحياة ويضيع ثمرتها ، أما إن كان هواي هو هواك ، وهو هوى ليس بشراً ، إنما هوى رسمه لنا الخالق عز وجل فسوف نتفق فيه ، وتثمر حركة حياتنا من خلاله ﴿لَا يَغْلُظُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير﴾ (٤)

(١) محمد متولى الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٤ - ص ٨٥٣٤ - ٨٥٣٥ .

(٢) سورة الروم : آية رقم (٢٩)

(٣) محمد متولى الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٨ - ص ١١٤٠٨

(٤) سورة الملك : آية رقم (١٤)

وسبق أن قلنا :إن صاحب الصنعة في الدنيا يجعل معها كتالوجاً يبين طريقة صيانتها، والحق سبحانه وتعالى هو الذي خلقك ، وهو الذي يحدد لك هواك ، وأول فشل في الكون أن الناس المخلوقين لله يريدون أن يضعوا للبشر قانون صيانتهم من عند أنفسهم.

ونقول : هذا لا يصح ، لأن الذي يقنن ويضع للناس ما يصونهم ينبغي أن تتوفر فيه شروط : أولها: أن يكون على علم محيط لا يستدرك عليه ، وأنت أيها الإنسان علمك محدود ، كثيراً ما تستدرك أنت عليه بعد حين ، ويتبين لك عدم مناسبته وعدم صلاحيته ، بل وتبين أنت بنفسك فساد رأيك فتراجع عنه إلى غيره ، كما يجب على من يشرع للناس الهوى الواحد أن يكونوا جميعاً بالنسبة له سواء ، وألا ينتفع هو بما يشرع ، وإلا لو كانت له منفعة فإنه سوف يميل إلى ما ينفعه ، فلا يكون موضوعياً كما رأينا في الشيوعية وفي الرأسمالية وغيرها من المذاهب البشرية.

والحق سبحانه وتعالى هو وحده الذي لا يستدرك عليه، لأن علمه محيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية ، والخلق جميعاً الذين يشرع لهم أمامه سواء، وكلهم عباده، لا يحابي منهم أحداً ، ولا يميز أحداً على أحد ، وليس له سبحانه من خلقه صاحبة ولا ولد، لذلك يطمئنا سبحانه بقوله { وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا } (١) وكأن الله تعالى يقول :اطمئنوا ، فربكم ليس له صاحبة تؤثر عليه ، ولا ولد يحابيه ، فالصاحبة والولد نقطة الضعف وسبب الميل في مسألة التشريع .

وكذلك هو سبحانه لا ينتفع بما يشرعه لنا ، لأنه سبحانه خلقنا بقدرته ، وهو الغني عنا لا تتفقه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصي ، إذن : فهو سبحانه وحده المستكمل لشروط التشريع ، والمستحق لها سبحانه ، وبيان الهوى الواحد الذي يجتمع عليه كل الخلق.

إذن : لو عقلنا لأخذنا هوانا الواحد من إله واحد هو الله عز وجل ، لكن الخيبة أنهم ما استمعوا هذا الكلام وما عقلوه {بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} (٢) ظلموا لأنهم عزلوا الهوى الواحد ، ونحوه جانباً وأخذوا أهواء شتى تعارضت وتضاربت ، فلم يصلوا منها إلى نتيجة ، وما ظلموا بالشرك إلا أنفسهم ، والله تعالى يقول {إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} (٣) ظلموا أنفسهم حينما أعطوها شهوة عاجلة ولذة فانية ، وغفلوا عن عاقبة ذلك، فهم إما كارهون لأنفسهم ، أو يحبونها حباً أحمق ، وهذه آفة الهوى حينما يسبق العقل ويتحكم فيه . (٤)

ويتضح مما سبق أن اتباع الهوى يعمي البصيرة، ويفسد العدل، ويجر الإنسان إلى الضلال والظلم ، وأن منشأ الهوى هو الغفلة ، والهوى يعمق الغفلة، وكلاهما يطمس النور الذي يهدي القلب ويزكي النفس .

التقليد الأعمى :

" التقليد لغة : هو جعل القلادة في العنق .

(١) سورة الجن: آية رقم (٣)

(٢) سورة الروم : آية رقم (٢٩)

(٣) سورة لقمان: آية رقم (١٣)

(٤) محمد متولى الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٨ - ص ١١٤٠٩ - ١١٤١٠ .

وتقليد الولاية : هو جعل الولاية قلائد في أعناقهم " (١)

يقول القرطبي : التقليد في اللغة مأخوذ من قلادة البعير ، فإن العرب تقول : قلدت البعير إذ جعلت في عنقه حبلاً يقاد به ، فكأن المقلد يجعل أمره كله لمن يقوده حيث شاء ، وكذلك قال شاعرهم :

وَقَلَدُوا أَمْرَكُمْ لِلَّهِ دَرْكُمُ ... ثَبَّتَ الْجَنَانِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلَعًا (٢)

والقرآن الكريم عندما أرسى قواعد البحث وأصول التفكير، فإنه عمل على تحرير العقل من رواسب التقليد وعادات البيئة السيئة ، وعاب على المقلدين بلا وعي أو إدراك ، الذين يقولون { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ } (٣)

وبين القرآن أن التقليد يسوق الإنسان دون استيعاب إلى الظن والهوى والاسترسال مع الباطل { وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا } (٤)

ويقوم التقليد على تعطيل حواس الإنسان، وحتى إن تم استخدامها فإن المقلد يستخدم حواسه التي أمده المولى بها للمعرفة والاستكشاف استخداماً سيئاً {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} (٥)

ولعل بعض ما بيناه يبين فساد التقليد ، لأنه يجعل نفس الإنسان أسيرة ، ومكبلة بأغلال من يقلده ، وكما قال عبيد الله بن المعتمر رحمه الله " لا فرق بين بهيمة تقاد وإنسان يقلد " (٦)

لهذا يدعوا الإمام النورسي إلى البعد عن التقليد الأعمى لكي لا يكون الإنسان مكبلاً بأغلال التقليد للآخرين ، ولكي لا يعوق التقليد النظر الإنساني أن يرى الحقائق الإيمانية التي تمهد له سعادة الدنيا والآخرة وتوصله بخالفه وتزكي نفسه وترتقي بأخلاقه وسلوكه وتعاملاته ، وفي المقابل لا تربطه بالماضي الخرافي.

ويصرح النورسي أن القرآن يمقت التقليد ويحض ويشجع على التفكير والتدبر والملاحظة فيقول : " إن القرآن الكريم يستشهد العقل ويحثه على التدبر والملاحظة بقوله تعالى (أفلا يتفكرون ، أفلا يتدبرون ، أفلا يعقلون) فيمنح لأهل العلم وأرباب الفكر والعقل بهذا مقاماً رفيعاً باسم الدين ، ويوليهم أهمية خاصة فلا يعزل العقل ، ولا يحجر على عقول أهل الفكر ويحكم أفواههم ، ولا يطلب التقليد الأعمى كما هو في المذهب الكاثوليكي " (٧) وذلك لأن الإسلام ليس كسائر الأديان المبنية على التقليد والتعصب " (٨)

(١) أبو محمد بن سعيد البيلوي : التقليد المشروع منه والمنوع ، ص ٩ ، دار الفرقان ، باكوس .

(٢) أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن - م ٢ - ص ٢١٢ .

(٣) سورة الزخرف : آية رقم ٢٣ .

(٤) سورة النجم : آية رقم ٢٨ .

(٥) سورة الإسراء : آية رقم ٣٦ .

(٦) أبو محمد بن سعيد البيلوي : التقليد المشروع منه والمنوع : ص ١٦ ، دار الفرقان ، معهد إعداد الدعاة بباكوس .

(٧) بديع الزمان النورسي : المكتوبات ، ص ٥٦٢ .

(٨) بديع الزمان النورسي : إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ، ص ١٠٥ .

يتحدث الإمام القرطبي حول قضية التقليد السلبي وذمه من خلال تفسيره لقول الله تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ} (١) لأن غاية الفساد في الالتزام أن يقولوا : نتبع آبائنا ولو كانوا لا يعقلون ، ففرروا على التزامهم هذا لأن ذلك حال آبائهم .

مسألة : قال علمائنا : وقوة ألفاظ هذه الآية تعطي إبطال التقليد ، ونظيرها {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} (٢) وهذه الآية والتي قبلها مرتبطة بما قبلهما ، وذلك أن الله أخبر عن جهالة العرب فيما تحكمت فيه بآرائها السفيهية في البحيرة والسائبة والوصيلة ، فاحتجوا بأنه أمر وجدوا عليه آباءهم فاتبعوهم في ذلك ، فدل هذا على ذم التقليد لذنم الله تعالى الكفار باتباعهم لآبائهم في الباطل واقتنائهم بهم في الكفر والمعصية ، وهذا في الباطل صحيح ، أما التقليد في الحق فأصل من أصول الدين ، وعصمة من عصم المسلمين يلجأ إليها الجاهل المقصر من أصول الدين ، واختلف العلماء في جوازه في مسائل الأصول ، وأما جوازه في مسائل الفروع فصحيح ، والتقليد عند العلماء حقيقته قبول قول بلا حجة (٣).

يبين الإمام القرطبي أن التقليد ليس طريقاً للعلم ولا موصلاً له ، لا في الأصول ولا في الفروع ، وهذا قول جمهور العقلاء والعلماء ، خلافاً لما يحكي عن حال الحشوية والثعلبية من أنه طريق معرفة الحق وأن ذلك هو الواجب ، وأن النظر والبحث حرام ، والاحتجاج عليهم في كتب الأصول .

قال ابن عطية : أجمعت الأمة على إبطال التقليد في العقائد ، وقال بعض الناس أنه يجوز التقليد في أمر التوحيد (٤).

يقول الشيخ الشعراوي عن التقليد من خلال تفسيره لقول الله تعالى { وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا } تقليد ، والتقليد لا يعطي حكماً تكليفاً ، ومما يدل على أن التقليد لا يعطي حقيقة ، أنك تجد المذهبين المتناقضين - الشيوعية والرأسمالية مثلاً - مقلدين ، لهذا المذهب مقلدون ، ولهذا المذهب مقلدون ، فلو أن التقليد معترف به حقيقة لكان التقليدان المتضادان حقيقة ، والمتضادان لا يصبغان حقيقة ، لأنهم - كما يقولون - الضدان لا يجتمعان ، هذا هو الدليل العقلي في إبطال التقليد ، ولذلك نلاحظ في أسلوب الأداء القرآني أنه أداء دقيق جداً ، فالذي يتكلم إليه {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا} (٥) والرد من الله عليهم أنه سبحانه لم يأت في مسألة التقليد برد لأنه بداهة لا يؤدي إلى حقيقة ، بل قال { قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَنْقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } (٦) وهذا رد على قولهم : والله أمرنا بها ، وأين الرد على قولهم { وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا } ؟ نقول إنه أمر لا يحتاج إلى رد ، لأنه أمر

(١) سورة البقرة : آية رقم (١٧٠)

(٢) سورة المائدة : آية رقم (١٠٤)

(٣) أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن - م ٢ - ص ٢١١ .

(٤) الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن - م ٢ - ص ٢١٢ .

(٥) سورة الأعراف : آية رقم (٢٨)

(٦) سورة الأعراف : آية رقم (٢٨)

يرفضه العقل الفطري، ولذلك ترك الله الرد عليه ، لوضوح بطلانه عند العقل الفطري، وجاء بالرد على ادعائهم أن الله يأمر بالفحشاء ، فإله لا يأمر بالفحشاء. (١)

ويوضح الشيخ الشعراوي أن التقليد هو منفذ للأهواء وإطلاق العنان للنفس لتلبية الشهوات والرغبات المحظورة ، وإدعاء باطل للهروب من منهج التكليف ، ويدعون بسبب هذا الادعاء أنهم لم يسمعوا هذا التكليف وذلك المنهج من آبائهم { مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى } (٢) المراد بهذا: يعني أن يأتي مَنْ يقول اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، لأن آبائنا الأولين كانوا يعبدون الأصنام، ولم يأت مَنْ يقول لنا هذا الكلام مثل نوح.

وهذا دليل على أنهم مُقلِّدون للآباء، ليس لديهم تفكير واستقلال في الرأي ينظرون به إلى الأشياء نظرة الحق والعدالة، وفي موضع آخر قال تعالى عنهم { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ } (٣)

ولو تأملنا حال المجتمعات، ومنها مجتمعنا الذي نعيش فيه لوضح لنا كذب هؤلاء في ادعائهم التقليد للآباء، كيف؟ تأمل حال الأجيال المختلفة تجد كل جيل له راية وتطلعاته ورغباته التي ربما اختلف فيها الأب عن أبيه ، فالأبناء الآن لهم رأي مستقل ، فالولد يختار مثلاً الكلية التي يرغبها، والملابس التي يحبها، وإن خالفت رأي أبيه، بل ويصل الأمر إلى اتهام الآباء بالجمود والتخلف إن لزم الأمر، وهذا موجود في كل الأجيال .

إذن : لماذا لم تقولوا في مثل هذه الأمور: إنا وجدنا آبائنا على أمة ؟ لماذا كانت لكم ذاتية ورأي مستقل في أمور الدنيا دون أمور الدين ؟ إنكم تتخذون الذاتية فيما يليي رغباتكم وشهواتكم وانحرافاتكم ، وتتخذون التقليد فيما يقلل تكليفكم، لأن التكليف سيقيد هذه الرغبات والشهوات ويقضي على هذه الانحرافات، لذلك يتمرد هؤلاء على منهج الله. لذلك ، نعجب لما نراه ونسمعه من حال أبنائنا اليوم ، وكيف أفلت الزمام من الآباء والأمهات ، فالشباب يسير على هواه في أمور انحرافية، فإن وجهه أبوه أعرض عنه واتهمه بأنه من جيل قديم وقد ذهب زمانه بلا رجعة، وقد تعدى الأمر من الأولاد إلى البنات ، فصرن أيضاً يتمردن على هذه القيم ولا يهتمن بها. (٤)

فقولهم { مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى } (٥)

فقولهم { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ } هم كاذبون أيضاً في هذه المقولة ، لأنهم لو صدقوا لقلدوهم في كل شيء وما عليهم في أمور الدنيا وفي أمور الدين والقيم والأخلاق .

لذلك الحق - تبارك وتعالى - يعالج هذه القضية في مواضع عدة من كتابه الكريم، وبأساليب مختلفة، منها قوله سبحانه { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا } (٦)

(١) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٧ - ص ٤٠١٤ - ٤٠١٥ .

(٢) سورة المؤمنون : آية رقم (٢٤)

(٣) سورة الزخرف : آية رقم (٢٣)

(٤) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٦ - ص ١٠٠٨ - ١٠٠٩ .

(٥) سورة المؤمنون : آية رقم (٢٤)

(٦) سورة البقرة : آية رقم (١٧٠)

لأن هذا يريحهم من مشقة التكليف، وإن كانت العبادة : طاعة عابد لمعبود في أمره ونهيه ، فما أسهل عبادة الأصنام ، لأنها آلهة كما يدعون لكن ليس لها منهج ، وليس معها تكاليف، فبأي شيء أملك الصنم ؟ وعن أي شيء نهاك ؟ وماذا أعد من جزاء لمن أطاعه ؟ وماذا أعد من عقاب لمن عصاه .

إذن : معبود بلا منهج وبلا تكاليف ، وهذا دليل كذبهم في عبادة الأصنام وغيرها من آلهتهم .
الم يقولوا {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} ^(١) فهذا حمق وسفه وجهل ، لأن الكلام منطقياً لا يستقيم، كيف تقولون نعبدكم وليس لهم منهج ، وليس لهم تكاليف ، والعبادة طاعة عابد لمعبود ؟

إذن : ما هو إلا خواء وإفلاس عقدي ، لذلك يرد الحق - تبارك وتعالى - عليهم فيقول سبحانه {أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ} ^(٢) وفي موضع آخر يقول - سبحانه وتعالى - عنهم { قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} ^(٣) وهذه أبلغ من سابقتها، لأنهم يصعدون كفرهم ويصرون عليه ، فقولهم {بَلْ نَتَّبِعُ مَا آَلَفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} فلربما يراجعون أنفسهم فيهتدون إلى الحق، ويخالفون الآباء .

لكن هنا {حَسْبُنَا} يعني: كافينا، ولن نغيره ولن نحيد عنه ، لذلك يأتي كل آية بما يناسبها: ففي الأولى قال تعالى رداً عليهم {أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً} ^(٤) وفي الأخرى قال رداً عليهم {أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلمُونَ شَيْئاً} ^(٥)
فذكر العقل في الأولى ، لأن الإنسان يأتى فيه بنفسه، وذكر في الأخرى العلم، لأن الإنسان في العلم يأتى بعقله، وعقل العلم أيضاً، فالعلم - إذن - أوسع من العقل، لذلك ذكره مع قولهم {حَسْبُنَا} الدالة على المبالغة والإصرار على الكفر . (٦)

(١) سورة الزمر : آية رقم (٣)

(٢) سورة البقرة : آية رقم (١٧٠)

(٣) سورة المائدة : آية رقم (١٠٤)

(٤) سورة البقرة : آية رقم (١٧٠)

(٥) سورة المائدة : آية رقم (١٠٤)

(٦) محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٦ - ص ١٠٠٩ - ١٠١١ .

المبحث الثالث

تخلية النفس من الرذائل والأخلاق الذميمة

لقد شرع الإسلام قواعد تطهير النفس البشرية من الرذائل قبل التحلية بها، حيث تتجلى أهمية هذا الموضوع في كونه الأساس الذي تُبنى عليه نهضة الأفراد والمجتمعات؛ فكل إصلاح اجتماعي يبدأ بإصلاح النفس، إذ لا يمكن أن يسود العدل والرحمة والتعاون في أمة امتلأت قلوب أفرادها بالحسد والأنانية والبغضاء؛ ولذا، دعا القرآن الكريم إلى تزكية النفوس وجعلها شرطاً للفلاح حيث قال تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(١)، ويبين النبي ﷺ أن جوهر بعثته هو تهذيب الأخلاق بقوله " إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق " ^(٢) ، إن تخلية النفس ليست عملاً لحظَةً أو عبادةً مؤقتة، بل هي مسار تربية متواصل يُخضع الإنسان نفسه فيه للمراقبة والمحاسبة حتى يبلغ درجة الإحسان. ومن هنا، كان العلماء والمربون يربطون دائماً بين علم الأخلاق والسلوك العملي، فليست الغاية مجرد معرفة الفضيلة، بل تحويلها إلى عادة وسلوك واقعي في الحياة اليومية. وهكذا تصبح تخلية النفس من الرذائل طريقاً لإصلاح الفرد، وبوابةً لبناء مجتمع راقٍ تسوده المحبة والعدل والإخلاص.

في منهج الشيخ محمد متولي الشعراوي، يعد تنقية النفس من الرذائل والآفات الأخلاقية شرطاً أساسياً للوصول إلى رضوان الله عز وجل والفلاح الحقيقي، فالقرآن الكريم يؤكد أن الله سبحانه وتعالى لا يبدل حال قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ذلك لما جاء في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنِّ وَّالٍ﴾^(٣)، وهو ما فسره الشعراوي بأن العبد عندما يعود إلى المعاصي يظلم نفسه بنفسه حيث يقول: " يُوَضِّحُ لَنَا أَنَّ أَعْمَالَ الْجَوَارِحِ نَاشِئَةٌ مِنْ نَبْعِ نَفْسٍ تُحَرِّكُ الْجَوَارِحَ؛ وَحِينَ تَصْلُحُ النَفْسُ؛ تَصْبِحُ الْجَوَارِحُ مُسْتَقِيمَةً؛ وَحِينَ تَفْسُدُ النَفْسُ تَصِيرُ الْجَوَارِحُ غَيْرَ مُسْتَقِيمَةٍ، فَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَخْضَعُ كُلَّ الْجَوَارِحِ لِإِمْرَادَاتِ النَفْسِ، فَلَوْ كَانَتِ النَفْسُ مُخَالَفَةً لِمَنْهَجِ اللَّهِ؛ فَاللسان خاضع لها؛ وَلَا يَنْطِقُ رِغْمَ إِرَادَتِهِ بِالتَّوْحِيدِ؛ لِأَنَّ النَفْسَ الَّتِي تَدِيرُهُ مُخَالَفَةٌ لِلْإِيمَانِ، وَالْمَثَلُ: هُم هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَسَبُوا الرِّسْلَ الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ؛ فَادَّعَوْا أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ؛ وَسُبْحَانَهُ مُنْزَعٌ عَنْ ذَلِكَ؛ أَمَّا إِذَا كَانَتِ النَفْسُ مُؤْمَنَةً فَهِيَ تَأْمُرُ اللِّسَانَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ؛ وَيَسْعَدُ هُوَ بِذَلِكَ؛ لَكِنَّهُ فِي الْحَالَتَيْنِ لَا يَعِصِي النَفْسَ الَّتِي سَخَّرَهَا لَهَا اللَّهُ. " ^(٤)

(١) سورة الشمس: من الآية (٧) إلى الآية (١٠)

(٢) حديث شريف: أخرجه مالك في الموطأ - كتاب حسن الخلق - باب ما جاء في حسن الخلق - رقم الحديث: ١٦١٤ ، أخرجه أحمد في المسند (٢/٣٨١) ، رقم

الحديث: ٨٩٥٢ ، الحاكم في المستدرك (٦١٣/٢) ، رقم الحديث: ٤٢٢١ ، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

(٣) سورة الرعد: آية رقم (١١)

(٤) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ١٢ - ص ٧٢٤٥

وعلى هذا المعنى جاءت الآيات القرآنية بالأمر بتزكية النفس وتهذيبها، قال الله تعالى: " قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى " (١)، وقوله سبحانه {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} (٢)

يقول ابن كثير رحمه الله في هذه الآيات: " يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى نفسه أي بطاعة الله كما قال قتادة، وطهرها من الرذائل والأخلاق الدنيئة، كقوله تعالى: "قد أفلح من تزكى" و "وقد خاب من دساها" أي دسها وأخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى، حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله عز وجل، ويحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى الله نفسه وقد خاب من دسى الله نفسه" (٣)

إن الله عز وجل أقسم في كتابه أحد عشر قسمًا على فلاح من زكى نفسه وعلى خسران من أهمل ذلك، حيث أن النفس من أشد أعداء الإنسان الداخلين لأنها تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، وسائر أمراض القلب إنما تنشأ من جانبها، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يستعيز بالله من شرها كثيرًا، كما في خطبة الحاجة (٤)، وكما في حديث أبي هريرة عند ابن أبي حاتم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ "فألهمها فجورها وتقواها" فقال: "اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها" (٥)، ويقول ابن القيم رحمه الله: "وقد اتفق السالكون على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنه لا يدخل عليه سبحانه ولا يوصل إليه إلا بعد إمانتها والظفر بها" (٦)

وينطلق المنهج الشعراوي من أن النفس إما أن تختار بين الخير والشر بإرادة واعية، والإنسان عنده دُور إمكانات كامنة، فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر، فإذا جُهدت نفسه بالورع اقتلعت عنه الرذائل (٧)، والنفس الزكية كما يعرفها هي النفس الطيبة التي خلصت بالمجاهدة من الخبائث الحسية التي تلوث الجسم فاقتصر عند تليبيتها لدوافعه من الطعام والشراب والنكاح على الطيبات، وتخلصت من الخبائث المعنوية التي تلوث الروح

(١) سورة الأعلى: آية رقم (١٤: ١٥)

(٢) سورة الشمس: من الآية (٧) الي الآية (١٠)

(٣) الحافظ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم - ج ٨ - تحقيق: سامي بن محمد السلامة - دار طيبة للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية - ط ٢ - ١٩٩٩ م - ص ٤١٢

(٤) خطبة الحاجة هي الخطبة التي كان النبي ﷺ يبدأ بها خطبه أو خطبة رسمية (مثل خطبة الزواج، أو التعليم، أو الخطبة الجامعة)، وهي تسمى "خطبة الحاجة" لأن فيها الاستعانة بالله وطلب التوفيق قبل البدء في أي أمر مهم، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا خطبة الحاجة، قال: "إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله". (أخرجه أحمد في المسند (٣٩٢/١)، رقم ٣٧٢٨)، وأبو داود في السنن (٢١١٨)، والنسائي في السنن الكبرى (٣٢٧٧، رقم ١٠٥/٣)

(٥) حديث شريف: أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب التعوذ من شر النفس ومن سيئات العمل - رقم الحديث ٢٧٢٢، وأحمد في المسند (٢٥٤/٢) - رقم الحديث: ٧٣٩٩، والنسائي في السنن الكبرى (١٦٨/٦) - رقم الحديث ١٠٥٤٧

(٦) الإمام ابن القيم الجوزية: إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان - م ٢ - دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع - مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية - ط ١ - ٢٠١٠ م - ص ٧٥

(٧) د. أمينة محمد عبد الجواد أبو يوسف: منهج الشيخ الشعراوي في تزكية النفس البشرية من خلال تفسيره - المجلد ١٠ - العدد ٤ - الجزء ٣ - مجلة الدراسات التربوية والانسانية - كلية التربية - جامعة دمنهور - البحيرة - مصر - ٢٠١٨ - ص ١٢٦ - بتصرف

فاجتنبت الاعتقاد الخبيث والقول الخبيث والفعل الخبيث^(١)، وعليه فإن من تسلم زمام هدايته للشهوات ذلت به القيود، كما يقول الشعراوي معلقاً على الأنانية: "إن فالإجرام هو الإقدام على القبائح إقداماً يجعل الإنسان عازلاً نفسه عن خير مجتمعه؛ لأنه يريد كل شيء لنفسه، وما دام كل شيء لنفسه فعامل التسلط موجود فيه، ويرتكب الرذائل، ولأنه يرتكب الرذائل فهو يريد من كل المجتمع أن تنتشر فيه مثل هذه الرذائل؛ كي لا يشعر أن هناك واحداً أحسن منه"^(٢).

فالتخلية: يقصد بها تطهير النفس من أمراضها وأخلاقها الرذيلة مثل: الشرك والرياء، والعجب، والكبر، والبغض والحسد، والشح والبخل، والغضب، والحرص على الدنيا وحبها لذاتها وإيثارها على الآخرة، والفضولية وعدم الجد في الحياة وغيرها.

ومن الأخلاق الرذيلة التي تناولها الشيخ الشعراوي رحمه الله في تفسيره هي:
أولاً: الحسد:

فالحسد هو انفعال إزاء نعمة الله عز وجل على بعض عباده مع تمنى زوالها، سواء أتبع الحاسد هذا الإنفعال بسعي منه لإزالة هذه النعمة تحت تأثير الحقد والغيط، أو وقف عند حد الإنفعال النفسي، فإن شراً يمكن أن يمكن أن يعقب هذا الإنفعال.^(٣)

فيقول أبي الحسن الماوردي: "إنه - أي الحسد - في الظاهر: شدة الأسى علي الخير أن يكون للناس الأفضل"^(٤) فالحسد آفة اجتماعية خطيرة، والحسود مخلوق عاجز عن القيام بدور طبيعي في المجتمع، وإنما كل همه الانشغال بالآخرين، وبما حققوا من نجاحات في مختلف النواحي، وقديماً قالوا: "الحسود لا يسود"، أما لماذا لا يسود فلأنه لا يحب الخير لغيره، والمسلم الحق هو من أحب لأخيه كما يحب لنفسه.

فيقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: "والحسد أمر مقطوع به رغم أنه ليس من الأمور المادية فلماذا ننكر على الحاسد أن بصره قد تصدر عنه اشعة أشف وأخف من أشعة الليزر؟"^(٥)

وأمر الحسد ثابت شرعاً كما جاء في قوله تعالى {وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ} ^(٦)، فلم يسلم رسول الله

ﷺ

من سخرية الذين كفروا واستهزائهم وقد كانوا شديدي العداوة له فيرمونه بأنظارهم غيظاً عليه وحقدًا، وذهب بعض العلماء بأن الإزلاق بالإبصار أي ماتفعله العين في المعيون أي المحسود، حيث كان العرب قديماً إذا أرادوا إيذاء أحداً في نفسه أو ماله يأتون برجل يمكث قرابة يومين أو ثلاثة أيام، لا يأكل شيئاً، ثم يرفع جانب خبائه أو خيمته،

(١) المرجع السابق

(٢) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - ص ٣٩١٥

(٣) محمد متولي الشعراوي: تفسير جزء عم - ص ٦٦٨

(٤) أبي الحسن علي بن محمد الماوردي: تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك - تحقيق: د. محيي هلال السرحان - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - لبنان - ط بدون - ١٩٨١ م - ص ١١٩

(٥) محمد متولي الشعراوي: كتاب الفضيلة والرذيلة - دار أخبار اليوم - القاهرة - ط ١ - ٢٠٠١ م - ص ٧٨

(٦) سورة القلم: أية رقم (٥٠)

فتمر به النعم والإبل فيقول: لم أرى كالיום إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه، فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقط منها ما يسقط سريعاً، فكان الذين كفروا ياتون بهذا الرجل لينظر الي رسول الله ﷺ نظر العائن لعله يصصره بنظره.^(١)

والحاسد عضو فاسد روحياً وأدبياً وأخلاقياً، فمن سمو الأخلاق ونبل المكارم ألا يكون الإنسان حسوداً، فالحسد دفع بقبائل إلى قتل أخيه هابيل، والحسد دفع بأخوة يوسف إلى إلقائه في الجب، وأتوا على قميصه بدم كذب مدعين أن الذئب أكل يوسف، بينما في حقيقة الأمر كانوا ينوون التخلص من أخيهم ليخلو لهم وجه أبيهم، وعلى أية حال الحسد لا يداخل إلا الضعفاء من البشر، والحسد لا يتجانس إلا مع النفوس الرديئة، والحساد عبر العصور أحرقوا ودمروا وتقلوا وعاثوا في الأرض فساداً.

يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: "إذا حسد الحاسد، ووجه إنفعلاً نفسياً معيناً الي المحسود، فلا سبيل لنفي أثر هذا التوجيه لمجرد ان ما لدينا من العلم أدوات الإختبار لا تصل الي سر هذا الأثر وكيفيته، فنحن لا نعلم إلا القليل في هذا الميدان وهذا القليل يكشف لنا عنه مصادفة في الغالب، ثم يستقر كحقيقة واقعة بعد ذلك."^(٢)

ثانياً: الكبر:

يرى الشعراوي أن الكبر هو أول معصية في الكون مستدلاً على ذلك قصة ابليس، نموذجاً تاسيسياً لفهم هذا المفهوم، فعندما خلق الله آدم عليه السلام، امر الملائكة بالسجود له تكريماً، قال تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(٣)، فيقول الشيخ الشعراوي: "الملائكة هنا لم يسجدوا لأدم، ولكنهم سجدوا لأمر الله بالسجود لأدم، وفرق كبير بين السجود لشيء وبين السجود لأمر الله، فالسجود لأمر الله سبحانه وتعالى لا يعتبر خروجاً عن المنهج، لأن الأساس هو الطاعة لله"^(٤)

إذاً فإن منشأ الكبر هو الالباء والاستعلاء عن الامتثال للحق مع وضوحه، وهو ما عبر عنه ابليس في قوله تعالى ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾^(٥)، اذ اسس موقفه على معيار وهمي للتفضيل، قائم على مادة الخلقة لا على ميزان الطاعة، مما جعله اول من اسس للكبر القائم على المقاييس الباطلة.

ثالثاً: الإسراف:

فالإسراف هو مجاوزة الحد في كل فعل أو قول، وهو في الإنفاق أشهر^(٦)، حيث يرى الشيخ الشعراوي أن الإسراف رذيلة تنشأ عن خلل في فهم الإنسان لقيمة النعمة، فالنعمة ليست ملكاً للإنسان بل هي عارية عنده والواجب أن

(١) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٢٦ - ١٦٣٠٨

(٢) محمد متولي الشعراوي: تفسير جزء عم - ص ٦٦٨

(٣) سورة البقرة: أية رقم (٣٤)

(٤) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ١ - ص ٢٥٤

(٥) سورة الأعراف: أية رقم (١٢)

(٦) الحافظ ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري - م ١٠ - المكتبة السلفية - مصر - ط ١ - ١٩٧١ م - ص ٢٣٥

تستعمل في مواضعها التي شرعها الله عز وجل، ويستشهد بقوله تعالى: "يُنَبِّئُ عَادَ خُدُوءَ زَيْنَتِكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ" (١)

يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: "والمأكل والمشرب من الأمور المباحة لأن فيها مقومات الحياة، وكل واشرب على قدر مقومات الحياة ولا تسرف، فقد أحل الله لك الأكثر وحرم عليك الأقل، فلا تتجاوز الأكثر الذي أحل لك إلى ما حرم الله؛ لأن هذا إسراف على النفس، بدليل أنه لو لم تجد إلا الميتة، فهي حلال لك بشرط ألا تسرف، ولا يصح أن تتقل الأشياء من تحليل إلى تحريم؛ لأن الله جعل لك في الحلال ما يغنيك عن الحرام، فإذا لم يوجد ما يغنيك، فالحق يحل لك أن تأخذ على قدر ما يحفظ عليك حياتك، والمُسرفون هم المتجاوزون الحدود، ولا سرف في حل، إنما السرف يكون في الشيء المحرم" (٢)، فلإسراف صورتان:

- **إسراف مادي:** كالبدخ في المعيشة أو تبديد الأموال في غير منفعة.
 - **إسراف معنوي:** كالتساهل في تضييع الوقت، أو إطلاق اللسان بما لا يفيد، أو الانغماس في الشهوات.
- ومثال على ذلك نجد رجل قد أسرف على نفسه في تناول صنف معين من الطعام كالسكر مثلاً فوق ما تدعو إليه الحاجة، فكان سنة الله الكونية تقول له: لقد أخذت أكثر من حاجتك وبسبب ذلك صرت مريضاً، فإياك أن تتناول السكريات مرة أخرى، ويظل المريض بالسكر يشتهي الحلوي، ويملك القدرة على شرائها ولكنها ممنوعة عليه، وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول له: بظلم منك لنفسك حرمت على نفسك ما أحلته لك. (٣)
- رابعاً: الظلم:**

يقول الحق سبحانه وتعالى {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ} (٤)، ان الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، سواء كان ذلك في حق الله عز وجل أو في حق الخلق أو في حق النفس، حيث ان الإنسان هو الذي يظلم نفسه، وهو ما قاله سبحانه وتعالى على لسان نبيه موسى عليه السلام {قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي} (٥)، وقوله تعالى {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ} (٦)، وان الظلم لا يكون فقط بالاعتداء المادي، بل يشمل كل تصرف يخالف ميزان العدل الذي وضعه الله سبحانه وتعالى.

يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: "الظلم اذ، انتقاص حق الناس، فما بالنا عندما ينتقص الانسان من حق نفسه، أي: أن يظلم نفسه، وظلم النفس هو أبشع ألوان الظلم فالنفس كرمها الله وخلقها، فقد كانت تستحق من الانسان أن يربها وأن يحقق مراد الله منها، وأن يمنع عنها الحاح اشتهاها ما يغضب الله، ويقول الحق سبحانه وتعالى {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا

(١) سورة الأعراف: أية رقم (٣١)

(٢) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٧ - ص ٤١١٣

(٣) محمد متولي الشعراوي: الفضيلة والرذيلة - دار أخبار اليوم - القاهرة - ط ١ - ٢٠٠١ م - ص ٨١

(٤) سورة فصلت: أية رقم (٤٦)

(٥) سورة القصص: أية رقم (١٦)

(٦) سورة فاطر: أية رقم (٣٢)

فُحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (١) " (٢)

يقول ابن القيم رحمه الله: " الظلم عند الله عز وجل يوم القيامة له دواوين ثلاثة:

ديوان لا يغفر الله منه شيئاً، وهو الشِّرك به؛ فإن الله لا يغفر أن يشرك به، وديوان لا يترك الله تعالى منه شيئاً، وهو ظلم العباد بعضهم بعضاً؛ فإن الله تعالى يستوفيه كله، وديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه عز وجل؛ فإن هذا الديوان أخف الدواوين وأسرعها محواً، فإنه يُمحى بالتوبة والاستغفار، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ونحو ذلك، بخلاف ديوان الشرك، فإنه لا يُمحى إلا بالتوحيد، وديوان المظالم لا يُمحى إلا بالخروج منها إلى أربابها، واستحلالهم منها " (٣)

إن ظلم النفس يعني أن يبيع الإنسان دينه بدنياه غيره، فهو لا يحقق لنفسه أي نفع آجل أو عاجل.

خامساً: السخرية والاستهزاء بالناس:

السخرية والاستهزاء من الأفعال المحرمة؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ} (٤)، وصور السخرية متعددة، ومنها: النظر بعين الاحتقار والاستهانة أو الكلام بإظهار العيوب والنقائص أو المحاكاة بالفعل والقول؛ كأن يقلد أحدهم شخصاً في مشيته أو طريقته في الكلام بغرض إضحاك للناس عليه، ولقد روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وفيه أنها قالت: "حاكيتُ إنساناً، فقال لي رسول الله ﷺ: والله ما أحب أني حاكيت إنساناً ولي كذا وكذا". (٥)

يؤكد الشيخ الشعراوي رحمه الله أن السخرية والاستهزاء من أخطر الرذائل الاجتماعية؛ لأنها تفسد العلاقات الإنسانية وتشوّه الفطرة السوية التي تقوم على الاحترام والتقدير، يقول رحمه الله: " الحق سبحانه وتعالى حينما ينهانا عن السخرية، إنما يريد المساواة بين جميع خلقه، فالخلق جميعاً خلقه وصنعتة وعبده، وليس فيهم من هو ابن الله، ولا من بينه وبين الله قرابة، فلم إذن يسخر بعضنا من بعضه؟" (٦)

إن الإستهزاء بالناس أو السخرية من عيوب أحد الناس هو دليل على عدم تمكن الإيمان من النفس، وذلك بان الله خالق لكل البشر، فهذا المخلوق الذي به عيب خلقي، ليس له دخل في ذلك العيب، وإنما هي مشيئة الله الذي خلق هذا المخلوق على تلك الصورة لحكمة اقتضت ذلك لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

(١) سورة آل عمران: أية رقم (١٣٥)

(٢) محمد متولي الشعراوي: الفضيلة والرذيلة - دار أخبار اليوم - القاهرة - ط ١ - ٢٠٠١ م - ص ٨٥

(٣) الإمام ابن القيم الجوزية: الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب - تحقيق: عبدالرحمن بن حسن بن قائد - دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع - مكة المكرمة - ط ١ - ٢٠٠٤ م - ص ٤٠

(٤) سورة الحجرات: أية رقم (١١)

(٥) حديث شريف: أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة - باب ما جاء في الغيبة - رقم الحديث (٢٥٠٢) - وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. / وأخرجه أبو داود في كتاب الأدب - باب في الغيبة - رقم الحديث (٤٨٧٥) - وإسناده حسن كما حكم عليه أبو داود.

(٦) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٢٣ - ص ١٤٤٦٠

والسخرية والإستهزاء لا يكونان الي في إنسان علا في شيء أمام إنسان نقص في هذا الشيء كأن يسخر الغني من الفقير، أو القوي من الضعيف، أو سليم الهيئة والتكوين من المعاق، وهذا السلوك نتيجة الغفلة عن ميزان التفاضل بين الخلق جميعاً، ألا و هو التقوي، ويضرب الشيخ الشعراوي رحمه الله مثلاً علي ذلك فيقول: "قلنا انك لو نظرت في الوجود كله لوجدت فيه قضية عادلة، هي ان كل انسان منا، مجموع نعم الله عليه تساوي مجموع أي إنسان آخر، لأن الخالق سبحانه وزع فضله علي عباده لكن هذا أخذ ١٠٠٪ في العقل وهذا اخذ ١٠٠٪ في الصحة لكن المجموع في المهاية متساو" (١)

ان الحق سبحانه وتعالى يأمر كل المؤمنين بألا يسخر أحد من أحد , لأن كل انسان فيه من الخصال الحميدة التي تعمى عنها بصيرة الساخر، وقد يكون في الساخر نفسه بعض الخصال السيئة التي لا يحب أحد أن يسخر منها. ان في السخرية خروجاً عن مقتضى الايمان الكامل، وظلماً للغير والنفس، ويجب أن نعرف أن الله قد وزع علينا الصفات والمواهب المختلفة بدرجات متفاوتة، ولكن اخيراً يتساوى مجموع الصفات والمواهب المختلفة بدرجات متفاوتة، ولكن أخيراً يتساوى مجموع صفات كل انسان مع صفات أي انسان.

سادساً: الفساد:

يعدّ الشيخ الشعراوي الفساد أحد أخطر الرذائل التي تهدد بقاء المجتمع، لأنه خروج عن نظام الله عز وجل في الكون، وتعطيل لمقاصد الشريعة، واعتداء على حقوق الخلق، ويستدل بقوله تعالى {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} (٢)، فيقول الشيخ الشعراوي: " الأرض هي مكان الخليفة وهو الإنسان، وفيها الأسباب الأصلية لاستبقاء الحياة والسماء والأرض والشمس والهواء كلّ مسخر لك، ولا تحتاج إلى تكليف فيه، فلا أنت تقول " يا شمس أشرقي " أو " يا هواء هب " فكل ذلك مسخر لك، وأنت مطالب ألا تفسد فيما لك فيه اختيار؛ لأنك لا تستطيع أن تفسد قوانين الكون العليا، لا تستطيع أن تغير مسار الشمس ولا مسار القمر ولا مسار الرياح، وأنت لن تستطيع إصلاح ما لا يمكن أن تقترب من إفساده، لأن أمره ليس بيدك لأنه لا اختيار لك فيه، وإنما يأتي الإفساد من ملكات الاختيار الموجودة فيك، ولم يتركنا الله أحراراً فيها، بل حددها بمنهج يحمي حركة الحياة ب " افعل " و " لا تفعل "، فإذا كان سبحانه قد أنزل قرآنًا، والقرآن فيه منهج يحمي اختيارك إذن فقد أعطاك عناصر الإصلاح ولذلك يقول لك: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا} (٣)

يقول ابن كثير رحمه الله: "نهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضره بعد الإصلاح، فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك، كان أضر ما يكون على العباد، فنهى الله تعالى عن ذلك، وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه" (٤)

(١) المصدر السابق: ص ١٤٤٦١

(٢) سورة الأعراف: أية رقم (٥٦)

(٣) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٧ - ص ٤١٧٩

(٤) الحافظ ابن كثير رحمه الله: تفسير القرآن العظيم - ج ٣ - تحقيق: سامي بن محمد السلامة - دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض - المملكة العربية السعودية -

ط ٢ - ١٩٩٩ م - ص ٤٢٩

إذاً الفساد في الأرض جريمة كبرى، لا تضاهيها جريمة إلا جريمة الشرك بالله، وهذه الجريمة جريمة شاملة، تشمل فساد الأنفس، وفساد القلوب، وفساد العقول، وفساد الأرواح، أي الفساد الداخلي والخارجي، لذلك ربطه الله سبحانه وتعالى بين سلامة القلب وبين سلامة الإنسان في الآخرة.

ويرى الشيخ الشعراوي أن الفساد يبدأ في النفس قبل أن يظهر في المجتمع؛ فحين تفسد القلوب بالكبر، أو الجشع، أو الشهوة، ينعكس ذلك على السلوك الخارجي في صورة ظلم، ورشوة، وغش، وتلاعب بالحقوق. ويؤكد أن الفساد ليس فعلاً منعزلاً، بل حالة عامة تصيب العقل، فيصبح الإنسان عبداً لأهوائه، ويبرر الخطأ بعقل منطقي ظاهري، وهو ما يسميه الشيخ الشعراوي بالهوي الذي يزين للإنسان سوء عمله. ^(١)

ويفسر الشعراوي أنواع الفساد إلى ثلاثة مستويات:

فساد الاعتقاد: وهو أخطرهما، لأنه يقطع صلة الإنسان بالله، ويحوّل العقل إلى أداة تبرير للباطل.

فساد الأخلاق: مثل الكذب، الخيانة، الحقد، والفسق، وهي مظاهر يرى أنها تُصيب المجتمع بالاضطراب الداخلي. الفساد العملي والاجتماعي: كالرشوة، وأكل المال الحرام، والغش التجاري، وتضييع الأمانات، والتلاعب بالوظائف، واعتبار المنفعة الشخصية فوق الصالح العام. ^(٢)

اذن، فالافساد في الأرض هو من أثر هواه على منهج الله، مثل الذي يأكل أموال الناس بالباطل ويكثر من اغتصاب عرق وتعب الآخرين فهذا انسان لا يطبق منهج الله وهو مفسد في الأرض، قال تعالى {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} ^(٣)، يقول الشيخ الشعراوي في تفسيره للآية الكريمة: "فالمعني {ظَهَرَ الْفَسَادُ} أي غلب الصلاح وعلا عليه، والكون خلقه الله تعالى علي هيئة الصلاح، واعد له لإستقبال الغنسان إعداداً رائعاً، وللتأكد من صدق هذه المسألة انظر في الكون وأجناسه وأفلاكه وأجوائه، فلن تري فساداً إلا فيما تتناوله يد الإنسان، أما مالا تتناوله يد الإنسان، فلا تري فيه خلائاً؛ لأن الله خلقه منسجم الأجناس منسجم التكوين، لقوله تعالى {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} ^(٤) " ^(٥) إذاً، فالفساد يأتي حينما تتدخل يد الإنسان في شيء وهو يعلم قانون الله عز وجل في إفعول ولا تفعل، إما الصلاح فموجود وفيه مناعة يكافح بها الفساد إن علا تيار الفساد وظهر علي الصلاح وغلبه بان للناس.

(١) محمد متولي الشعراوي: درس الجمعة: "الفساد وأنواعه" - مسجد عمر مكرم - القاهرة - مفرغ مكتبة الشعراوي الصوتية - بدون تاريخ

(٢) المصدر السابق

(٣) سورة الروم: آية رقم (٤١)

(٤) سورة يس: آية رقم (٤٠)

(٥) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ١٨ - ص ١١٤٧٢

الفصل الثالث

تزكية النفس بالفضائل في فكر الشعراوي

مقدمة: يشمل هذا الفصل ثلاث مباحث:

المبحث الأول: المداومة على طاعة الله:

يتناول هذا المبحث أهمية الالتزام الدائم بطاعة الله في حياة الإنسان، باعتباره الأساس الأول لتزكية النفس واستقرار الروح. فالمداومة على الطاعة لا تقتصر على أداء العبادات الشكلية، بل تشمل أيضاً سلوكيات الإنسان اليومية، والتزامه بالقيم والمبادئ التي تنظم حياته، ومن خلال هذا الالتزام، تتولد لدى الفرد حالة من الاتزان النفسي والطمأنينة الروحية، كما تعزز صلته بالخالق وتزيد من إحساسه بالمسؤولية تجاه نفسه والمجتمع، ويهدف المبحث إلى إبراز أثر المداومة على الطاعة في تقوية الإرادة وتحقيق الانضباط الذاتي، مما يشكل قاعدة صلبة لبناء الشخصية الفاضلة.

المبحث الثاني: التخلق بالأخلاق الفاضلة:

يركز هذا المبحث على أهمية اكتساب الفرد للأخلاق الفاضلة والسمات الحميدة التي تجعل منه شخصاً صالحاً في المجتمع، فالأخلاق الفاضلة تشمل الصدق، والأمانة، والرحمة، والتواضع، وغيرها من الصفات التي تعمل على تهذيب النفس وتنمية الحس الإنساني، ويعالج المبحث الطرق التي يمكن من خلالها ترسيخ هذه القيم في حياة الفرد اليومية، سواء من خلال التربية، أو التعلم، أو التطبيق العملي في العلاقات الاجتماعية. كما يوضح كيف أن التخلق بهذه الأخلاق يسهم في بناء مجتمع متماسك يقوم على الاحترام المتبادل والتعاون والتسامح، مما يجعل الفضيلة أسلوب حياة وليس مجرد سلوك وقتي.

المبحث الثالث: كظم الغيظ والمعاملة بالإحسان:

يتناول هذا المبحث جانباً مهماً من تزكية النفس يتعلق بالتحكم في المشاعر السلبية كالغيظ والغضب، والتعامل مع الآخرين بروح التسامح والإحسان، فكظم الغيظ ومواجهة المواقف الصعبة بالصبر والهدوء يُعدان من أبرز الفضائل التي تعزز التوازن النفسي وتدعم السلام الداخلي، كما أن المعاملة بالإحسان، سواء في الأقوال أو الأفعال، تساهم في تعزيز الروابط الاجتماعية وتوطيد علاقات قائمة على الاحترام والمحبة، ويبرز المبحث أثر هذه الفضائل على الفرد والمجتمع، مؤكداً أن القدرة على ضبط النفس والتصرف بإحسان ليست مجرد فضيلة أخلاقية فحسب، بل هي وسيلة فعالة لنمو الشخصية الروحية والاجتماعية بشكل متكامل.

المبحث الأول

المداومة على طاعة الله

المداومة على طاعة الله عز وجل هي سمة من سمات المؤمن الصادق، وعلامة على صدق الإيمان واستقراره في القلب، فالمؤمن لا يقتصر على أداء الطاعة في أوقات معينة أو مناسبات خاصة، بل يجعل من طاعة الله منهجاً دائماً في حياته، فيطيع ربه في السر والعلن، في السراء والضراء، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(١)، وترتبط المداومة على الطاعات بعملية التزكية؛ إذ تؤدي الطاعات الدائمة كالصلاة والذكر والصيام والصدقة إلى تنظيف القلب من شوائب الكبر والهوى والغل، وزرع معاني الإخلاص والخشية فيه.

فعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حبة لك أو عليك، كل الناس تغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها "^(٢)

يندرج تصور الشيخ محمد متولي الشعراوي للطاعة ضمن رؤية فلسفية دقيقة لمفهوم الحرية الإنسانية، حيث يقرر أن الإنسان " مقهور في أشياء، ومخير في أشياء"، وأن مجال التكليف هو الحيز الوحيد الذي تتجلى فيه الحرية الحقيقية، وبالارتباط حول انسجام الإرادة مع النظام الأخلاقي المقدس، تصبح المداومة على الطاعة فعلاً وجودياً واعياً، لا استسلاماً سلبياً، فالإنسان، حين يداوم على طاعة الله، لا يتنازل عن حريته، بل يحرر نفسه من أشكال القهر الداخلي المتمثلة في سلطان الشهوة والهوى، وبهذا المعنى، تمثل الطاعة المستمرة انتقالاً من الحرية الغريزية إلى الحرية القيمية، وهي النقلة التي تُعد شرطاً فلسفياً لتزكية النفس في فكر الشيخ الشعراوي رحمه الله.^(٣)

والشيخ الشعراوي يوضح أن طاعة الله سبحانه وتعالى تنبع من الإيمان به، فالمؤمن حينما يؤمن بالله حكيماً خالقاً فإنه يسمع ما يريد أن يقوله، وعند تنفيذ أوامره تتأيد نفس المطيع بالخضوع والخشية مستشهداً بما جاء في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٤).

يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: " وهل الحق سبحانه وتعالى قال: يا أيها الناس أطيعوا الله وأطيعوا الرسول؟ لا، لم يقل ذلك، لقد قال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، إذن فما دمت قد آمنت بالله إلهاً حكيماً خالقاً عالماً مكلفاً فاسمع ما يريد أن يقوله لك، فلم يكلف الله مطلق أناس بأن يطيعوه، إنما دعا مطلق الناس أن يؤمنوا به، ومن يؤمن يقول له: أطعني ما دمت قد آمنت بي، إذن فحيثية الطاعة لله وللرسول صلى الله عليه وسلم نشأت من الإيمان بالله وبالرسول، وهذه عدالة كاملة؛ لأنه سبحانه لا يكلف واحداً أن يفعل فعلاً إلا إذا كان قد آمن به سبحانه مكلفاً، آمن به أمراً، أما الذي

(١) سورة الحجر: أية رقم (٩٩)

(٢) حديث شريف: أخرجه مسلم في كتاب الطهارة - باب فضل الوضوء - رقم الحديث (٢٢٣) / وأخرجه الترمذي في كتاب الإيمان - باب ما جاء أن الطهور

شطر الإيمان - رقم الحديث (٣٥١٧) / وأخرجه أحمد في المسند - رقم الحديث (٢٢٩٠٨)

(٣) محمد متولي الشعراوي: تفسير جزء عم - م ٢٧ - ص ٣٨٨ / بتصرف

(٤) سورة النساء: أية رقم (٥٩)

لا يؤمن به فهو لا يقول له: افعل كذا ولا تفعل كذا، إنه سبحانه يطالبه أن يؤمن به أولاً، فإذا ما آمن به يقول له: استمع إلي، ولذلك تجد كل تكليف يصدر بقوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} ^(١)

يقول الحق سبحانه وتعالى {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} ^(٢)، نلاحظ هنا أن الحق سبحانه لم يكرر أمر الطاعة، بل جعل الأمر واحداً، هو "أطيعوا"، فإذا سألنا من المطاع؟ تكون الإجابة الله عز وجل والرسول ﷺ معاً، حيث أن طاعة المؤمنين للرسول من طاعة الله، والرسول ﷺ لم يأمرنا بطاعته، ولكنه يأمرنا بطاعة الله، ولذلك لم يكرر الحق أمر الطاعة، بل إن الحق هنا يوحد أمر الطاعة فيجعلها لله وللرسول معاً، إنه يعطف على المطاع الأول وهو الله بمطاع ثانٍ هو الرسول ﷺ ^(٣)، ويقول الحق في كتابه العزيز {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} ^(٤)

في الإطار العقدي الإسلامي، تعد المداومة على طاعة الله الوسيلة المحورية لتزكية النفس وتنقيتها، يشير القرآن إلى أن مسؤولية التغيير تقع على عاتق الإنسان ذاته لقوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} ^(٥) ما يؤكد أن الالتزام المستمر بنهي الله هو الشرط اللازم لرفع حال الفؤاد. وعندما تغتسل النفس من الذنوب تنفتح أمامها سبل النجاح الحقيقي، كما ورد في قوله تعالى {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} ^(٦)، فالأحاديث تدل "على أن كل إنسان ساعٍ في هلاك نفسه، أو في فكاكها، فمن سعى في طاعة الله فقد باع نفسه لله، وأعتقها من عذابه، ومن سعى في معصية الله فقد باع نفسه بالهوان، وأوبقها بالآثام الموجبة لغضب الله وعقابه" ^(٧)، في إشارة إلى امتلاك العبد نفسه وانعتاقها من العقاب.

بالمحصلة، فإن الثبات على أداء الفرائض وترك المحظورات يحدث نقلة تكاملية في مستوى الإيمان، بحيث تصعد النفس روحياً وتتحقق سلامتها الخلقية.

يكن أثر المداومة على الطاعة في انسجام الإرادة البشرية مع نظام أخلاقي مقدس، إذ تؤدي الانضباطات التعبدية المتكررة إلى ترسيخ عادات فاضلة، فيرتقي بها التطوير الذاتي إلى فضائل مثل الصبر والانضباط والأمانة، ويُعد هذا التأهيل النفسي للأخلاق تعبيراً عن رسم الذات هدفاً سامياً، حيث يُغذي التفاعل المستمر مع الميثاق السماوي معنى الوجود، وبذلك تتحول الطاعة الدؤوبة إلى تدريب ذاتي يثري الفكر وتقوي الإرادة، عاكساً مبدأً فلسفياً مفاده أن السعي المستمر نحو الخير الإلهي يُكوّن الشخصية الأخلاقية الواعية ويسهم في تحقيق تكاملها.

(١) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٤ - ص ٢٣٥٦

(٢) سورة آل عمران: أية رقم (٣٢)

(٣) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٣ - ص ١٤٢٣

(٤) سورة النور: أية رقم (٥٤)

(٥) سورة الرعد: أية رقم (١١)

(٦) سورة الشمس: أية رقم (٩)

(٧) الإمام بن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم - ج ٢ - تحقيق: شعيب الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٨ - ١٩٩٩ م - ص ٢٨

يتجلى أثر المداومة على الطاعة كشعاع ينير النفس من الداخل، فهي بنبويًا تحقق صلة روحية مشددة تعمل على تحصين العبد من آفات نفسه؛ حيث أن الاستمرار على العمل الصالح سبب لتهديب النفس وسموها على الشهوات، فكل عمل صالح يزيد الإيمان بحسبه؛ إن كان صغيراً أو كبيراً، قليلاً أو كثيراً، وكل طاعة تجر إلى غيرها؛ فعن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: " عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً " (١) ويقول شداد بن أوس: إذا رأيت الرجل في طاعة الله فاعلم أن عنده أخواتها، وإذا رأيت الرجل في معصية الله فاعلم أن عنده أخواتها. (٢)

يرى الشيخ الشعراوي أن فطرة الإنسان بطبيعتها تميل إلى الاعتراف بالله والسير على منهجه، فقد أشار إلى أن الإنسان بفطرته إن رأى ما يسعده، لا يجد تعبيراً أقوى من أن يقول: " الله "، وهي صيحة التقدير والتقدير لله الذي أعطاه موهبة إتقان العمل، وتتجلى العبرة الكاملة أيضاً عندما يدهم الإنسان الخطر فيقول بفطرته: " يارب "، إذن فلا ملجأ إلا إلى الله. (٣)

يقارب الشيخ الشعراوي الطاعة والعبادة ضمن نظام كوني ثابت، فهو يوضح أن الله سبحانه وتعالى سن في الخلق قوانين ثابتة لا تتبدل أبداً، وأن مساحة الطاعة لله عز وجل تقع ضمن مناط الألوهية الخاص بالربوبية الإلهية فيقول: " مناط الربوبية خلق من عدم وإمداد من عدم، ومناط الألوهية طاعة، والطاعة تقتضي أمراً ونهياً، فكل ما كان من مدلول الأمر والنهي - الذي هو التكليف - فهذه مطلوبات الألوهية، وكل ما كان من مطلوبات السنن الكونية فهو من مناط الربوبية، والسنن الكونية لا تتخلف أبداً " (٤)

يعني ذلك أن العبادات وسلوك المؤمن مرتبطة بأمر الله وتعاليمه، بينما جداول الكون المادية تسير وفق سنن ثابتة؛ فمثلاً: لا ينال الطالب النجاح إلا باتباع قانون النجاح المعين، تماماً كما لا يكون للإنسان مدخل في سنن الكون نفسه، حيث المداومة على الطاعات امتثالاً لإرادة الله التي تنسجم مع حكمة الخلق، فإذا استمر المسلم في فعل الخير بانتظام، فإنه ينسجم عملياً مع النظام الكوني الذي خلقه الله مُوحداً فيها الغاية والوسيلة؛ فالطاعة المتواصلة تعزز انسجام الفرد مع سنن الكون الإلهية وتؤدي إلى نتائج إيجابية في تزكية النفس ونماء الإيمان.

لقد بين النبي ﷺ أن أعظم حب في الوجود هو حب الله عز وجل، وإنما الطريق إليه أن يأتي الإنسان بالفرائض ويتبعها بالنوافل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: قال الله عز وجل: "من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه،

(١) حديث شريف: أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الأدب - باب: قول الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ - حديث رقم (٦٠٩٤) / وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب - باب: قبح الكذب وحسن الصدق وفضله - حديث رقم (٢٦٠٧) / وانظر: الترمذي - سننه - كتاب البر والصلة - باب ما جاء في الصدق والكذب - رقم الحديث (١٩٧١) وقال: حسن صحيح.

(٢) الحافظ الإمام ابن أبي الدنيا: الصمت وآداب اللسان - تحقيق: نجم عبدالرحمن خلف - دار الغلب الإسلامي - بيروت - ط ١ - ١٩٨٦ م - ص ٨٠

(٣) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٦ - ص ٣٦٩٢

(٤) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٤ - ص ٢٤٤٣

فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه" (١)

يعني أن جوارحه تكون مصروفة مهياً لطاعة الله، فلا يرى إلا ما يرضي الله، ولا يأتي إلا ما يرضي الله جل وعلا، ولا يسعى إلا إلى ما يرضي الله جل وعلا، وهذه أعظم نعمة على العبد أن يحبب الله إليه الطاعات ويزينها له، فيقبل عليها.

ينطلق الإنسان من مسلمة نفسية مفادها أن الصراع الداخلي هو أصل الشقاء الإنساني، وأن التناقض بين الإيمان النظري والسلوك العملي يولد اضطراباً دائماً في النفس، وفي هذا السياق، تؤدي المداومة على الطاعة إلى تضيق الفجوة بين ما تؤمن به النفس وما تمارسه، وهو ما يحقق الاتساق الداخلي كأحد مؤشرات الصحة النفسية، فالطاعة المستمرة تعيد تنظيم البنية القيمية للنفس، وتُسقط حالة الازدواج بين القول والفعل، مما يجعل التزكية عملية توحيد داخلي، لا مجرد تهذيب أخلاقي خارجي.

يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: " الحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا أن نؤمن به فهذه الطاعة ليست لصالح الله ولكن لصالح البشر، فالله سبحانه قد خلقنا وهو غني عنا ولا يطلب منه شيئاً لصالحه، ثم إن طاعتنا لا تضيف إليه سبحانه شيئاً، وحتى خلقه لنا لا يضيف له صفة جديدة، بل هو سبحانه خالق قبل أن يخلقنا، والحق سبحانه وتعالى يريد منا الطاعة باختيارنا، لا بالاكراه، ولا بالقهر، فالعبد يعبد الله تعالى لأنه سبحانه وحده المستحق للعبادة، يعبد طاعة له باختياره، فالعبد كما هو معلون منحه الله تعالى حق الاختيار في أن يؤمن أو لا يؤمن، فإذا اختار الإنسان الطاعة على المعصية فهو محب لله فعلاً، فهناك فرق بين من يقره الله على الطاعة، وبين من يذهب إلى الطاعة باختياره. (٢)

(١) حديث قدسي: أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الرقاق - باب التواضع - حديث رقم (٦٥٠٢) / وهو أصح طرقه، وتفرد به عن أصحاب الكتب الستة، وما جاء في غيره فيما مرسل أو ضعيف

(٢) محمد متولي الشعراوي: الفضيلة والريادة - دار أخبار اليوم - القاهرة - ط ١ - ٢٠٠١ م - ص ١٦

الفصل الثاني

التخلق بالأخلاق الفاضلة

تُعد الأخلاق الفاضلة أحد المرتكزات الأساسية في بناء الإنسان الفرد والمجتمع، إذ تمثل الإطار القيمي الذي يوجه السلوك الإنساني ويضبط علاقته بذاته وبالآخرين، وقد حظي موضوع الأخلاق بمكانة مركزية في التراث الإنساني عامة، وفي الفكر الإسلامي خاصة، بوصفه مجالاً جامعاً بين البعد العقدي والتشريعي والنفسي، فالأخلاق ليست مجرد مجموعة من القواعد السلوكية، بل هي منظومة داخلية تُشكل وعي الإنسان وتحدد نمط استجابته للمواقف المختلفة، كما أن القيم الأخلاقية الفاضلة تسهم في تحقيق الاتساق الداخلي للنفس، وتحد من الصراع بين المعتقد والسلوك.

ومن هذا المنطلق، ارتبطت الأخلاق في التصور الإسلامي بتزكية النفس وتهذيبها، لا بالامتثال الخارجي المجرد، وقد تناول المفكرون والفلاسفة المسلمون الأخلاق بوصفها ثمرة للإيمان ونتيجة للاستقامة، وليست مجرد التزام شكلي، كما أسهمت الدراسات النفسية الحديثة في إبراز الدور العميق للأخلاق في تعزيز الصحة النفسية والاستقرار الوجداني، وعليه، فإن دراسة الأخلاق الفاضلة تمثل مدخلاً علمياً لفهم العلاقة بين القيم والسلوك، وبناء الشخصية الإنسانية المتوازنة.

لقد عرف الشيخ الشعراوي الأخلاق قائلاً: "الخلق هو الصفات التي تؤهل الإنسان لأن يعيش في مجتمع سليم وهو مسالم، ومادام خلقه سليماً فمعيار الحكم عنده سليم".^(١) ونري الإمام الغزالي رحمه الله قد عرف الخلق الحسن قائلاً: " بأنه إصلاح القوى الثلاث: قوة التفكير، وقوة الشهوة، وقوة الغضب ".^(٢)

وعرفه أيضاً: " الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً، سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً".^(٣)

قال الجرجاني: " (الخلق) عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة الي فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً بسهولة، سُميت الهيئة: خلقاً حسناً، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة، سُميت الهيئة: خلقاً سيئاً ".^(٤)

ويقول ابن منظور: " وفي التنزيل {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} ^(٥)، والجمع أخلاق، والخلق: السَّجِيَّة، وقال: الخلقُ بضم اللام وسكونها: هو الدين والطبع والسَّجِيَّة" ^(١)

(١) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٢٦ - ص ١٦١٨٨

(٢) زكي مبارك: الأخلاق عند الغزالي - مؤسسة هندواي - وندسو - المملكة المتحدة - ط بدون - ٢٠١٢ م - ص ١٤٨

(٣) زكي مبارك: المصدر السابق

(٤) العلامة علي بن محمد بن علي الجرجاني: التعريفات - تحقيق: إبراهيم الأبياري - دار الكتاب العربي - بيروت - ط ١ - ١٩٨٥ م - ص ١٣٦

(٥) سورة القلم: آية رقم (٤)

إن الأخلاق الإسلامية هي التي أمر الله عز وجل بها في كتابه العزيز، أو أمر بها رسوله الكريم ﷺ، أو مدح أهلها وأثنى عليهم ووعدهم عليها بالأجر العظيم والفوز الكبير، ومنها الأخلاق التي وعد الله عز وجل والرسول ﷺ من تركها وهجرها الجزاء الحسن، فإن ترك المذموم من الخلق الممدوح، وفعل المأمور وترك المحظورات هو جماع الأخلاق التي أمر الله سبحانه وتعالى بها ودعا إليها أو أمر بها الرسول ﷺ ودعا إليها أو مدح أهلها، وهذه هي العبادة التي خلق لها الثقلان في قوله تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }^(١)، والمعنى: يعبدونه بفعل المأمور من صلاة وصوم، وأعظم ذلك توحيده والإخلاص له، وترك المحظور الذي نهى عنه، وأعظم ذلك الشرك بالله ودعوة غيره معه وسائر أنواع الكفر والضلال، وهذه الأخلاق التي هي فعل المأمور وترك المحظور هي التي بعث الله بها الرسل جميعا عليهم الصلاة والسلام من عهد سيدنا آدم عليه السلام الي خاتم الأنبياء والرسل سيدنا محمد ﷺ، حيث يقول الشيخ الشعراوي: " والعبادة تعني طاعة العابد للمعبود في أمره ونهيه، وهذه العبادة بهذا المعنى هي العبادة الحق وهو مطلوب الله من العباد لذلك لا يقبل الله إلا ما كان له مخلصاً، وهذه العبادة الحق لا يأتي بها كل الخلق بل يأتي كلٌ منهم علي قدر روحه وعلي قدر نظره للإله الحق الذي يعبدّه " .^(٢)

والله سبحانه وتعالى بعث رسوله الكريم ﷺ، يدعو إلى ذلك كما في قوله ﷺ: " إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق " وجاء بلفظ " إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق " ^(٣)، فبعثه الله ليدعو الناس لمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، وأساسها التوحيد الخالص لله عز وجل وترك الإشراك به، حيث أن مكارم الأخلاق هي الإمتثال لأوامر الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ، ذلك ما جاء في قوله تعالى إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ {^(٤)، وأيضاً ما جاء عن أبي نر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: " اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن " ^(٥)

(١) ابن منظور: لسان العرب - م ٣ - دار صادر - بيروت - ط ٣ - ١٩٩٤ م - ص ١٢٤٥

(٢) سورة الذاريات: أية رقم (٥٦)

(٣) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٢٣ - ص ١٤٦١٤

(٤) حديث شريف: أخرجه أحمد في المسند - حديث رقم: (٨٩٥٢) / والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/١٩١) - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق / وحسنه أهل العلم بمجموع طرقه فهو حديث حسن لغيره.

(٥) سورة النحل: أية رقم (٩٠)

(٦) حديث شريف: أخرجه الترمذي في سننه - كتاب البر والصلة - باب ما جاء في معاشره الناس - حديث رقم (١٩٨٧) - وقال: حديث حسن صحيح / وأخرجه أحمد في المسند - رقم الحديث (٢١٤٦٣)

لقد وصف الله عز وجل نبيه ﷺ بأنه على خلق عظيم، قال تعالى {وَأَنَّكَ لَـٰعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} ^(١)، وخلقه ﷺ هو اتباع القرآن والسير على منهج القرآن فعلاً للأوامر وتركاً للنواهي، هذا هو خلقه عليه الصلاة والسلام، كما قالت أم المؤمنين رضي الله عنها عائشة لما سئلت عن خلق النبي ﷺ قالت: كان خلقه القرآن. ^(٢)

يقول ابن كثير رحمه الله: " ومعني هذا انه عليه الصلاة والسلام صار إمتثال القرآن، أمراً ونهياً، سجيةً له، وخلقاً تطبعه، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة، والصفح والحلم، وكل خلق جميل. ^(٣)

يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: " الرسول محمد ﷺ هو النموذج الكامل التطبيقي، فكل منهج جاء به هو من الله ولذلك تجده في كل زوايا الحياة مثلاً أعلي وتكون مثاليات الرسول تطبيقاً للمنهج الرباني " ^(٤)، حيث يقرر أن كمال خُلق النبي ﷺ هو النموذج العملي والتجسيد الحي للأخلاق في السلوك والمعاملة، وأن دعوة النبي لم تكن مجرد أوامر نظرية.

إن الأخلاق الفاضلة أحد مقومات بناء الشخصية الإنسانية، فالإنسان لا يقاس بطوله وعرضه، أو لونه وجماله، أو فقره وغناه، وإنما بأخلاقه وأعماله المعبرة عن هذه الأخلاق، يقول تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ " ^(٥)

إن ارتباط الأخلاق بالعقيدة وثيق جداً، لذا فكثيراً ما يربط الله عز وجل بين الإيمان والعمل الصالح، الذي تعد الأخلاق الحسنة أحد أركانها، أما عن ارتباط الأخلاق بالشرعية، فإن الشريعة منها عبادات، ومنها معاملات، والعبادات تثمر الأخلاق الحسنة ولا بد، إذا ما أقامها المسلم على الوجه الأكمل، لذا قال تعالى {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} ^(٦)، وأما صلة الأخلاق بالمعاملات، فإن المعاملات كلها قائمة على الأخلاق الحسنة في أقوال المسلم وأفعاله، والمتأمل لتعاليم الإسلام يرى هذا واضحاً جلياً.

ومن الأخلاق الفاضلة التي تناولها الإمام محمد متولي الشعراوي في دروسه وخواطره، وتوقف عند أبعادها الإيمانية والتربوية، جملةً من الصفات التي تُسهم في تركية النفس وتقويم السلوك الإنساني، وتُبرز أثر الإيمان الصادق في

(١) سورة القلم: آية رقم (٤)

(٢) الإمام مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض - حديث رقم (٧٤٦) - واللفظ عند مسلم: " عن سعد بن هشام بن عامر قال: أتيت عائشة رضي الله عنها فقلت: يا أم المؤمنين، أنبيني عن خُلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: أليس تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإن خُلق نبي الله ﷺ كان القرآن " / وأخرجه أحمد في المسند - رقم الحديث (٢٤٦٠١) / وأبو داود في سننه - كتاب السنة - رقم الحديث (١٣٤٢).

(٣) الحافظ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم - ج ٨ - تحقيق: سامي بن محمد السلامة - دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض - المملكة العربية السعودية - ط ٢ - ١٩٩٩ م - ص ١٨٩

(٤) محمد متولي الشعراوي: الإنسان الكامل محمد ﷺ - دار الندوة للنشر - الإسكندرية - مصر - ط بدون - ص ٣١

(٥) سورة الحجرات: آية رقم (١٣)

(٦) سورة العنكبوت: آية رقم (٤٥)

حياة الفرد والمجتمع، إذ لم ينظر إليها بوصفها قيماً مثالية بعيدة عن الواقع، بل باعتبارها أخلاقاً قابلة للتطبيق في الحياة اليومية، متى استقرت في القلب وارتبطت بحسن الصلة بالله تعالى، منها:

أولاً: الصدق:

يقول الله عز وجل {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} ^(١)، وقال تعالى {وَالصَّادِقَاتِ} ^(٢) الصدق يكون بالقول ويكون بالعمل، والواجب على كل مؤمن ومؤمنة الصدق في القول والعمل، فالصدق في القول أن يقول الحقيقة المطابقة للواقع، والصدق في العمل أن ينصح فيه وأن يؤديه كما شرع الله من غير رياء ولا سمعة ولا كسل ولا ضعف، بل يصدق في العمل.

يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: " الصدق هو أن تطابق النسب الكلامية مع الواقع، وإذا لم تتطابق فذلك هو الكذب فكل كلام يقال محتمل الصدق أو الكذب والصدق هو الذي يجمع بين كل خصال الإيمان " ^(٣)

يقول الإمام الغزالي رحمه الله: " للصدق ستة معان: صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق، ومن صدق في شيء فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه " ^(٤)

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قيل: يا رسول الله، أي الناس أفضل؟ قال: كلٌّ مَخْمُوم القلب، صدوق اللسان، قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مَخْمُوم القلب؟ قال: هو التقي النقي، الذي لا إثم فيه ولا بغي، ولا غل ولا حسد. ^(٥)، يُبرز حديث النبي ﷺ أن الصدق خُلِقَ مركزي ينبع من صفاء الباطن قبل أن يظهر في اللسان والجوارح؛ فالنبي ﷺ لم يكتف بوصف الأفضلية بصدق اللسان، بل قرنه بسلامة القلب من الغل والحسد والبغي، مما يدل على أن الأخلاق الظاهرة إنما هي ثمرة للأحوال القلبية.

ثانياً: الصبر:

يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: " الصبر هو حبس النفس بحيث ترضي بمكروه تنزل بها والمكروه له مصادر: الأول: أمر لا غريم لك فيه فإن اصابك مثلاً مرض أو عجز، أو فقدت أحد أولادك بموت، فهذا ليس لك غريم فيه ولا تستطيع أن تفعل معه شيئاً.

والثاني: أمر لك غريم فيه كأن يعتدي عليك أحد، أو يسرق مالك أو غير ذلك.

الامر الذي لا غريم لك فيه: ليس امامك الا الصبر، والأمر الذي لك غريم فيه تكون نفسك مشتتة برغبة الإنتقام، ولذلك يحتاج الي صبر أكبر، والي صبر أطول، لأن غريمك امامك، فنفسك تطالبك بالإنتقام منه " ^(٦)

(١) سورة التوبة: أية رقم (١١٩)

(٢) سورة الأحزاب: أية رقم (٣٥)

(٣) محمد متولي الشعراوي: الفضيلة والرذيلة - دار أخبار اليوم - القاهرة - ط ١ - ٢٠٠١ م - ص ٢٨

(٤) زكي مبارك: الأخلاق عند الغزالي - مؤسسة هنداوي - وندسو - المملكة المتحدة - ط بدون - ٢٠١٢ م - ص ١٧١

(٥) حديث شريف: أخرجه ابن ماجه في سننه - كتاب الزهد - باب الورع والتقوي - رقم الحديث (٤٢١٦) / وأخرجه أحمد في المسند - رقم الحديث (٦٦٤٠) /

الطبراني في المعجم الكبير (٤٤٦/١٢)

(٦) محمد متولي الشعراوي: الفضيلة والرذيلة - دار أخبار اليوم - القاهرة - ط ١ - ٢٠٠١ م - ص ٣٠

ينطلق الشيخ محمد متولي الشعراوي في هذا النص من تعريف الصبر بوصفه فعلاً نفسياً داخلياً يقوم على حبس النفس وضبط انفعالاتها عند نزول المكروه، وهو تعريف يتجاوز الفهم السطحي للصبر باعتباره مجرد تحمل سلبي، ليقدمه بوصفه موقفاً أخلاقياً واعياً نابعاً من الرضا بقضاء الله، ويُلاحظ أن الشيخ الشعراوي يربط الصبر ارتباطاً مباشراً بالبُعد النفسي، مما يؤكد نظرته إلى الأخلاق بوصفها حالات باطنية قبل أن تكون سلوكيات ظاهرة.

ويُقسم الشعراوي مصادر المكروه إلى قسمين رئيسيين: مكروه لا غريم فيه، ومكروه له غريم، ففي النوع الأول، كالأُمراض، والعجز، وفقد الأحبة، ينتفي الطرف البشري المسؤول، فلا يجد الإنسان أمامه خصماً يفرغ فيه انفعالاته، ومن ثم يكون الصبر هنا هو الخيار الأخلاقي الوحيد، لأنه يتعلق بالتعامل مع القضاء الإلهي الذي لا سبيل لدفعه أو الانتقام منه، ويُبرز هذا التقسيم إدراك الشعراوي للفارق بين الألم الناتج عن الابتلاء الكوني، والألم الناتج عن الفعل الإنساني.

أما النوع الثاني، وهو المكروه الذي يوجد فيه غريم بشري، فيراه الشعراوي أشد وأثقل من حيث التكليف الأخلاقي؛ لأن النفس البشرية بطبيعتها تنثور وتشتعل برغبة الانتقام، ما يجعل الصبر في هذا السياق أكثر مشقة وأطول زمناً مستدلاً بقول الله تعالى {وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} ^(١)، ويكشف هذا التحليل عن فهم دقيق لميكانيزمات النفس الإنسانية، إذ يرجع صعوبة الصبر هنا إلى حضور الدافع الغريزي للانتقام، لا إلى حجم الأذى في ذاته.

يقول الغزالي رحمه الله: "وللإنسان بالنسبة للصبر ثلاثة أحوال:

الأولى: أن يقهر داعي الهوى، فلا تبقى له قوة المنازعة، ويتوصل إلى هذه الحال بدوام الصبر.

الثانية: أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين، وهي أسوأ الأحوال.

الثالثة: أن تكون الحرب سجلاً بين الهدى والضلال. ^(٢)

ويؤسس الشيخ الشعراوي من خلال هذا التفريق لفكرة تربوية مركزية، مفادها أن درجة الصبر تتناسب طردياً مع قوة دوافع النفس للانفلات؛ فكلما كانت النفس أقدر على الرد والانتقام، كان الصبر أعظم وأعلى منزلة. وهذا ينسجم مع التصور الإسلامي للصبر باعتباره قوة أخلاقية إيجابية، لا ضعفاً ولا استسلاماً، بل ضبطاً واعياً للنفس في مواضع القدرة لا العجز.

ويُبرز هذا التصور عمق المنهج التربوي عند الشعراوي في ربط الأخلاق بالسلوك النفسي الداخلي، لا بالاكتماء بالمظاهر الخارجية.

ثالثاً: التوكل على الله:

يقول الحق سبحانه وتعالى {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} ^(٣)، يفيد الأمر الإلهي انتقالاً مقصوداً من مرحلة الفعل البشري إلى مرحلة التفويض الإلهي، حيث يُطلب من المؤمن بعد العزم وبذل الجهد أن

(١) سورة لقمان: أية رقم (١٧)

(٢) زكي مبارك: الأخلاق عند الغزالي - مؤسسة هنداوي - وندسو - المملكة المتحدة - ط بدون - ٢٠١٢ م - ص ١٧٤

(٣) سورة آل عمران: أية رقم (١٥٩)

يُعلق قلبه بالله وحده، لا بالأسباب التي استخدمها، فالتوكل هنا ليس بديلاً عن العمل، بل هو حالة قلبية تصاحب العمل وتستكملها.

يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: " إن فائدة الإيمان في هذه المعادلة الجميلة، أن الجوارح تعمل وعليها أن تأخذ بأسباب الله، والقلوب تتوكل علي الحق سبحانه وتعالى " (١)

ويُفهم من صيغة الأمر أن التوكل واجب إيماني، لا مجرد فضيلة مستحبة، لأن الاعتماد الحقيقي لا يكون إلا على الله، بينما الأسباب لا تملك نفعاً ولا ضرراً بذاتها. ومن ثمّ، فإن الآية تُعيد ترتيب علاقة الإنسان بالأسباب، فتجعلها وسائل مآذوناً بها، لا غايات يُعتمد عليها استقلالاً.

يقول ابن القيم رحمه الله: " فالقوة كُلُّ القوة في التوكل علي الله كما قال بعض السلف: من سره ان يكون أقوى الناس فليتوكل علي الله، فالقوة مضمونة للمتوكل، والكفاية والحسب والدفع عنه، وإنما يَنْقُصُ من التقوى والتوكل إلا فمع تحقيقه بهما لا بد ان يجعل الله له مخرجاً من كل ما ضاق على الناس، ويكون الله حسبه وكافيه". (٢)

إن التوكل يثمر طمأنينة القلب وثبات النفس، لأن المتوكل يعلم أن تدبير الأمور بيد الله الحكيم، فلا يجزع عند تعثر النتائج، ولا يغتر عند تحققها، وبذلك يصبح التوكل قوة روحية تضبط انفعالات الإنسان، وتمنحه الاتزان في مواجهة تقلبات الحياة.

إن التوكل على الله عبادة الصادقين، وسبيل المخلصين، حيث أمر الله تعالى به أنبياء المرسلين، وأولياءه المؤمنين، قال تعالى {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا} (٣)، وقال تعالى {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (٤)

يُسهم التوكل في تهذيب النفس عبر ترسيخ معاني الرضا، والصبر، وحسن الظن بالله، وهي أخلاق باطنية تنعكس مباشرة على تعامل الإنسان مع ربه ومع الناس، فالمتوكل لا يجزع عند البلاء، ولا يتكبر عند النجاح، ولا يظلم عند القدرة، لأنه يستحضر دائماً أن الفضل والمنع والعطاء بيد الله وحده، مما يجعله أكثر تواضعاً، وأصدق في معاملاته، وأبعد عن الأهواء النفسية.

رابعاً: العدل:

إن العدل من أعظم القيم الأخلاقية التي يقوم عليها بناء الفرد والمجتمع في التصور الإسلامي، فالعدل ليس مجرد مبدأ تنظيمي للعلاقات، بل هو قيمة إيمانية متجذرة في العقيدة، وأثر مباشر من آثار تزكية النفس واستقامة الضمير. يرى الشيخ الشعراوي رحمه الله أن العدل قيمة تربوية أصيلة نابعة من الإيمان بالله، وليست مجرد مبدأ قانوني أو نظام اجتماعي، بل هي خُلُق إيماني يبدأ من الداخل قبل أن يظهر في الواقع، ويؤكد أن العدل الحق هو الالتزام بمنهج الله، لأن الانحراف عن هذا المنهج هو عين الظلم، ذلك ما جاء في قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ

(١) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٣ - ص ١٨٤١

(٢) الإمام ابن القيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير البعاد - ج ٢ - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٣ - ١٩٩٨ م - ص ٣٣١

(٣) سورة الفرقان: أية رقم (٥٨)

(٤) سورة الشعراء: أية رقم (٢١٧-٢٢٠)

وَالْإِحْسَنُ} ^(١)، حيث يقول الشيخ الشعراوي: " العدل هو الإنصاف والمساواة وعدم الميل؛ لأنه لا يكون إلا بين شيئين متناقضين، لذلك سُمي الحاكم العادل مُنصفاً؛ لأنه إذا مثَّل الخصمان أمامه جعل لكل منهما نصف تكوينه، وكأنه قَسَم نفسه نصفين لا يميل لأحدهما ولا قَيَّد شعرة، هذا هو الإنصاف ". ^(٢)

يؤكد الشعراوي أن بداية العدل تكون بعدل الإنسان مع نفسه، وذلك بكبح أهوائها وردّها إلى ميزان الشرع، لأن النفس إذا تُركت بغير ضابط قادت صاحبها إلى الظلم، ولو ظن أنه محق، ولذلك يقرر أن الظلم لا ينشأ من ضعف القوانين، بل من فساد ميزان النفس.

هناك الكثير من الصفات الفاضلة التي حث عليها الإسلام وجعلها جزءاً من بناء الشخصية المتوازنة، ومن أبرزها الصدق، والعدل، والتوكل على الله، والصبر، والأمانة، والإحسان، وحسن الخلق مع الناس، فهذه الصفات ليست مجرد شعارات أخلاقية، بل هي مقومات عملية لتزكية النفس وتهذيب السلوك بحيث تصبح مرشدة للفكر والقول والعمل معاً، ويؤكد القرآن الكريم والسنة النبوية على أن هذه الصفات تُعد أدوات للارتقاء الروحي والاجتماعي، فهي تجعل المؤمن يتحلى بالثبات في الحق، ويبتعد عن الغفلة والانحراف، كما أنها تحميه من الوقوع في مظاهر الظلم والجور والفساد الأخلاقي.

علاوة على ذلك، فإن هذه الصفات الفاضلة تعمل على تنظيم العلاقات الاجتماعية، إذ تصبح أعمال الفرد وأقواله متسقة مع قيم الحق والعدل والرحمة، فتتبع الثقة المتبادلة بين الناس، ويترسخ الاحترام والوفاء بالأمانات، ويقل العداء والحسد، وتتم المحافظة على تماسك المجتمع واستقراره، فإن العمل على اكتساب هذه الصفات وتنميتها لا يعد مجرد عبادة شخصية، بل هو مسؤولية تربوية واجتماعية، إذ يسهم في بناء مجتمع فاضل متماسك، ويعكس صورة إيجابية للفرد المسلم في كل بيئة يتواجد فيها، مما يحقق التوازن بين الحقوق الفردية والجماعية، ويهيئ الأرضية لسلام داخلي وخارجي.

ويربط الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله بين هذه الصفات الفاضلة وتزكية النفس عملياً، موضحاً أن الأخلاق تبدأ من تنقية القلب قبل أن تنعكس على السلوك الخارجي، فالشعراوي يرى أن الصدق، على سبيل المثال، ليس مجرد قول صادق، بل هو تربية مستمرة للضمير تجعل الإنسان صادقاً في النية والعمل، والعدل ليس مجرد إقامة الحقوق، بل تهذيب للنفس من الميل إلى الظلم أو الحسد، كما أن التوكل على الله عنده يجمع بين العمل والسعي، وبين التفويض لله وطمأنينة القلب، وهو ما يجعل الإنسان متوازناً بين الفكر والعمل، بعيداً عن التواكل أو الطمع، ويشدد الشيخ الشعراوي على أن هذه الصفات إذا استقرت في النفس، فإنها تصبح مرشداً مستمراً للسلوك، فتقي الإنسان من الغش والخداع، وتدفعه إلى التسامح مع الآخرين، وتحافظ على سلامة المجتمع من الفساد والاضطراب الداخلي.

ومن ثم، فإن رؤية الشعراوي تربط بين تزكية النفس والأخلاق الفاضلة وبين التوازن الاجتماعي والروحي، مؤكدة أن الفرد الفاضل هو أساس المجتمع الفاضل، وأن الاهتمام بالباطن هو مفتاح ظهور الفضائل في الخارج.

(١) سورة النحل: آية رقم (٩٠)

(٢) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ١٣ - ص ٨١٥٨

المبحث الثالث

كظم الغيظ والمعاملة بإحسان

تعد مكارم الأخلاق من الركائز الأساسية التي ارتكز عليها الدين الإسلامي لبناء شخصية الإنسان الصالح والمجتمع المتماسك، ومن بين هذه الأخلاق البارزة كظم الغيظ والمعاملة بالإحسان، وهما صفتان متكاملتان تعكسان التوازن النفسي والأخلاقي في سلوك الفرد، فكظم الغيظ يُشير إلى ضبط النفس عند الغضب وعدم الانجرار وراء الأهواء النفسية، وهو سلوك يقي الإنسان من الوقوع في الظلم، ويحد من انفعالاته المدمرة على نفسه والمجتمع، أما المعاملة بالإحسان فهي تجاوز حدود مجرد العدالة، لتشمل الفعل الطيب والتسامح والتعاون، بما يرسخ القيم الإنسانية العليا ويحقق التكافل الاجتماعي.

وقد أكد القرآن الكريم والسنة النبوية على فضائل كظم الغيظ والإحسان، وربط هذه الصفات بالثواب الأخروي والنجاة من عواقب السلوك السيئ، ففي القرآن الكريم قال تعالى {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} ^(١)، وفي السنة النبوية المطهرة فعن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: "من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه، عوضه الله يوم القيامة عوضاً حسناً" ^(٢) ويعكس هذان السلوكان حكمة تربوية عالية، إذ يرسخان في النفس القدرة على الصبر، والتسامح، وضبط الانفعالات، مما يجعل الفرد أكثر قدرة على مواجهة التحديات الاجتماعية والنفسية.

الغيظ لغة:

يقول الفراء: الغيظ: غضبٌ كامنٌ للعاجز. يقال: غاظه فهو مغیظ. ^(٣)
يقول ابن منظور: هو أشد من الغضب، وقيل: هو وسورته وأوله. ^(٤)
يقول الزبيدي: الغيظ هو الغضب مطلقاً، لكنه عاد وميز بين الغيظ والغضب نقلاً عن آخرين فقال: الغيظ هو الكمين والغضب هو الظاهر، أو الغضب للقادر والغيظ للعاجز. ^(٥)

الغيظ اصطلاحاً:

يقول الأصفهاني: الغيظ: أشد غضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه. ^(١)

(١) سورة آل عمران: أية رقم (١٣٤)

(٢) حديث شريف: رواه أبو داود - كتاب الأدب - حديث رقم (٤٣٤٠) / وأخرجه النسائي - كتاب الكبائر - حديث رقم (٥٠٣٦) / وأخرجه ابن ماجه - كتاب الزهد والرقائق - حديث رقم (٤٢١٧)

(٣) أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية - ج ٣ - تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار - دار العلم للملايين - بيروت - ط ٤ - ١٩٨٧ م - ص ١١٧٦

(٤) ابن منظور: لسان العرب - م ٧ - دار صادر - بيروت - ط ٣ - ١٩٩٤ م - ص ٤٥٠

(٥) السيد مرتضي الحسيني الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس - ج ٢٠ - تحقيق: عبدالستار أحمد فراج - مطبعة حكومة الكويت - الكويت - ط بدون - ٢٠٠١ م - ص ٢٤٨

وعرفه ابن عطية فقال: الغيظ أصل الغضب، وكثيراً ما يتلازمان، ولذلك فسر بعض الناس الغيظ بالغضب، وليس تحرير الأمر كذلك، بل الغيظ فعل النفس لا يظهر على الجوارح، والغضب حال لها معه ظهور في الجوارح وفعل ما ولا بد، ولهذا جاز إسناد الغضب إلى الله تعالى، إذ هو عبادة عن أفعاله في المغضوب عليهم، ولا يسند إليه تعالى غيظ. (٢)

يعرف الشيخ محمد متولي الشعراوي الغيظ: بأنه غليان النفس واحتدامها عند الشعور بالاعتداء أو الظلم، مع وجود رغبة داخلية في الانتقام، وهو انفعال فطري في الإنسان، لا يُدْم لذاته، وإنما يُدْم إذا ترك للنفس حتى يتحول إلى سلوك عدواني أو ظلم للآخرين. (٣)

ويبين الشعراوي أن الغيظ يختلف عن الغضب، إذ إن الغيظ يكون أشد وأعمق أثراً في النفس، لأنه يصاحبه كبت داخلي قد يدفع الإنسان إلى تصرفات غير محسوبة إن لم يُضبط بالإيمان والعقل.

يرى الشعراوي أن كظم الغيظ هو تربية للنفس على الوقوف عند حدود الشرع، بحيث لا تُترجم مشاعر الغليان الداخلي إلى فعل محرم، بل يُحوّل هذا الانفعال إلى طاقة إيجابية من خلال العفو والإحسان، تحقيقاً للتوازن النفسي والأخلاقي الذي يدعو إليه الإسلام، مستدلاً بقوله تعالى {وَالْكُظْمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ} (٤)، حيث يشير قوله تعالى إلى فئة من المؤمنين الذين يمتلكون القدرة على ضبط انفعالات النفس وحبسها عند هيجان الغضب، بحيث لا يترجم الغيظ الداخلي إلى قول جارح أو فعل مؤذ.

يقول السعدي: " إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم -وهو امتلاء قلوبهم من الحنق، الموجب للانتقام بالقول والفعل، هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم. (٥)

يقول ابن كثير: أي إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يعملوه وعفوا مع ذلك عمن أساء إليهم، وقد ورد في بعض الآثار: يقول الله تعالى ابن آدم اذكرني إذا غضبت اذكرك إذا غضبت فلا اهلك فيمن اهلك. (٦)

يقول الشعراوي: " فخصوم الإسلام يعصون الله بسوء معاملتهم للمسلمين، لكن المسلمون يردون على سوء المعاملة بحسن المعاملة، وساعة يرى خصوم الإسلام أن كيدهم لا يحقق هدفه فإنهم يقعون في بئر وحماة الغيظ، وعندما يخلون الكافرون لأنفسهم فأول أعمالهم هو عض الأصابع من الغيظ، وهو كما أوضحت نتيجة الانفعال القسري

(١) أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن - تحقيق: صفوان عدنان الداودي - دار القلم - دمشق - ط ١ - ١٩٩٢ م - ص ٦١٧

(٢) أبي محمد عبدالحق بن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - ج ٤ - مطابع دار الخير - دمشق - سوريا - ط ٢ - ٢٠٠٧ م - ص ٣٥٨

(٣) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٣ - ص ١٧٥٦ / بتصرف

(٤) سورة آل عمران: أية رقم (١٣٤)

(٥) العلامة الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - م ٢ - مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان - ط ١ - ٢٠٠٣ م - ص ١٤٨

(٦) الحافظ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم - ج ٢ - تحقيق: سامي بن محمد السلامة - دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض - المملكة العربية السعودية - ط ٢ - ١٩٩٩ م - ص ١١٩

التابع للغضب والعجز عن تحقيق المأرب؛ ذلك أن كل تأثير إدراكي في النفس البشرية إنما يطرق مجالا وجدانيا فيها. (١)

والمجال الوجداني لا بد أن يعبر عن نفسه بعملية نزوعية تظهر بالحركة؛ فالإنسان عندما يسبب لواحد يعرفه لونا من الغضب فهو يفعل بسرعة ويثور بالكلمات، هذا دليل على طيبة الإنسان الغاضب. أما الذي لا يظهر انفعاله فيجب الحذر منه؛ لأنه يخزن انفعالاته، ويسيطر عليها، فلا تعرف متى تظهر ولا على أية صورة تبدو؛ ولذلك يقول الأثر: " انتقوا غيظ الحليم " فعندما تتجمع انفعالات جديدة فوق انفعالات قديمة متراكمة في قلب الحليم فلا أحد يعرف متى يفيض به الكيل. (٢)

إن القرآن الكريم يعترف بأن هناك من الأحداث ما يستدعي غيظ الإنسان، والذي لا يغضب على الإطلاق إنما يسلك طريقا لا يتوافق مع طبيعة البشر السوية، والله سبحانه وتعالى يريد من الإنسان أن يكون إنساناً، له عواطفه وشعوره وانفعالاته، ولكن الله عز وجل المربي الحق يهذب انفعالات هذا الإنسان، ولنا في النبي ﷺ القدوة الحسنة، حيث يقول الشيخ الشعراوي: " ألم يفعل الرسول ﷺ حين مات ابنه إبراهيم؟ لقد انفع وبكى وحزن، إن الله لا يريد المؤمن من حبر بل هو يريد المؤمن أن يفعل للأحداث ولكن يجعل الانفعال على قدر الحدث، ولذلك قال سيدنا رسول الله ﷺ عند فراق ابنه: إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون " (٣). (٤)

حيث أن النبي ﷺ يمزج بين العاطفة والإيمان، فالعين تدمع، والقلب يحزن، والإنسان لا يكون أصمَّ أمام الأحداث، إنما على الإنسان أن يكون منفعلا انفعالا مهذباً. (٥)

إن الغيظ شعور فطري قد يطرأ على الإنسان نتيجة الأذى أو الظلم، إلا أن الفضل والارتقاء الأخلاقي يتحققان حين يستطيع الإنسان التحكم في هذا الشعور وعدم الاستجابة له بسلوك عدواني. ومن ثم، فإن كظم الغيظ لا يعني إنكار الشعور أو تجاهله، بل يعني توجيهه وضبطه وفق ميزان العقل والشرع، حيث يقول الشيخ الشعراوي: " إن الغيظ يفعل في النفس البشرية، إنه يهيجها، والله لا يمنع الهياج في النفس لأنه انفعال طبيعي، والانفعالات الطبيعية لو لم يردّها الله لمنع أسبابها في التكوين الإنساني، إنما هو يريدّها لأشياء مثلاً: الغريزة الجنسية، هو يريدّها لبقاء النوع، ويضع من التشريع ما يهذبها فقط، وكذلك انفعال الغيظ، إن الإسلام لا يريد من المؤمن أن يُصَبَّ في قالب من حديد لا عواطف له، لا، هو سبحانه يريد للمؤمن أن يفعل للأحداث أيضاً، لكن الانفعال المناسب للحدث، الانفعال السامي الانفعال المثمر، ولا يأتي بالانفعال المدمر ". (٦)

(١) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٣ - ص ١٧١٤

(٢) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٣ - ص ١٧١٤

(٣) حديث شريف: رواه البخاري - كتاب الجنائز - باب قول النبي ﷺ: "إنا بك لمحزونون" - حديث رقم: (١٣٠٣) / ورواه مسلم - كتاب

الفضائل - باب رحمته ﷺ بالصبيان والعيال - حديث رقم (٢٣١٥).

(٤) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٣ - ص ١٧٥٥

(٥) محمد متولي الشعراوي: المصدر السابق

(٦) محمد متولي الشعراوي: المصدر السابق

الإحسان لغة:

مصدر أحسن يحسن إحسانا، وهو ضد الإساءة، وهو إجادة العمل وإتقانه وإخلاصه. ويطلق على معنيين:
الأول: متعد بنفسه، كقولك: أحسنت كذا، وفي كذا، إذا حسنته وكملته.

الثاني: متعد بحرف جر، كقولك: أحسنت إلى كذا، أي: أوصلت إليه ما ينتفع به. (١)

ويقول ابن منظور: الإحسان ضد الإساءة، من الحسن وهو الجمال. (٢)

الإحسان اصطلاحاً:

قد عرفه النبي ﷺ بقوله: " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " (٣)

وعرفه الحافظ ابن حجر رحمه الله في شرح حديث جبريل: " قوله الإحسان: هو مصدر، تقول أحسن يحسن إحسانا. ويتعدى بنفسه وبغيره تقول أحسنت كذا إذا أتقنته، وأحسنت إلى فلان إذا أوصلت إليه النفع، والأول هو المراد لأن المقصود إتقان العبادة، وقد يلحظ الثاني بأن المخلص مثلاً محسن بإخلاصه إلى نفسه، وإحسان العبادة: الإخلاص فيها والخشوع و فراغ البال حال التلبس بها ومراقبة المعبود " . (٤)

تُعد المعاملة بإحسان من أرقى القيم الأخلاقية التي دعا إليها الإسلام، وهي تمثل مرحلة متقدمة في تهذيب النفس وضبط السلوك الإنساني، فالإحسان يدل على الإتقان وفعل الخير، وفي الاصطلاح الشرعي هو بذل المعروف، وإيقاع الفعل الحسن في موضعه اختياراً لا إلزاماً، سواء في العلاقة مع الله تعالى أو في التعامل مع الناس، وتقوم المعاملة بالإحسان على تجاوز منطق المعاملة بالمثل، لتؤسس سلوكاً أخلاقياً قائماً على الرحمة، والتسامح، وحسن العشرة، حتى في حالات الخلاف أو الإساءة.

يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: " الله تبارك وتعالى يوضح مرتبة الاحسان فيصف سبحانه أهلها بأنهم لا يقومون فقط بما فرض عليهم من فرائض، بل يزيّدون عليها فيدخلون بأنفسهم مقام الايمان، ثم يترقون بكثرة الطاعات وعمل الخيرات ومراقبة الله تعالى في كل أمر فيدخلون الى مقام الاحسان، انهم لا يقومون الا الصلاة في ميقاتها فقط، ولكن يزيّدون عليها بالنوافل، ولا يقومون بالفرائض فقط، ولكن يزيّدون عليها بالاستغفار والذكر والتضرع الى الله تعالى في السحر، ولا يؤدون الزكاة فقط، ولكنهم يعتبرون أن أي مال لهم هم مستخلفون فيه، ويعتبرون أن للسائل والمحروم حقا فيه، وهكذا يكون الاحسان " . (٥)

وقد جاء الإحسان في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، تارة مقرونا بالإسلام، وتارة مقرونا بالإيمان، وتارة مقرونا بالتقوى، أو بهما جميعاً، وتارة بالجهاد، وتارة بالعمل الصالح مطلقاً، وتارة بالإنفاق في سبيل الله وهو الجهاد.

(١) إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح - ج ٥ - تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار - دار العلم للملايين - بيروت - لبنان - ط ٤ - ١٩٩٠ م - ص ٢٠٩٩

(٢) ابن منظور: لسان العرب - م ١٦ - دار صادر - بيروت - ط ٣ - ١٩٩٤ م - ص ٢٧٢

(٣) حديث شريف: رواه البخاري - كتاب الإيمان - باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان - رقم الحديث (٥٠) / ورواه مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان - حديث رقم (٥)

(٤) الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري - ج ١ - المطبعة السلفية - القاهرة - ط ١ - ١٩١٢ م - ص ١٢٠

(٥) محمد متولي الشعراوي: الفضيلة والزيلة - دار أخبار اليوم - القاهرة - ط ١ - ٢٠٠١ م - ص ٤٣

قال تعالى {يَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (١)
 وقوله تعالى {وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} (٢)
 وقوله تعالى {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} (٣)

ويرتبط الإحسان في القرآن الكريم ارتباطاً وثيقاً بكظم الغيظ والعفو كما جاء في قوله تعالى {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} (٤)، وهو ترتيب دقيق يدل على أن الإحسان لا يتحقق إلا بعد السيطرة على الانفعال الداخلي وكبح دوافع الانتقام. فالإحسان هنا ليس مجرد امتناع عن الأذى، بل هو فعل إيجابي مقصود يسهم في إصلاح العلاقات الإنسانية وتخفيف حدة التوتر الاجتماعي، حيث يقول الشيخ الشعراوي: " أن الإحسان هو المرتبة الأعلى بعد كظم الغيظ والعفو، إذ يقول بمعناه: إن الإنسان قد يكظم غيظه فلا يبطش، وقد يعفو فلا ينتقم، ولكن الإحسان أن تزيد على ذلك فتقابل الإساءة بالخير " (٥)

حيث أن أن الإحسان ليس ضعفاً ولا تنازلاً عن الكرامة، بل هو قوة نفسية نابغة من الثقة في عدل الله، حيث يوقن المحسن أن الله يتولى حساب الظالم، فلا يحتاج إلى الانتصار لنفسه بوسائل قد تفسد قلبه أو سلوكه، ونقول في هذا السياق إن الإحسان هو أن تعامل الخلق على قدر طاقتك، وتترك الجزاء على قدر طاقة الله، فيتحول التعامل مع الناس إلى عبادة قلبية وسلوكية في آن واحد.

ومن أمثلة المعاملة بإحسان أن الحق سبحانه وتعالى أمرنا بمعاملة الوالدين بالاحسان، لأنهما السبب المباشر في وجودنا، وكما ربي الله عباده على النعم، فالوالدان مكلفان من الحق أن يربيا الابن صغيراً، والاحسان للوالدين هو الأمر الذي يجب أن تزيد فيه الرعاية عن المطلوب، فليست رعاية الوالدين مجرد نفقة مادية يؤديها الإنسان على كره منه، انماهي القيام برعايتهما بما يرتفع ويزيد من حدود الرعاية التقليدية، وإذا كان الله سبحانه وتعالى فرض على كل مؤمن أن يعامل اخوانه بالحسنى الا انه سبحانه خص وأكد على ثلاث طوائف هي:

أولاً: الوالدان:

جعل الله تعالى الإحسان إلى الوالدين في مرتبة متقدمة تلي توحيده مباشرة، مما يدل على عظيم حقهما ورفيع مكانتهما، قال تعالى {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} (٦)، ويشمل الإحسان إليهما حسن القول، ولين المعاملة، والبر بهما في الكبر، والصبر على ما قد يصدر منهما، وعدم إظهار الضجر أو الأذى لهما قولاً أو فعلاً. يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: " لتربية والرعاية في الوالدين مُحَسَّنة، أما التربية والرعاية من الله فمعقولة، فأمر الله لك بالإحسان إلى الوالدين دليل على وجوب عبادة الله وحده لا شريك له، فهو سبحانه الذي خلقك، وهو سبب

(١) سورة البقرة: أية رقم (١١٢)

(٢) سورة لقمان: أية رقم (٢٢)

(٣) سورة العنكبوت: أية رقم (٦٩)

(٤) سورة لقمان: أية رقم (١٣٤)

(٥) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ٣ - ص ١٧٥٦

(٦) سورة الإسراء: أية رقم (٢٣)

وجودك الأول، وهو مُربّيكَ وصاحب رعايتك، وصاحب الفضل عليك قبل الوالدين، وهل رباك الوالدان بما أوجدها هما، أما بما أوجده الله سبحانه؟ إذن لابد أن يلتحم حقُّ الله بحقِّ الوالدين، وأن نأخذ أحدهما دليلاً على الآخر .^(١) ويُعد الإحسان إلى الوالدين من أوضح صور الإحسان العملي، إذ يجمع بين الوفاء، والتواضع، وشكر النعمة، ويُسهّم في تزكية النفس وترسيخ قيم الرحمة والامتنان في سلوك الإنسان.

ثانياً: ذوي القربى:

إن الحق سبحانه وتعالى يحرض على السعي في طلب الرزق ويرغب فيه، ليعود بالنفع على المجتمع كله، فعندما يعمل الإنسان عليه أن يجد في عمله ليعود ثمرة عمله عليه ويفيض منه ما ينفق على والديه وأقاربه، وليس هنا فحسب فكل ضعاف المسلمين، وأبناء السبيل يجب أن يكونوا في باله حينما يسعى للرزق وعندما يعمل كل إنسان بهذا الفكر فلا بد للمجتمع كله أن يرتقي، ولسوف نجد دوائر الأقارب ترقى في مستوى إنساني لا يسمح بفوارق شاسعة في مستويات الحياة، وعندما تترقى دوائر القربى وتزدهر العلاقات الإنسانية فإنه ينقي النفوس من جشع الثراء ولو على حساب الأقربين، أو جشع تدمير الآخرين^(٢)، كما جاء في قوله تعالى { وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ } وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا^(٣)

ويتميّز الإحسان إلى ذوي القربى بكونه واجباً أخلاقياً ودينياً مؤكداً، لأنه يجمع بين معنيين: الأول وهو أداء حق القرابة، والثاني تحقيق مقاصد الشريعة في صلة الرحم، ولذلك قرن الله سبحانه وتعالى الإحسان إلى ذوي القربى بالإحسان إلى الوالدين في أكثر من موضع، قال تعالى {وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ}^(٤)، وهو اقتران يدل على أن الإخلال بحقوق الأقارب يُعد خطلاً في البناء الأخلاقي للفرد.

يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: " إن الاحسان في معاملة ذوي القربى يجعل من المجتمع الانساني مجتمعا متكافلا متآزرا فلن نجد فقيراً يعني من العوز، ولن نجد مسكيناً الا في أقل القليل، ولذلك علينا أن نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى لم يشرع نظام الزواج وعلائحته الا ليضمن سعادة الأفراد والمحافظة على الأنساب وضرورة التكافل الاجتماعي، فيجعل من الانسان مسؤولية ايمانية هي رعاية والديه وأقاربه، فلن نجد في دائرة القربى لرجل أعطاه الله المال الكثير وهو حسن الايمان من يشكو العوز، لأن الارتفاع الى مقام الاحسان يتطلب من الغني أن يرضى حق الله في ذوي قربه ."^(٥)

ثالثاً: اليتامي:

الانسان اليتيم هو الذي فقد الأب المسؤول عن الرعاية ماديا ومعنوياً بينما نجد في الحيوان اليتيم هو من فقد الأم، ذلك أن الابن عند الحيوان يعتمد في نموه وطعامه وتدريبه على الأم، كما أن نسب الأبناء في الانسان يكون لأبائهم

(١) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ١٤ - ص ٨٤٥٤

(٢) محمد متولي الشعراوي: الفضيلة والرزيلة - دار أخبار اليوم - القاهرة - ط ١ - ٢٠٠١ م - ص ٤٤

(٣) سورة الإسراء: أية رقم (٢٦)

(٤) سورة النساء: أية رقم (٣٦)

(٥) محمد متولي الشعراوي: الفضيلة والرزيلة - دار أخبار اليوم - القاهرة - ط ١ - ٢٠٠١ م - ص ٤٥

أما في الحيوانات فيصعب أن نجد هذا النسب ذلك لأن الحيوانات لا تعرف نظام الزواج الذي كرم الله سبحانه وتعالى به الانسان.

يحتل اليتامى مكانة خاصة في التشريع الإسلامي، إذ أفرد لهم القرآن الكريم والسنة النبوية عناية بالغة، قال تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾^(١)، لما يترتب على فقدانهم للعائل من ضعف نفسي واجتماعي واقتصادي، واليتيم في الاصطلاح الشرعي هو من مات أبوه قبل أن يبلغ الحلم، وقد جعل الإسلام الإحسان إليه معياراً لسمو الأخلاق ودليلاً على رقة القلب وصلاح السلوك، لما في ذلك من تحقيق لمقاصد الرحمة والتكافل الاجتماعي.

يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: " أن اليتامى قد لا يدخلون في دائرة المحتاجين لكن الله ينبهنا إلى أن المسألة في اليتيم ليست مسألة احتياج إلى الاقتنيات، ولكنه في حاجة إلى أن نعوضه بالتكافل الإيماني عما فقدته من الأب، وذلك يمنع عنه الحقد على الأطفال الذين لم يمت آبائهم. وحين يجد اليتيم أن كل المؤمنين آباء له فيشعر بالتكافل الذي يعوضه حنان الأب ولا يعاني من نظرة الأسى التي ينظر بها إلى أقرانه المتميزين عليه بوجود آبائهم، وبذلك تخلع منه الحقد".^(٢)

أن كظم الغيظ والمعاملة بالإحسان يمثلان من أهم القيم الأخلاقية التي جاء بها الإسلام لبناء النفس الإنسانية وتركيتها، وتحقيق التوازن بين الانفعال الداخلي والسلوك الخارجي، فقد بيّن القرآن الكريم والسنة النبوية أن الغيظ شعور فطري لا يؤاخذ الإنسان عليه بذاته، وإنما يكون موضع التكليف في كيفية التعامل معه وضبطه، وهو ما يجعل كظم الغيظ دليلاً على قوة الإيمان ورفي السلوك، لا على الضعف أو العجز.

كما أن المعاملة بالإحسان تأتي بوصفها المرحلة الأعلى في المنظومة الأخلاقية، إذ لا تقتصر على كف الأذى أو ردّ الحقوق، بل تتجاوز ذلك إلى فعل الخير والتسامح وبذل المعروف، حتى في مواضع الإساءة، وقد دلّ اقتران الإحسان بكظم الغيظ والعفو في النصوص الشرعية على وجود تدرج تربوي مقصود، يبدأ بضبط النفس، ثم العفو، وينتهي إلى الإحسان، وهو تدرج يعكس عمق المنهج الإسلامي في تهذيب الإنسان

وتبيّن من خلال استقراء أقوال الشيخ محمد متولي الشعراوي، أن كظم الغيظ والإحسان ليسا مجرد قيم نظرية، بل هما منهج عملي لتزكية النفس، يهدف إلى تحرير الإنسان من هيمنة الأهواء والانفعالات، وإخراجه من دائرة الانتقام إلى دائرة الرحمة والعدل، كما يسهم هذا المنهج في ترسيخ السلم الاجتماعي، وتقوية الروابط الإنسانية، والحد من النزاعات التي تنشأ عن الغضب وسوء المعاملة.

(١) سورة البقرة: أية رقم (٢٢٠)

(٢) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي - م ١ - ص ٩٥٢

الفصل الرابع

مقومات وأسس تركية النفس في فكر الشعراوي

مقدمة : يشتمل هذا الفصل على ثلاث مباحث :

المبحث الأول : التوحيد الخالص لله رب العالمين والافتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن التوحيد والافتداء هما جناحا التزكية الحقيقية للنفس ، لهذا يهدف هذا المبحث إلى إبراز أن التوحيد الخالص لله رب العالمين والافتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم هما الأساس العقدي والمنهجي لبناء الإنسان المسلم ، وبيان حقيقة التوحيد الخالص لله تعالى في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية ، وبيان مكانة الافتداء برسول الله ﷺ باعتباره المظهر العملي للتوحيد ومجلى الإيمان الكامل، كما يتناول البحث أثر التوحيد والافتداء في تهذيب النفس ، وأن تحقيق التوحيد الكامل لا يكون إلا باتباع السنة وترك البدع .

كما نود أن نبين في هذا المبحث العلاقة الوثيقة بين العقيدة الصحيحة والسلوك الإيماني، من خلال بيان أثر التوحيد الخالص لله تعالى والافتداء برسول الله ﷺ في تركية النفس الإنسانية وتطهيرها من أدران الهوى والرياء والشرك الخفي ، ونستند في الاستدلال إلى نصوص الوحيين (القرآن والسنة) وأقوال العلماء والمربين في مجال العقيدة والسلوك ، ونبرز أن التوحيد هو أصل التزكية ، وأن الافتداء بالنبي ﷺ هو سبيل تحقيقها العملي في واقع الحياة، وبيان أن ضعف التوحيد والابتعاد عن السنة سبب لانحراف السلوك وفساد الأخلاق ، وأن تركية النفس لا تتم إلا بإخلاص العبادة لله واتباع هدي نبيه الكريم ﷺ.

المبحث الثاني : مجاهدة هوى النفس :

يعد مبحث مجاهدة هوى النفس من الموضوعات المركزية في علم التزكية والسلوك ، إذ إن النفس الإنسانية بطبيعتها مهياة للتأثر بالهوى والشهوة والانحراف عن الصراط المستقيم ، مما يجعل جهاد النفس وترويضها شرطاً أصيلاً لتحقيق الطهارة الباطنة والسمو الأخلاقي ، وقد أكد القرآن الكريم والسنة النبوية خطورة الهوى وضرورة مجاهدته في نصوص كثيرة ، منها قوله تعالى {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ} (١) فهذا الربط بين نهى النفس عن الهوى وبين الفوز بالجنة يدل على أن مجاهدة الهوى ليست عملاً مستحباً فحسب، بل هي من أعظم أبواب القرب إلى الله تعالى .

وتبرز أهمية هذا المبحث في كونه يتناول جوهر العملية التربوية ، التي تسعى الشريعة إلى بنائها في نفس المؤمن، إذ لا تتحقق التزكية الحقيقية إلا بضبط ميول النفس، وإخضاع شهواتها، وتقويم انفعالاتها، وتوجيه رغباتها نحو الطاعة والفضيلة، بما يحقق التوازن الإيماني والأخلاقي في حياة الفرد وإصلاح المجتمع ، وذلك من أجل بناء أجيال متوازنة وقادرة على تحديات العصر ، وتتقن فيها شروط الاستخلاف المنشود .

وبذلك يتضح دور مجاهدة هوى النفس في بناء إنسان راشد طاهر القلب ، مستنير البصيرة ، قوي الإرادة ، مما يحقق مقاصد التزكية التي جاء بها الإسلام .

(١) سورة النازعات : آية رقم (٤٠ - ٤١)

المبحث الثالث : تزكية النفس بالعبادات (الصلاة - الزكاة - الصوم - الحج)

نود في هذا المبحث إبراز دور العبادة وتأثيرها في تزكية النفس وأن لها مكانة محورية في تهذيب السلوك وتقويم الأخلاق وتطهير القلب ، وأن الله سبحانه وتعالى شرعها لمقاصد تربوية عظيمة لترقية الإنسان لدرجة التقوى ، وتحقيق العبودية والخضوع لله رب العالمين .

المبحث الأول

التوحيد الخالص لله رب العالمين والافتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن التوحيد والافتداء جناحان لا ينفصلان في بناء الشخصية المؤمنة وتزكية النفس الإنسانية ، فالأول يربط القلب بالله ، والثاني يوجه السلوك في الحياة ، ومن هنا ، فإن العودة الصادقة إلى توحيد الله واتباع رسوله ﷺ هي سبيل الأمة إلى العزة والنصر والتمكين، وفي المقابل فإن ضعف التوحيد والابتعاد عن الافتداء بالرسول ﷺ سبب رئيسي في أزمات العالم الإسلامي الفكرية والسياسية والأخلاقية ، ولذا فإن العودة إلى التوحيد الخالص وإحياء السنة هو طريق النهضة والإصلاح الحقيقي .

قال الإمام ابن تيمية : التوحيد أصل الدين، والرسالة أصل الشريعة، ولا قيام لأحدهما دون الآخر ، فالتوحيد أصل الإيمان، وهو الكلام الفارق بين أهل الجنة وأهل النار، وهو ثمن الجنة، ولا يصح إسلام أحد إلا به " (١)

وقد أكد القرآن الكريم أن الإله المستحق للعبادة هو الله وحده {وَالْهَكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} (٢) وأكد وجوب الافتداء برسول الله المبلغ عن رب العالمين {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ} (٣) وأن طاعته فيما بلغ عن رب العالمين من خلال الامتثال لما أنزل الله واتباع شرعه جزء لا يتجزأ من طاعة الله {مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} (٤)

وهذا يدل على أن التزكية في الإسلام ليست مجرد تهذيب سلوكي أو تدريب أخلاقي فقط ، بل هي منهج رباني لإصلاح النفس ، وأنه يقوم على أصليين عظيمين :

التوحيد الخالص لله رب العالمين ، الذي يطهر القلب من التعلق بغير الله .

الافتداء برسول الله ﷺ ، الذي يزكي العمل ويهدي السلوك إلى الصراط المستقيم .

فكل دعوة إلى تزكية لا تقوم على هذين الركنتين فهي ناقصة ، لأن التوحيد هو الجذر ، والافتداء هو الثمر .

وصور التوحيد المؤثرة في التزكية هي :

توحيد الربوبية : ومن خلال تعلق العبد بها يعلم النفس ويرببها على التوكل والتسليم لله ، وأنه رب كل شيء { قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ } (٥) وقال تعالى { قُلْ أَعِزَّ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } (٦)

(١) ابو يوسف مدحت بن حسن آل فراج المصري : العذر بالجهل تحت المجهر الشرعي - دار الكتاب والسنة - باكستان - ١٩٩٥م - ص ١٠٧ / وأنظر الإمام

ابن تيمية : مجموع الفتاوى - ج ٢٤ - ٢٣٥ .

(٢) سورة البقرة : آية رقم (١٦٣)

(٣) سورة الأحزاب : آية رقم (٢١)

(٤) سورة النساء : آية رقم (٨٠)

(٥) سورة الشعراء : آية رقم (٢٣ - ٢٦)

(٦) سورة الأنعام : آية رقم (١٦٤)

توحيد الألوهية : أي يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه لا إله إلا الله وأنه هو سبحانه المستحق للعبادة ، وبذلك يوجه العبد جميع أعماله وعباداته لله وحده .

توحيد الأسماء والصفات : ينمي في نفسه معرفة الله ويروضها على الخشية منه ، وهي أساس تركية القلب ، وقد أمر الله عباده أن يدعوه ويتوجهوا إليه بأسمائه الحسنى { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا } وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ { (١) وقال تعالى { قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } (٢)

وقد وردت آيات القرآن التي توضح أن الغاية والحكمة الأولى من خلق الإنسان هي تحقيق العبادة لله وحده {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} (٣) وقال تعالى مخاطباً الإنسانية جمعاء {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (٤)

بل وقضى وحكم بعدم توجيه نية العبادة إلا له سبحانه {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} (٥)

وقد بين سبحانه وتعالى أن توحيده في العبادة هو دعوة جميع الرسل فقال {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} (٦) وأن هذه الدعوة سائرة وسارية في جميع الأمم {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} (٧) وأن كل نبي خاطب قومه بادئاً بندائهم إلى التوحيد {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} (٨) وقال المسيح ابن مريم عليه السلام {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} (٩) وأمر الله خاتم النبيين محمداً صلى الله عليه وسلم فقال {قُلِ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ * قُلِ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي} (١٠)

يقول الدكتور يوسف القرضاوي : إن بناء النفس على الاستقامة والصلاح أساسه العبودية الحققة لله وحده والايمان به سبحانه ، وبالدين الحق الذي ارتضاه لعباده ، ليكون لهم شرعة ومنهاجاً ، وهذا الايمان ليس مجرد إعلان المرء بلسانه أو كلمات يرددنها بين الحين والآخر ، وإنما هو ما وقر في القلب وصدقته العمل ، فهو عمل نفسي يبلغ أغوار

(١) سورة الأعراف : أية رقم (١٨٠)

(٢) سورة الأسماء : أية رقم (١١٠)

(٣) سورة الذاريات : أية رقم (٥٦)

(٤) سورة البقرة : أية رقم (٢١)

(٥) سورة الأسماء : أية رقم (٢٣)

(٦) سورة الأنبياء : أية رقم (٢٥)

(٧) سورة النحل : أية رقم (٣٦)

(٨) سورة الأعراف : أية رقم (٥٩)

(٩) سورة المائدة : أية رقم (٧٢)

(١٠) سورة الزمر : أية رقم (١١ - ١٤)

النفس ويصحبه الخضوع والطاعة والتسليم والعبادة ، وكلما ازداد الايمان رسوخاً كلما أثمر ثمراته اليانعة في تركية النفس واستقامة السلوك " (١)

والمولى تبارك وتعالى أمر عباده أن يعبدوه ويخلصوا في العبادة له {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}

يقول الإمام القرطبي في تفسيره لقول الله تعالى { وما أمروا } أي وما أمر هؤلاء الكفار في التوراة والانجيل إلا ليعبدوا الله ويوحده ، وفي هذا دليل على وجوب النية في العبادات " (٢)

يقول الإمام ابن كثير في تفسير قوله تعالى {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ } أي إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له {وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ} (٣).

والتزكية في بدايتها ونهايتها لا تخرج عن مقام العبودية الخالصة لله رب العالمين ، فهو سبحانه المتفضل بإرشاد العباد لما فيه تركية نفوسهم إذا اخلصوا التوجه والقصد في العبادة إليه ، قال تعالى {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (٤)

فتزكية النفس تتطلب توجيه جميع أعمال الإنسان وعباداته وحركاته وسكناته وأقواله وأفعاله لله رب العالمين واقتداء برسول الله وأنبيائه الذين صدحوا وأعلنوا مؤكدين { قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} (٥)

ويؤكد الشيخ الشعراوي أن قضية التوحيد راسخة في النفس الإنسانية، وتكرر في القرآن التأكيد على هذه القضية {الله لا إله إلا هو} (٦) وواضحة في الذهن، ولكن الله يريد أن يعطي لفظ {الله} الوصف الذي يليق به وهو {لا إله إلا هو} ولذلك يقول الحق {وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} (٧)

إن فאלله متضح في نفوسهم وأذهانهم ، ولكن السلطات الزمنية أرادت أن تطمس هذا الإيضاح ، فجاء القرآن ليزيل ويمحو هذا الطمس مؤكدا {الله لا إله إلا هو} فهذه قضية أطلقها الحق شهادة منه لنفسه { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } (٨) وكفى بالله شهيداً ، لأنها شهادة الذات للذات، وشهدت الملائكة شهادة المشهد فلم يروا أحداً آخر إلا هو، وكذلك شهد أولو العلم الذين يأخذون من الأدلة " (٩)

(١) د. انس احمد : منهج الاسلام في تركية النفس - ص ٧٧ / وأنظر: د. يوسف القرضاوي : الإيمان والحياة - دار وهبة للطباعة والنشر - القاهرة - ٢٠٠٧ م - ص ١٩ .

(٢) الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن - م ٢٠ - ص ١٤٤ (تفسير سورة البينة : آية رقم (٥)

(٣) الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن - م ٧ - ص ٧٩ (تفسير سورة الزمر : آية رقم (١٠ - ١١)

(٤) سورة النور : آية رقم (٢١)

(٥) سورة الأنعام : آية رقم (١٦٢ - ١٦٣)

(٦) سورة آل عمران : آية رقم (٢)

(٧) سورة العنكبوت : آية رقم (٦١)

(٨) سورة آل عمران : آية رقم (١٨)

(٩) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٢ - ص ١٢٥٩

ويقول الشيخ الشعراوي في موضع آخر^(١) : بأن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون بكمال صفاته وشهد أنه لا إله إلا هو قبل أن يشهد أي من خلق الله أنه لا إله إلا الله ، وقرأ قوله تعالى { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ }^(٢)

ثم يحذر الشيخ الشعراوي من غواية الشيطان للنفس وبعدها عن العبادة الخاصة لله رب العالمين فيقول : لا تعينوا الشيطان على نفوسكم وأخلصوا في عبادة الحق وحده وطاعته ، ويقول سبحانه - بعد ذلك { وَأَطِيعُوا اللَّهَ } لقد نقل الله الحكم بعدما انتهى من هذه الجزئية وهو النهي عن اتباع الشيطان كما في قوله تعالى { إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُوْنَ }^(٣) إلى حكم عام هو طاعة الله وطاعة الرسول ، وأنت ساعة تستقري أمر الله بالطاعة فأنت تجدها في صور متعددة :
فمرة يقول { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ }^(٤) فقد كرر الأمر بالطاعة لله وللرسول ، فالإطاعة لله في الحكم العام ، وإطاعة الرسول في تفصيله .

ومرة يقول سبحانه { قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ }^(٥) إنه هنا لا يكرر أمر الطاعة ، فهناك أمر للطاعة ، وهناك مطاع ، وهناك مطيع ، والمطيع هم المخاطبون ، فهو هنا يوجد أمر الطاعة ، والمطاع هنا هو الله ، والرسول يأتي معطوفاً على لفظة الجلالة .

ومرة يقول الحق سبحانه { وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ }^(٦)

نحن إذن أمام حالات للطاعة :

الأولى : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول .

والثانية : أطيعوا الله والرسول

والثالثة : أطيعوا الرسول .

ومرة واحدة فقط يعطف على ذلك { أولي الأمر } فيقول جل وعلا { أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ }^(٧) وحين قال الحق { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ }^(٨) فهو يكرر الأمر بالطاعة عند الله وعند الرسول ، لكن عند أولي الأمر لم يأت سبحانه بأمر { وأطيعوا } ذلك أن طاعة أولي الأمر تكون من باطن الطاعتين : طاعة الله ، وطاعة الرسول ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وإذا قال الحق { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ } تكون طاعة الله في

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١ - ص ٢٣٤

(٢) سورة البقرة : آية رقم (١٨)

(٣) سورة المائدة : آية رقم (٩١)

(٤) سورة المائدة : آية رقم (٩٢)

(٥) سورة آل عمران : آية رقم (٣٢)

(٦) سورة النور : آية رقم (٥٦)

(٧) سورة النساء : آية رقم (٥٩)

(٨) سورة المائدة : آية رقم (٩٢)

الحكم العام، وطاعة الرسول في تفصيل الحكم ، والمثال قوله الحق {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ} (١) هنا نطيع الله في الحكم العام، ونطيع الرسول في تفصيل الحج ، لأن التفصيل لم يأت في القرآن ، والرسول صلى الله عليه وسلم قال : خذوا عني مناسككم.

وعندما يتوحد الأمران : وأطيعوا الله والرسول ، فهذا يعني أن هناك أمراً واحداً قد صدر من الله ، وصدر وحصول الفعل من الرسول يكون للقدوة والأسوة وتوكيدا للحكم .

وإذا كان لله أمر بالإجمال وللرسول أمر بالتفصيل فسبحانه يقول {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} وإذا كان الأمر للرسول فقط ولم يرد فيه شيء من الله فهو أمر صدر بتفويض من الله بناء على قوله الحق {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} (٢) وهكذا نجد أنه لا تلتبس طاعة بطاعة ولا تتناقض طاعة مع طاعة. (٣)

ثم يبين الشيخ الشعراوي الملازمة للصيقة بين طاعة الله واتباعه وتحقيق العبودية له وبين الاتباع والاقتراء برسول الله صلى الله عليه وسلم والسير على هدايته وأن محبة رسول الله والاقتراء به نابعة من محبتنا واتباعنا لمنهج الله رب العالمين ، ويستدل على هذا بقول الله تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} (٤) وهذا الحب ليس دعوى، إن الإنسان منا عندما يدعى أنه يحب إنساناً آخر، فكل ما يتصل به يكون محبوباً، ألم يقل الشاعر: وكل ما يفعل المحبوب محبوب؟ فإن كنتم تحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعوه بتنفيذ التكليف الإيمانية، ولنلتفت إلى الفرق بين اتبعني واستمع لي ، لأن الاتباع لا يكون إلا في السلوك، فإن كانت تحب رسول الله فعليك أن ترى ماذا كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن تفعل مثله، أما إذا كنت تدعى هذا الحب، ولا تفعل مثلاً فعل رسول الله فهذا عدم صدق في الحب، إن دليل صدقكم في الحب المدعى منكم أن تتبعوا رسول الله ، فإن اتبعنا رسول الله نكون قد أخذنا التكليف من الله على أنه نعمة، ونقلبها من الله مع ما فيها من مشقة علينا، فيحبنا الله ، لأننا آثرنا تكليفه على المشقة في التكليف.

إن قول الحق سبحانه وتعالى فيما يعلمه لرسول الله ليقول له {فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} أي أن الرسول صلى الله عليه وسلم المرسل من عند الله جاء بكل ما أنزله الله ولم يكتف شيئاً مما أمر بتبليغه، فلا يستقيم أن يضع أحد تفريقاً بين رسول الله وبين الله ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم مبلغ عن الله كل ما أنزل عليه (٥)

وقد سجلت السنة النبوية ما رواه سيدنا أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين (٦)

(١) سورة آل عمران : أية رقم (٩٧)

(٢) سورة الحشر : أية رقم (٧)

(٣) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٦ - ص ٣٣٨٣ - ٣٣٨٥ .

(٤) سورة آل عمران : أية رقم (٣٢)

(٥) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٣ - ص ١٤٢١ - ١٤٢٢ .

(٦) حديث شريف : أخرجه الأمامان البخاري ومسلم - صحيح الجامع رقم ٧٥٨٢ / وأخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم ١٢٨١٤ .

ويتناول الشيخ الشعراوي قضية الإسرائء والمعراج بالرسول الخاتم الرحمة، وأن الله جعلها آية من الآيات المؤيدة لصدق رسالة رسول الله ، حيث خرق له الناموس في أمور يعلمها قومه ، فإذا جاءت آية المعراج وخرق له الناموس فيها لا يعلمه القوم كان أدعى إلى تصديقه.

ثم أوضح الحق سبحانه أن عبودية سيدنا محمد لربه هي التي أعطته هذه المنزلة، وكذلك كان نوح عليه السلام عبداً شكوراً، فهناك فرق بين عبودية الخلق للخالق، وعبودية الخلق للخلق ، لأن العبودية للخلق مذمومة، حيث يأخذ السيد خير عبده ، أما العبودية لله فالعبد يأخذ خير سيده.

لذلك ينقلنا السياق القرآني إلى بيان المنهج الإلهي المنزل من السماء ليوضح عبودية الإنسان لربه ، وكيف يكون عبداً مخلصاً لله تعالى ، فيقول الحق سبحانه { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ } فمن كان يريد الأسوة الطيبة في عبودية الرسول لربه ، هذه العبودية التي جعلته يسري به إلى بيت المقدس ، ثم يصعد به إلى السماء ، ومن كان يريد أن يكون مثل نوح في عبوديته لربه فأكرم ذريته من أجله ، فعليه أن يسير على دربهم، وأن يقتدي بهم في عبوديتهم لله تعالى ، وليحذر أن يكون مثل اليهود الذين أفسدوا في الأرض مرتين ، والذي يرسم لنا الطريق ويوضح لنا الحق من الباطل هو القرآن الكريم { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } (١)

ثم يستطرد الشيخ الشعراوي في بيان أن التوحيد الخالص لا يكون إلا لإله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ، وذلك من خلال بوابة الإسلام واتباع نهج الأنبياء والمرسلين الذين ختمهم برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن في ذلك التوحيد والاتباع خير للإنسان في الدنيا والآخرة ، ونقتبس من تفسيره قوله : بعد أن قال لنا ربنا سبحانه وتعالى : إنه إله واحد، وقائم بالقسط ، هو نتيجة منطقية لكونه -سبحانه- إلهاً واحداً، فكأن قوله {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} (٢) هو نتيجة لقوله { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ } (٣) لماذا ؟ لأنه لا تسليم لأحد إلا الله ، وما دام الله إلهاً واحداً ، فلا إله غيره يشاركه ، يقول الحق { مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ } (٤)

ثم يوضح الشيخ الشعراوي معنى الدين الذي ينقاد له الإنسان لتحقيق التوحيد والعبادة الخالصة ، ويزكي به نفسه ويصلح دنياه ويرتقي بسلوكه للفوز برضا الله والنجاة في الآخرة ، فيستشهد بقول الله تعالى {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} وإذا سألنا : ما هو الدين ؟ تكون الإجابة :إن الدين كلمة لها إطلاقات متعددة فهي من دان ، تقول : دنت لفلان : رجعت له وأسلمت نفسي له ، وائتمرت بأمره ، ويطلق الدين أيضا على الجزاء ، فالحق يقول عن يوم الجزاء : يوم الدين ، وهو يوم الجزاء على الطاعة وعلى المعصية ، وعلى أن الإنسان المؤمن قد دان لأمر الله ، فكلها تلتقي

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٤ - ص ٨٣٧٤ - ٨٣٧٥ / أنظر سورة الاسراء : آية رقم (٩)

(٢) سورة آل عمران : آية رقم (١٩)

(٣) سورة آل عمران : آية رقم (١٨) / أنظر : الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٣ - ص ١٣٥٢

(٤) سورة المؤمنون : آية رقم (٩١)

في قول الحق { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } يشعرون بأنه قد توجد أديان يخضع لها الناس، ولكنها ليست أديانا عند الله ، ألم يقل الحق { لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } (١)

إن معنى ذلك أن هناك ديناً لغير الله فيه خضوع واستسلام ، وفيه تنفيذ لأوامر ، ولكن ليس ديناً لله ، ولا ديناً عند الله ، إن الدين المعترف به عند الله هو الإسلام ، والدين يطلق مرة على الملة ومرة أخرى على الشريعة ، فإن أراد المؤمن الأحكام المطلوبة فلك أن تسميها شريعة ، وإن أراد المؤمن الطاعة والخضوع وما يترتب عليهما من الجزاء فليسمها المؤمن الدين ، وإن أراد الإنسان كل ما ينتظم ذلك فليسمها الملة . (٢)

ثم يبين الشيخ الشعراوي أن جميع ما يطلق من مسميات على أنها دين غير الإسلام ، فهي مسميات باطلة ولا تعبر عن التوحيد الحقيقي ، إذن فقول سبجانه { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } تعني: أنه لا دين عند الله إلا الإسلام، وكلمة الإسلام مأخوذة من مادة (سين ولام وميم) ولها معنى يدور في كل اشتقاقاتها ، وينتهي عند السلامة من الفساد ، وينتهي المعنى أيضاً إلى الصلح بين الإنسان ونفسه ، وبين الإنسان وربه ، وبين الإنسان والكون ، وبين الإنسان وإخوانه ، إنه صلاح وعدم فساد ، كل مادة السين واللام والميم تدل على ذلك ، وما دامت المادة المكونة منها كلمة إسلام تدل على ذلك فلماذا لا نتبعها ؟ (٣)

يضرب الشيخ الشعراوي مثلاً لتقريب المعنى وتوضيحه ، وليبان بطلان عبادة العبد لمن هو مماثل له ومخلوق مثله فيقول : لقد قلنا سابقاً : إن الإنسان لا يخضع لمثله إلا إذا اقتنع بما يقول ، إن الإنسان يقول لمساويه الذي يأمره : لماذا تريدني أن أنفذ أوامرك؟ إنك لا بد أن تقنعني بالحكمة من ذلك الأمر، لكن عندما يؤمن الإنسان بإله واحد قائم بالقسط ، ويصدر من هذا الإله أمر ، فعلى الإنسان الطاعة

إذن . فالإسلام معناه الخضوع ، والاستسلام بعزة وفهم ، وعزة وتعقل ، لأن هناك عبودية تعقل عندما يقف الإنسان عند المعنى السطحي ، وهناك عزة تعقل عندما يقف الإنسان عند المعنى الذي لا يأتيه الباطل من بين يده أو من خلفه ، إن هذا هو عزة العقل فلا يستهويه أي شيء سوى الخضوع للأمر الثابت الذي لا يتناقض أبداً .

فما دام الله إلهاً واحداً قائماً بالقسط فإني كعبد من عبيده حين أؤمن به وأخذ عنه ، فهذه عزة في الفهم ، وعزة في التعقل ، وعزة في العبودية أيضاً ، لأنني أعبد الله الذي هو فوق كل المخلوقات والكائنات ، ولا أعبد مساوياً لي ، وإن الذي يعبد مساوياً له لا يملك إلا إنفة وحمية الذليل ، وما دام الإسلام هو الخضوع والاستسلام لله فهو خضوع لغير مساو ، وأسلم : أي دخل في السلم ، أي دخل في الصلح ، وعدم التناقض ، وفي الأمان والراحة ، أي خلص نفسه من كل شيء إلا وجه الله ، ولذلك يقول الحق { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } (٤)

(١) سورة الكافرون : آية رقم (٦)

(٢) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٣ - ص ١٣٥٣

(٣) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٣ - ص ١٣٥٣ - ١٣٥٤

(٤) سورة الزمر : آية رقم (٢٩) / أنظر: الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٣ - ص ١٣٥٤

كأن الله يريد أن يوضح لنا الفرق بين الخاضع لأمر سيد واحد، وبين الخاضع لسادة كثيرين ، وضرب الله لنا المثل بالأمر المشهور عندنا ، فقال ما معناه : هب أن عبداً له من السادة عشرة ، وكل سيد له منه طلب ، فماذا يصنع ذلك العبد ؟ وعبد آخر له سيد واحد ، هذا العبد يكون مستريحاً لأن له سيداً واحداً ، بينما الآخر المملوك لعشرة تتضارب حياته بتضارب أوامر سادته العشرة .

فالعبد المملوك لشركاء تعيس ، لأن الشركاء غير متفقين ، إنهم شركاء متشاكسون ، فإذا رآه سيده يفعل أمراً لسيد آخر أمره بالعكس ، وبذلك يتبدد جهد هذا العبد ويكثر تعبهُ ، ولكن الرجل السلم لرجل هو مستريح ، وكذلك التوحيد، لقد جاء الحق سبحانه بمثل من واقعنا ليقرب لنا حلاوة التوحيد ، إن العبد المؤمن بإله واحد يحمد الله لأنه خاضع لإله واحد ، إذن فما دام الإسلام هو الخضوع والاستسلام ، ومعناه الدخول في السلم بكسر السين - أو الدخول في السلم - بفتح السين - يقول الحق {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (١) هذا الخضوع ليس لمساو، بل لأعلى ، والأعلى الذي نخضع له هو الذي خلق، وهو الأعلى الذي أمدنا بقيوميته بكل شيء .

فإذا أسلم الإنسان ، فإن هذا الإسلام له ثمن هو المثوبة من الله ، إن من مصلحة الإنسان أن يسلم {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} وما دام الدين المعترف به عند الله هو الإسلام فهو الدين الذي يترتب عليه الثواب ، والإسلام هو دين الرسل جميعاً ، وكلهم قد آمن به ، فإبراهيم خليل الرحمن قد قال { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ وَارِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } (٢)

ويعقوب عليه السلام يخبر الحق عنه في قوله لبنيه وإجابتهم له { أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } (٣) ويقول - جل شأنه {قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيماً مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } (٤)

إذن فالإسلام دين شائع ، والمسلمون كلمة شائعة في الأديان ، وبذلك لا يقف الإسلام عند رسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فقط ، إنما الإسلام خضوع من مخلوق لإله في منهج جاء به رسل مؤيدون بالمعجزات ، إلا أن الإسلام بالنسبة لهذه الرسالات كان وصفاً ، لكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم تميزت بديمومة الوصف لدينها كما كان لأمم الرسل السابقة ، وصار الإسلام - أيضاً - علماً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن رسالة رسول الله تضمنت منتهى ما يوجد من إسلام في الأرض، فلم يعد هناك مزيد عليها ، وانفردت أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن صار الإسلام علماً عليها.

إذن فالإسلام في الأمم السابقة كان وصفاً، وأما بالنسبة لرسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد صار علماً لأنه لم يأت بعدها دين، فإسلامها إسلام عالمي ، ولذلك فنحن بهذا الدين نقول : نحن مسلمون، أما أصحاب الديانات

(١) سورة الانفال : آية رقم (٦١)

(٢) سورة البقرة : آية رقم (١٢٨) / أنظر : الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٣ - ص ١٣٥٥ - ١٣٥٦ .

(٣) سورة البقرة : آية رقم (١٣٣)

(٤) سورة الانعام : آية رقم (١٦١ - ١٦٢)

الأخرى فهم أيضا مسلمون لكن بالوصف فقط ، نحن الذين نتبع الدين الخاتم سمانا الله في كتابه المسلمين ، فهذا من إعجازات التسمية التي وافق فيها خليل الله إبراهيم عليه السلام مراد ربه { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } (١) لقد صار الإسلام اسما لأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يطلق هذا الوصف اسما إلا على من بالغ في التسليم (٢)

ونجد الإمام بديع الزمان سعيد النورسي يتلاقى مع ما ذكره الشيخ الشعراوي ، حيث نجده يبين أن سعادة الإنسان وتلبية رغبات نفسه التي لا تنقطع ، وحصوله على السعادة وتزكية النفس والبعد عن الآلام والمصائب إنما تكون بالانتساب الإيماني وتحقيق العبودية الخالصة لله رب العالمين، فيقول : قلت : إن الانسان مأكنة حيوية ، يتألم بآلاف الأنواع من الآلام، ويتلذذ بآلاف الأنواع من اللذائذ، ومع أنه في منتهى العجز، فان له من الأعداء ما لا يحد سواء الماديين أو المعنويين ، ومع أنه في غاية الفقر فان له رغبات باطنة وظاهرة لا تحصر ، فهو مخلوق مسكين يتجرع آلام صفعات الزوال والفرق باستمرار.. فرغم كل هذا، فإنه يجد بانتسابه إلى السلطان ذي الجلال بالإيمان والعبودية مستندا قويا ، ومرتكزا عظيما يحتمي إليه في دفع أعدائه كافة ، ويجد فيه كذلك مدار استمداد يستغيث به لقضاء حاجاته وتلبية رغباته وآماله كافة ، فكما ينتسب كل إلى سيده ويفخر بشرف انتسابه إليه ، ويعتز بمكانة منزلته لديه ، كذلك فإن انتساب الإنسان بالإيمان إلى القدير الذي لا نهاية لقدرته ، وإلى السلطان الرحيم ذي الرحمة الواسعة ، ودخوله في عبوديته بالطاعة والشكران ، يبذل الأجل والموت من الإعدام الأبدي إلى تذكرة مرور ورخصة إلى العالم الباقي ، فلکم أن تقدروا كم يكون هذا الإنسان متلذذا بحلاوة العبودية بين يدي سيده وممتمنا (٣)

ويتلاقى كذلك النورسي مع الشعراوي في أن العبودية تستلزم التسليم ، دون الاختبار والتجربة والامتحان ، إذ للسيد أن يختبر عبده ، وليس للعبد أن يختبر ربه " (٤)

ويقول النورسي من خلال تفسيره لسورة الفاتحة : واعلم أن نظم { نَسْتَعِينُ } مع { نَعْبُدُ } كنظم الأجرة مع الخدمة ، لأن العبادة حق الله على العبد ، والإعانة إحسانه تعالى لعبده (٥).

ويؤكد النورسي ضرورة الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم لكل من يرغب في تزكية نفسه وخلق بالأخلاق الفاضلة ، ويتوجه نحو السلوك الروحي المنضبط ، فيقول : نعم ، إن علام الغيوب سبحانه قد سبق علمه وشاهد أن الحقيقة المحمدية التي هي الشخصية المعنوية لتلك الذات المباركة ﷺ ستكون كمثال شجرة طوبى الجنة ، لذا

(١) سورة الحج : آية رقم (٧٨)

(٢) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٣ - ص ١٣٥٦ - ١٣٥٧ .

(٣) الإمام بديع الزمان سعيد النورسي : الكلمات - الكلمة الثالثة عشر - المسألة السادسة - دار سوزلر - القاهرة - ٢٠٠٨ - ص ١٧٦ .

(٤) الإمام بديع الزمان سعيد النورسي : المثنوي العربي النوري - دار سوزلر - القاهرة - ٢٠٠٨ - ص ٢٥٨ .

(٥) الإمام بديع الزمان سعيد النورسي : إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز - دار سوزلر - القاهرة - ٢٠٠٨ - ص ٢٩ .

أولاه في قرآنه تلك الأهمية العظمى حيث هو المستحق لذلك المقام الرفيع ، وبين في أوامره بأن نيل شفاعته إنما هو باتباعه والافتداء بسنته الشريفة وهو أعظم مسألة من مسائل الإنسان ، بل أخذ بنظر الاعتبار - بين حين وآخر - أوضاعه الإنسانية البشرية التي هي بمثابة بذرة شجرة طوبى الجنة (١) .

ولعل أهم معالجة طرحها النورسي هو تأكيده على أن الافتداء والاتباع لا يكون إلا لمنهج الله والاهتداء بالذاتيات الربانية التي تسلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم كملبغ عن رب العالمين ، وليس باتباع المسالك والمشارب والأوراد لأشخاص نالوا كرامات وفازوا بالكشفيات والمشاهدات ، فيقول : إن وصول آلاف الأولياء إلى الحق والحقيقة ، وما نالوا من الكمالات والكرامات وما فازوا من الكشفيات والمشاهدات ليس إلا بالافتداء بهدي دساتير هذا النبي ﷺ وبتربيته، واتباعه ، وتعقب أثره ، فمثلاً أنهم يدلون جميعاً على الوجدانية فهم يشهدون بالإجماع والاتفاق على صدق هذا النبي الكريم ﷺ - أستاذهم وإمامهم - وعلى أحقية رسالته (٢).

ومن خلال ما سبق يمكننا التأكيد على أن التوحيد الخالص يتمثل في أفراد الله بالعبادة والخضوع والمحبة ، ونفي الشرك بجميع أنواعه ، فالموحد لا يخضع نفسه وأعماله إلا لله ، والتوحيد الخالص يثمر الطمأنينة كما قال الله تعالى {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ} (٣)

كما أن الافتداء برسول الله جزء لا يتجزأ من طاعة الله ومحبته ، لأنه صلى الله عليه وسلم النموذج الأكمل في الزهد والصدق والعبودية الخالصة لله رب العالمين ، وبعثه رب العالمين لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الضلال والغواية إلى الهداية وتركية النفوس والتخلق بالأخلاق الفاضلة {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} (٤) ثم بين القرآن أن إرسال رسول الله نعمة ومنة أنعم الله بها على المؤمنين وجميع مخلوقاته ، قال تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} (٥) وقال تعالى {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} (٦)

(١) الإمام بدیع الزمان سعید النورسی : الكلمات - ص ٥٢٩ .

(٢) الإمام بدیع الزمان سعید النورسی : المكتوبات - ص ٢٦٧ .

(٣) سورة الرعد : آية رقم (٢٨)

(٤) سورة الجمعة : آية رقم (٢)

(٥) سورة آل عمران : آية رقم (١٦٤)

(٦) سورة الأحزاب : آية رقم (٢١)

المبحث الثاني

مجاهدة هوى النفس

تعد مجاهدة النفس من أعظم مقومات تزكية النفس ، والأساس الذي تبنى عليه سائر الفضائل ، إذ لا يمكن للإنسان أن يبلغ مرتبة الطهر والصفاء الداخلي والأخلاق الفاضلة إلا بمجاهدة ميول النفس وأهوائها ، والالتزام بطاعة الله تعالى والانقياد لأوامره ، قال الله تعالى : {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} (١)

فالمجاهدة هنا تشمل جهاد النفس أولاً ، لأنه الأصل الذي ينبني عليه جهاد العدو والشيطان .

والجهاد والمجاهدة تتحقق للعبد إذا صبر على أداء الواجبات بوجهها الصحيح ، وحبس نفسه عن مقارفة السيئات تعبدًا وامتثالاً لأوامره سبحانه وتعالى، أورثه ذلك طمأنينة وراحة نفسية، وأحس من نفسه محبة للطاعة ، وكرهاً للمعصية ، فتصير صفة من صفاته، فإذا حقق المجاهدة حصل له توفيق وعون وسداد من الله، وهياً له من الأسباب ما يعينه ويقوي عزمه ، والمولى تبارك وتعالى أكد أنه غرس في نفس الإنسان وقلبه محبة الطاعة لَوَلَّكَ اللَّهُ حَبَبَ إِلْيُكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلْيُكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ} (٢) ويكون هواه فيما يحبه الله ويرضاه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به " (٣) وهذه علامة من علامات كمال إيمان العبد .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم خير قدوة في مجاهدة النفس ، فقد ورد عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم من الليل حتى تتقطر قدماه فقلت : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً " (٤)

ومجاهدة هوى النفس تعني مقاومة الرغبات والانفعالات الداخلية للنفس ومخالفتها، وحملها على ما فيه رضا الله عز وجل، سواء كان ذلك بفعل الطاعات أو ترك المعاصي ، وذلك من أجل وصول النفس إلى تزكيتها وفلاحها كما قال ربنا تبارك وتعالى {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} (٥)

وهذا يتأكد من خلال سؤال سيدنا أبو ذر رضي الله عنه الذي وجهه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث روي عنه في صحيح الجامع أنه قال : سألت رسول الله أي الجهاد أفضل ؟ قال أن تجاهد نفسك وهواك في ذات الله " (٦) ونود في البداية ان نستطلع على أقوال العلماء في شرح هذا الحديث للتعرف على مضمون المعنى الجامع لمجاهدة هوى النفس وفق سياق الحديث المذكور .

(١) سورة العنكبوت : آية رقم (٦٩)

(٢) سورة الحجرات : آية رقم (٧)

(٣) حديث شريف : أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٥) وأنظر/جامع العلوم والحكم - م ٢ - ص ٣٩٣ / وانظر : الخطيب : تاريخ بغداد - م ٤ - ص ٣٦٨

(٤) حديث شريف : أخرجه الإمام البخاري - صحيح البخاري - صفحة رقم ٤٨٣٦ / وأنظر الإمام مسلم - صحيح مسلم - صفحة رقم ٢٨١٩

(٥) سورة الشمس : آية رقم (٩ - ١٠)

(٦) حديث شريف : رواه ابو نعيم - حلية الأولياء - م ٢ - ص ٢٤٩ وأنظر / صحيح الجامع - رقم ١٠٩٩ / سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ١٤٩٦

قال العلامة ابن رجب الحنبلي : جهاد العدو الباطن ، وهو جهاد النفس والهوى ، فإن جهادهما من أعظم الجهاد ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : المجاهد من جاهد نفسه في الله (١)

وقال الإمام أبو حامد الغزالي : يريدون بالنفس: الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان ، فيقولون : لابد من مجاهدة النفس، وكسرها ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك. (٢)

وقال ابن بطلال : قد يكون جهاد النفس منعها الشهوات المباحة توفيراً لها في الآخرة ، لئلا تدخل في معنى قوله: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا} (٣) وعلى هذا جرى سلف الأمة. (٤)

وقال العلامة ابن الجوزي : اعلم أنه إنما كان جهاد النفس أكبر من جهاد الأعداء ، لأن النفس محبوبة ، وما تدعو إليه محبوب ، لأنها لا تدعو إلا إلى ما تشتهي وموافقة المحبوب في المكروه محبوبة، فكيف إذا دعا إلى محبوب؟ فإذا عكست الحال، وخولف المحبوب فيما يدعو إليه من المحبوب اشتد الجهاد، وصعب الأمر، بخلاف جهاد الكفار ، فإن الطباع تحمل على خصومة الأعداء . (٥)

وقال الإمام ابن القيم : سمعت شيخنا - ابن تيمية - يقول: جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً ، حتى يخرج إليهم . (٦)

وقال الإمام ابن القيم أيضاً: بأن الجهاد أربع مراتب : جهاد النفس ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الكفار ، وجهاد المنافقين ، فجهاد النفس أربع مراتب أيضاً: أحدها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به ، ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين.

والثانية : أن يجاهدها على العمل به بعد علمه ، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه ، وتعليمه لمن لا يعلمه ، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبيانات، ولا ينفعه علمه ، ولا ينجي من عذاب الله .

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله ، وأذى الخلق ، ويتحمل ذلك كله لله ، وإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانياً حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه ، فمن علم وعمل وعلم ، فذاك يُدعى عظيماً في ملكوت السماء . (٧)

(١) الإمام زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي الشهير بابن رجب : جامع العلوم والحكم - تحقيق: ماهر ياسين الفحل - دار ابن كثير - بيروت - ٢٠٠٨ م - ص ٤٥٨ .

(٢) حجة الإسلام أبي حامد محمد بن أحمد الغزالي: إحياء علوم الدين - دار المعرفة - بيروت - م ٣ - ص ٤ / وأنظر: الإمام الأصمعي: التنوير - م ٢ - ص ٥٥٠ (٣) سورة الأحقاف: آية رقم (٢٠)

(٤) أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطلال القرطبي : شرح صحيح البخاري - تحقيق: إبراهيم سعيد الصبيحي - مكتبة الرشد - الرياض - ٢٠١٦ م - م ١٠ - ص ٢١١ .

(٥) الإمام جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي : ذم الهوى - تحقيق: أيمن البحيري - مؤسسة الكتب الثقافية - بدون - ص ٤٠

(٦) الإمام ابن القيم الجوزية : روضة المحبين ونزهة المشتاقين - تحقيق: محمد عزيز شمس - دار عالم الفوائد - مكة المكرمة - ١٤٣١ هـ - ص ٦٤٠ .

(٧) الإمام ابن القيم الجوزية : زاد المعاد في هدي خير العباد - مؤسسة الرسالة - بيروت - ٢٠١٣ م - م ٣ - ص ١١ ، ١٢ .

وقال الإمام الصنعاني معلقاً على قول الإمام ابن القيم : والرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر هنا أن أفضل الجهاد على الإطلاق جهاد النفس ، والمراد : جهادها على هذه الأربع المراتب ، فهذا أعلى مراتب الجهاد، لأنه أصل المراتب كلها، فإنه لا يحصل له واحدة من تلك الرتب إلا بجهاده لنفسه على تحصيلها، فالتفصيل مطلق حقيقي . (١)

وقال الإمام المناوي : جهاد النفس أربع مراتب :

الأولى والثانية : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بأن يجاهدها على أن تاتمر وتنتهي في ذاتها، ثم يجاهدها على أن تصدع الظلمة بالأمر والنهي، بحيث لا يخاف في ذلك لومة لائم .

والثالثة:الصبر في مواطن الصبر بأن يجاهدها على تحمل مشاق الدعوة إلى الله تعالى وتحمل أذى الخلق.

والرابعة: شتآن الفاسق ، أي: إظهار معاداته لله تعالى لأجل فسقه . (٢)

وقال الإمام الصنعاني: قوله: "وهواه" لفظ الجامع ، هو كل ما تهواه النفس وتميل إليه من مشتبهاتها ، فيجاهدها بمخالفة ما تدعوه إليه ، فإنها لا تدعوه إلا إلى ما لا ينفعه عند مولاه .

قال يحيى بن معاذ الرازي: جاهد نفسك بأسباب الرياضة على أربعة أوجه : القليل من الطعام ، والغمض من المنام ، والحاجة من الكلام ، وتحمل الأذى من جميع الأنام ، فيتولد من قِل الطعام موت الشهوات ، ومن قِل المنام صفو

المرادات ، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات ، ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات . (٣)

ولكن على الرغم مما قيل في ذم الهوى وضرورة مجاهدة هوى النفس ومخالفة ما تهواه وتميل إليه ، وعدم تلبية ما تشتهي من ملذات ، وتربيتها على الصبر ، إلا أن الإمام ابن القيم يرى بأن الذم لا يكون على إطلاقه ، وأنه لا بد من الوسطية والاعتدال وعدم الإفراط والتفريط .

يقول الإمام ابن القيم : الهوى : ميل الطبع إلى ما يلائمه ، وهذا الميل خلق في الإنسان لضرورة بقائه ، فإنه لولا ميله إلى المطعم والمشرب والمنكح ، ما أكل ولا شرب ولا نكح ، فالهوى مستحب له لما يريده ، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذيه ، فلا ينبغي ذم الهوى مطلقاً ، ولا مدحه مطلقاً ، كما أن الغضب لا يُذم مطلقاً ، ولا يحمد مطلقاً ، وإنما يذم المفرط من النوعين، وهو ما زاد على جلب المصالح ، ودفع المضار . (٤)

ثم يؤكد ابن القيم ضرورة التحلل من هوى النفس المذومة ، والتحرر من قيودها ، فيقول : إن الهوى رق في القلب ، وغل في العنق ، وقيد في الرجل ، ومتابعه أسير لكل سيء الملكة ، فمن خالفه عتق من رقه ، وصار حراً ، وخلع الغل من عنقه، والقيد من رجله ، وصار بمنزلة رجل سلم لرجل، بعد أن كان رجلاً فيه شركاء متشاكسون . (٥)

(١) محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني الصنعاني : التنوير شرح الجامع الصغير - تحقيق: د محمد اسحاق - دار السلام - الرياض - ٢٠١١ م - ٢ - ص ٥٥٠

(٢) عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي المناوي: التيسير بشرح الجامع الصغير - مكتبة الإمام الشافعي - الرياض - م ١ - ص ٤٩١

(٣) محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني الصنعاني: التنوير - م ٢ - ص ٥٥٠

(٤) الإمام ابن القيم الجوزية : روضة المحبين ونزهة المشتاقين - ص ٦٢٩

(٥) الإمام ابن القيم الجوزية : المرجع السابق - ص ٤٨٤

ومن خلال ما سبق ذكره من أقوال العلماء ، فإننا لم نقف على نقل صريح عند أهل العلم في ذكر الفرق بين مجاهدة النفس وبين مجاهدة الهوى ، والذي يظهر أن مدلولهما متحد ، أو أن كلا منهما يستلزم الآخر ، فمجاهدة النفس تستلزم مجاهدة الهوى ، ومجاهدة الهوى تستلزم مجاهدة النفس ، ويمكن القول بأن مجاهدة النفس أعم ، حيث تشمل حمل النفس على أمرين : أولهما : حملها على فعل الطاعات .

وثانيهما : حملها وفطامها على اجتناب المحرمات والشهوات المحرمة ، وكذا الإكثار من الشهوات المباحة ، وهذا هو ما يسمى مجاهدة الهوى ، أي مخالفة ما تهواه النفس .

ويتضح ذلك جلياً من خلال تعريف الإمام الجرجاني والإمام المناوي للمجاهدة قولهم : حمل النفس على المشاق البدنية ومخالفة الهوى على كل حال " وقيل : هي بذل المستطاع في أمر المطاع وهو المولى عز وجل . (١)

ذكر الإمام القشيري قول الحسن القزاز حول أسس ومرتكزات مجاهدة هوى النفس قوله : بنى هذا الأمر - أي مجاهدة هوى النفس - على ثلاثة أشياء :

أن لا تأكل إلا عند الفاقة .

ولا تنام إلا عند الغلبة

ولا تتكلم إلا عند الضرورة .

ويذكر الإمام القشيري عن إبراهيم بن أدهم قوله : لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجوز ست عقبات :

أولها : أن يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة .

والثاني : أن يغلق باب العز ويفتح باب الذل .

والثالث : أن يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد .

والرابع : أن يغلق باب النوم ويفتح باب السهر .

والخامس : أن يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر .

والسادس : أن يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت .

ثم يذكر الإمام القشيري ما ورد عن أبا عمرو بن نجاد قوله : من كرمت عليه نفسه هان عليه دينه . (٢)

واستناداً على ما أورده الإمام عبد الكريم القشيري واستدل به نقلاً عن علماء خاضوا تجربة مجاهدة هوى النفس واقعاً عملياً في حياتهم ، فإن الإمام القشيري يصل إلى نتيجة مفادها أن أصل المجاهدة وملاكها هو فطم النفس عن المألوفات ، وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات ، وللنفس صفتان مانعتان لها من الخير : انهماك في الشهوات ، وامتناع عن الطاعات ، فإذا جمحت عند ركوب الهوى ، وجب كبجها بلجام التقوى ، وإذا حرنت عند القيام بالموافقات ، يجب سوقها على خلاف الهوى ، وإذا ثارت عند غضبها ، فمن الواجب مراعاة حالها ، فما من منزلة أحسن عاقبة من غضب يكسر سلطانه بخلق حسن ، وتخدم نيرانه برفق ، فإذا استحلّت شراب الرعونة فضاعت إلا عن إظهار مناقبها والتزين لمن ينظر إليها ويلاحظها ، فمن الواجب كسر ذلك عليها وإحلالها بعقوبة

(١) الإمام الجرجاني : التعريفات - م ١ - ص ١١٧ / وأنظر / الإمام المناوي : التوقيفات - ص ٢٩٧ /

(٢) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري: الرسالة القشيرية- تحقيق: د. عبد الحليم محمود- دار المعارف- القاهرة - ٢٠٠٨م - ١- ص ٢١٧

الذل بما يذكرها من حقارة قدرها ، وخساسة أصلها ، وقذارة فعلها ، وجهد العوام في توفية الأعمال ، وقصد الخواص على تصفية الأحوال ، فإن مقاساة الجوع والسهر سهل يسير ، ومعالجة الأخلاق والتفتت عن سفاستها صعب شديد ومن غوامض آفات النفس ركونها إلى استحلاء المدح ، فإن من تحسى منه جرعة حمل السموات والأرضين ، على شفره من أشغاره ، وأمانة ذلك أنه إذا انقطع عنه ذلك الشرب ، آل حاله إلى الكسل والفشل " (١)

فالإمام القشيري يرى أن أصل مجاهدة النفس هو فطمها عن المألوفات وحملها على غير هواها ، وأن للنفس صفتان : انهماك في الشهوات ، وامتناع عن الطاعات ، فالمجاهدة تقع بحسب ذلك ، والعلاج يستوجب كبح جماح النفس وما تهوى ، وسوقها خلاف ما ترغب ، وترويضها بالطاعات والأخلاق الفاضلة .

وعلى هذا فكل مخالفة للهوى هي من جهاد النفس ، وليس كل جهاد للنفس فيه مخالفة للهوى ، ومن هذا ما قال العلماء في معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : "المجاهد من جاهد نفسه" أي من قهر نفسه الأمانة بالسوء على ما فيه رضا الله من فعل الطاعات وتجنب المعصية

ويرى الإمام النورسي أنه لولا المجاهدة والمسابقة لبقيت الاستعدادات كامنة في جوهر الإنسانية ، أي لتساوى الفهم مع الألماس ، أي لتساوت الروح السامية لسيدنا أبي بكر الصديق وهو في أعلى عليين مع روح أبي جهل التي هي في أسفل سافلين " (٢) بل إن نشوء الحسيات العالية ونمو الأخلاق إنما هو بالمجاهدة " (٣)

ويؤكد النورسي أن نفسه الأمانة بشكوكها وشبهاتها اضطرت إلى المجاهدة المعنوية والعلمية (٤) إذ أن النفس الأمانة بإمكانها اقتراح جنائية لا نهاية لها في جهة الشر والتخريب ، أما في الخير والإيجاد فإن طاقتها محدودة جزئية ، أما إذا تخطى الإنسان عن الأنانية ، وطلب الخير والوجود من التوفيق الإلهي وأرجع الأمر إليه وابتعد عن الشر والتخريب وترك اتباع هوى النفس ، فأكمل عبداً لله تعالى تائباً مستغفراً ، ذاكراً له سبحانه ، فسيكون مظهراً للآية الكريمة { يبذل الله سيئاتهم حسنات } (٥)

كما يرى النورسي أن سبب التنازع والفرقة والتحزب والضغينة والعدا هو نتاج هوى النفس الأمانة بالسوء فيقول : إن كان التفرق والتحزب لأجل الحق وباسمه ، فلربما يكون ملاذ أهل الحق ، ولكن الذي نشاهده من التفرق إنما هو لأغراض شخصية ولهوى النفس الأمانة بالسوء " (٦)

وإذا ما انتقلنا إلى ما ذكره الشيخ الشعراوي حول مجاهدة هوى النفس فإننا نجده يعرف الهوى فيقول : ما هو الهوى أولاً ؟ هو من مادة "الهاء والواو والألف المقصورة التي ترسم ياء" ونجدها منطوقة مرة : هوى ، ومرة : هواء ، ومرة هوى : بضم الهاء وكسر الواو وتشديد الياء ، وكلها تدل على التغلغل والانحياز .

(١) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري : المرجع السابق - م ١ - ص ٢١٨ .

(٢) الإمام بدیع الزمان سعید النورسي : المكتوبات - تحقيق : احسان قاسم الصالحی - المكتوب ١٢ - دارس سوزلر - القاهرة - ٢٠٠٨ - ص ٥٤

(٣) الإمام بدیع الزمان سعید النورسي : إشارات الإعجاز - دار سوزلر - القاهرة - ٢٠٠٨ - ص ٢٠٤

(٤) الإمام بدیع الزمان سعید النورسي : سيرة ذاتية - دار سوزلر - القاهرة - ٢٠٠٨ - ص ١٤٣

(٥) الإمام بدیع الزمان سعید النورسي : الكلمات - الكلمة ٢٣ - المبحث الثاني - النكتة الأولى - دار سوزلر - القاهرة - ٢٠٠٨ - ص ٣٦١

(٦) الإمام بدیع الزمان سعید النورسي : المكتوبات - المكتوب ٢٢ - الوجه الخامس - ص ٣٣٢

والهوى هو : لطف الشيء في النفس والميل إليه ، فالشيء تستلطفه في نفسك فتتزعج إليه نزوعاً ، وقد يكون غير مستحب ، أو غير مقبول ولا مشروع .

وهل كل الهوى كذلك ؟ لا ، لأن هناك هوى الإيمان الذي علمنا إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يقول: لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به" وما ورد كذلك : أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه " (١) إذن فمن الممكن أن يتجه الهوى إلى الخير ، وهو الهوى الذي يحمل النفس على أن يسير الإنسان تبعاً للحق . أما الهواء : فهو الذي يتنفسه الإنسان ويستخلص منه الأوكسجين ليغذي به الجسم وتسير به الحياة . وهناك نطق ثالث للهوى : ويعبر عن السقوط ، وهو الهوى من هوى يهوى - بالكسر للواو - ولذلك يقال : هوى الدلو ، أي نزول الدلو إلى المياه التي في البئر .

والهوى الذي نقصده هو المذكور في قول الحق سبحانه وتعالى { كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ } (٢) إذن الهوى الذي يتحدث عنه هنا هو هوى النفس المجردة عن المنهج الرباني ، وهو الذي يتحكم في حركة هذه النفس ويقودها إلى غير طاعة الله ، وهل ترك الحق النفس الإنسانية دون عاصم لها يقودها للصالح والفلاح ؟ لا ، لأنه أنزل الرسل تحمل منهجاً ملخصه افعل ولا تفعل ، وهكذا يمكن أن يصير المنهج قيماً على خواطر النفس وحركاتها " (٣)

ثم يبين الشيخ الشعراوي في موضع آخر لمعنى هوى النفس وذم الهوى في القرآن وتحذير الشرع من الوقوع في الضلال والإضلال ، فيقول من خلال تفسيره لقول الله تعالى {وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا} (٤) أي لا تقلدوا أناساً اتبعوا الهوى، والهوى هو لطف موقع الشيء وقربه إلى النفس ، فيصنعه الإنسان على طريقة لا تنبغي، ولذلك كل كلمة هوى في القرآن جاءت في مجال الخسران والضلال ، وعندما نقرأ قوله الحق { وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } (٥) وهو القائل سبحانه {واتبع هواه فتردى } (٦)

والمطلوب هو أن يطوع الإنسان هواه لمطلوب الله ، وما دام قد طوع هواه لمطلوب الله ، فهذا يعني أن هواه الشخصي قد امتنع { وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ } (٧) إن هذا هو النهي عن اتباع الهوى الذي يضل ويكون سبباً في الإضلال عن سواء السبيل " (٨)

(١) حديث شريف : أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٥) وأنظر/جامع العلوم والحكم - م ٢ - ص ٣٩٣ / وانظر : الخطيب : تاريخ بغداد - م ٤ - ص ٣٦٨ وانظر / الإمام النووي في الأربعين النووية - ص ١١٣ - وأنظر : نفس المرجع - ص ٤٤

(٢) سورة المائدة : آية رقم (٧٠)

(٣) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٦ - ص ٣٣٠٢ / وأنظر : م ٢ - ص ١٢٨٣ .

(٤) سورة المائدة : آية رقم (٧٧)

(٥) سورة ص : آية رقم (٢٦)

(٦) سورة طه : آية رقم (١٦)

(٧) سورة المائدة : آية رقم (٧٧)

(٨) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٦ - ص ٣٣٢١

ومجاهدة النفس لهواها واتباعها لمنهج الله جعلها سبحانه وتعالى صفقة أوضحها في قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ } (١) وهي صفقة إيجاب وقبول ، والعهد إيجاب وقبول ، وهو ميثاق مؤكد بالأدلة الفطرية أولاً ، والأدلة العقلية ثانياً .

ومجاهدة هوى النفس تحتاج إلى صبر ، والصبر هو : تحمل متاعب تطرأ على النفس الإنسانية لتخريجها عن وقار استقامتها ونعيمها وسعادتها ، وكل ما يخرج النفس الإنسانية عن صياغة الانسجام في النفس يحتاج صبراً .
والصبر يحتاج صابراً هو الإنسان المؤمن ، ويحتاج مصبوراً عليه ، وهو صبر النفس على مشقة التكليف الذي يقول افعل ولا تفعل ، فالتكليف يأمر بترك ما تحب ، وأن تنفذ بعض ما يصعب عليك ، وأن تمتثل بالابتعاد عما ينهك عنه ، وكل هذا يقتضي مجاهدة من النفس ، والصبر الذاتي على مشاق التكليف ، ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصلاة مثلاً { وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ } (٢)

ثم يبين الشيخ الشعراوي أن الجهاد له مجالان : مجال في النفس يجاهدها ، ليقوى بمجاهدة نفسه على مجاهدة عدوه ويرى كذلك أن أول ميادين الجهاد النفس البشرية ، لأن ربك خلق فيك غرائز وعواطف لمهمة تؤديها ، ثم يأتي منهج السماء ليكبح هذه الغرائز ويرقيها ، حتى لا تنطلق معها إلى ما لا يباح " (٣)
" لذلك جاء التشريع من الله ليعصم الناس من الأهواء ، لأن هوى النفس الإنسانية قد يناقض هوى نفس إنسان آخر ، والباقون من الناس قد يكون لهم هوى يناقض بقية الأهواء ، والحق سبحانه يقول { وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ } (٤)

ويؤكد الشيخ الشعراوي أن العلاج لتناقض هوى النفس الإنسانية وتأرجحها بين الرغبات المتقلبة ، أنه لا بد أن نتبع في حركتنا ما لا هوى له إلا الحق ، والدين إنما جاء ليعصمنا من الأهواء ، فالأهواء هي التي تميلنا ، والذي يدل على أن الأهواء هي التي تميل إلى غير الحق ، أن صاحب الهوى يهوى حكماً في شيء ، ثم تأتي ظروف أخرى تجعله يهوى حكماً مقابلاً ، إنه يلوي المسألة على حسب هواه ، وإلا فما الذي ألجأ دنيا الناس إلى أن يخرجوا من قانون السماء الأول الذي حكم الأرض عند آدم عليه السلام ؟ لقد خرجوا من قانون السماء حينما قام قوم بأمر الدين فأخذوا لهم من هذا سلطة زمنية ، وأصبحوا يخضعون المسائل إلى أهوائهم ، فلما تبين للناس أن الكهنة ورجال الدين لا يأخذون الحكم من منهج الله ، ولكن من الهوى البشري ، عند ذلك أخذ الناس زمام التقنين لأنفسهم بما يضمن لهم عدالة ما حتى ولو كانت قاصرة " (٥)

ويتسأل الشيخ الشعراوي : فما المخرج للنفس من أسر هواها ؟ المخرج هو أن يخرج كل واحد منا من هوى نفسه أولاً ، ثم نرد القضية التي اختلفت فيها أهواؤنا إلى من لا هوى له ، وربك سبحانه وتعالى هو وحده الذي لا هوى له ،

(١) سورة التوبة : آية رقم (١١١)

(٢) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٢ - ص ٧٢٨٠ / أنظر : سورة البقرة : آية رقم (٤٥)

(٣) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٨ - ص ١١٠٧

(٤) سورة المؤمنون : آية رقم (٧١)

(٥) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٢ - ص ١٢٨٣ بتصرف

ونحن جميعاً خلقه ، وكلنا عنده سواء ، ليس منا من بينه وبين الله نسب أو قرابة ، فشرع الله واحد للجميع ، ولا غضاضة فالكل خاضع لهذا الشرع متبع له ، لأنه شرع الخالق سبحانه لا شرع أحد من الناس " (١)

ويستشهد الشيخ الشعراوي بقصة سحرة فرعون ، وكيف أن الفطرة الإنسانية حين تسيطر عليها الأهواء تخرج عن طبيعتها السوية ، وخاصة إذا كانت تسيطر عليهم هوى في نفوسهم من أجل الحصول على مطامع دنيوية { إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ } (٢) وفرعون لم يعارض سحرته في طلبهم ، بل زادهم منحة أخرى { وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ } (٣) ولكن لما رأوا العصا وما فعلت بسحرهم ، لم يخالطهم شك في أنها معجزة بعيدة عما يصنعونه من السحر ، لذلك سارعوا ولم يترددوا في إعلان إيمانهم بموسى وهارون ، وهذا يدلنا على أن الفطرة الإيمانية في النفس قد تطمسها الأهواء ، فإذا ما تيقظت الفطرة الإيمانية ، وأزيلت عنها الغشاوة ، سارعت إلى الإيمان وتأثرت به " (٤)

ومن أبرز نماذج مجاهدة هوى النفس في العصر الحاضر ، هو لأغرب اسم جامع في العالم يقع في منطقة الفاتح باسطنبول ، واسمه باللغة التركية هو "مسجد صانكي يدم" أي "مسجد كأني أكلت" وقصته أن رجلاً اسمه "خير الدين كججي أفندي" كان يعيش في منطقة "فاتح" ، وفي يوم من الأيام سمع خطيب المسجد يتحدث عن فضل بناء المساجد ، وذكر في خطبته ما أخرجه الإمام البخاري والإمام مسلم من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله عز وجل بنى الله له بيتاً في الجنة " ، وفي رواية : "بنى الله له مثله في الجنة" (٥) فحدث نفسه وقال : يا نفسي بيت في الجنة أفضل من الدنيا وما فيها ، وعزم على الإِدْخَار لبناء مسجداً لله للفوز برضا الله وبيت في الجنة ، وكان يمشي في السوق وتتوق نفسه لشراء فاكهة أو لحم أو حلوى ، فيسأل عن السعر ثم يقول : كأني أكلت ، ثم يضع ثمن ذلك الطعام في صندوق له ، ومضت السنوات وهو يكف نفسه عن لذائذ الأكل ، ويكتفي بما يقيم بدنه فقط ، وكانت النقود تزداد في صندوقه شيئاً فشيئاً ، حتى استطاع بهذا المبلغ القيام ببناء مسجد في محله ، ولما كان أهل المنطقة يعرفون قصة هذا الشخص الورع الفقير وكيف استطاع أن يبني هذا المسجد ، أطلقوا على الجامع اسم جامع صانكي يدم أي "مسجد كأني أكلت" .

فانظر كيف استطاع بمجاهدته وتركيبته لنفسه وإخلاصه وزهده أن يجتهد طمعاً للفوز برضا الله وجنته وثواباً دائماً لحياة أبدية

وقد نوه الإمام النورسي إلى هذا الشخص وتركيبته لنفسه فقال : كلما نادى النفس للذائد ، ينبغي الإجابة لها "كأني أكلت" فالذي جعل هذا دستوراً له ، كان بوسعه أن يأكل مسجداً سمي بـ "كأني أكلت" فلم يأكل " (٦)

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٤ - ص ٨٥٣٥

(٢) سورة الأعراف : آية رقم (١١٣)

(٣) سورة الأعراف : آية رقم (١١٤)

(٤) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٥ - ص ٩٣٢٠

(٥) حديث شريف : أخرجه الإمام البخاري والإمام مسلم ، صحيح الترغيب والترهيب ص ٢٧٠ / وأنظر : صحيح الجامع ص ٦١٣٠ ، ٦١٢٧

(٦) أورخان محمد علي : روائع من التاريخ العثماني - دار الكلمة للنشر والتوزيع - المنصورة - القاهرة - ٢٠٠٧ - ط ٣ - ص ١٠٠ - ١٠١

وإذا تصفحنا مؤلفات رسائل النور للإمام بديع الزمان سعيد النورسي نرى أساليب مخاطبته لنفسه ومجاهدته لتزكيته لكي يخرج من هوى نفسه وكفها عن طلب اللذائذ ، وأن يعرف نفسه بمكانتها ومنزلتها حتى ينزع عنها كل صفات ذميمة ، ويبعدها ويسلبها من صفات الغرور والكبر والحقد ، فكان دائماً يخاطب نفسه في كتاباته يا نفسي .. يا نفسي ، قائلاً : يا نفسي المغرورة كلمات ، يا نفسي الكسلى ، يا نفسي الباكية ، يا نفسي الحائرة ، يا نفسي الغافلة ، يا نفسي الجاهلة ، يا نفسي الموسوسة ، يا نفسي الشقية ، يا نفسي المسكينة ، يا نفسي الفارغة من الصبر ، يا نفسي الطائشة ، يا نفسي المحبة لنفسها ، ، يا نفسي المغرمة بالدنيا ، يا نفسي الجزعة ، يا نفسي الشرهة ، يا نفسي الشقية انتبهي وعودي ، يا نفسي المغرمة بالفخر ، يا نفسي الغوية ، يا نفسي استغيثي وابكي مثل قلبي ، يا نفسي المرائية ، يا نفسي الأمارة بالسوء ، وأحياناً يخاطبها بصفتين: يا نفسي الغافلة الجاهلة ، يا نفسي الجاهلة المغرورة (١)

يقول الإمام النورسي في رسالة الكلمات : فيا نفسي الغافلة ، إن كنت تريدين أن تفهمي شيئاً من غاية حياتك ، ماهية حياتك ، صورة حياتك ، سر حقيقة حياتك ، كمال سعادة حياتك ، فانظري إلى مجمل غايات حياتك ، فإنها تسعة أمور : أولها: الشكر الكلي بوزن النعم المدخرة في خزائن الرحمة الإلهية بموازين الحواس المغرورة في جسمك ثانيها : فتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى بمفاتيح الأجهزة المودعة في فطرتك ، ومعرفة الله تعالى بتلك الأسماء الحسنى .

ثالثاً : إعلان ما ركبت فيك الأسماء الحسنى من لطائف تجلياتها وبدائع صنعتها ، وإظهار تلك اللطائف البديعة أمام أنظار المخلوقات بعلم وشعور ، وبجوانب حياتك كافة في معرض الدنيا هذه .

رابعاً : إظهار عبوديتك عند باب ربوبية خالقك بلسان الحال والمقال .

خامساً : التحمل بمزايا اللطائف الإنسانية التي وهبتها لك تجليات الأسماء وإبرازها أمام نظر الشهود والإشهاد للشاهد الأزلي جل وعلا .

سادساً : شهود مظاهر الحياة لذوي الحياة شهود علم وبصيرة ، إذ هي تحياتها ودلالاتها بحياتها على بارئها سبحانه ، ورؤية تسبيحاتها لخالقها رؤية تفكر وعبرة ، إذ هي رموز حياتها وعرض عبادتها إلى واهب الحياة سبحانه ، والشهادة عليها ، إذ هي غاية حياتها ونتيجتها .

سابعاً : معرفة الصفات المطلقة للخالق الجليل وشؤونه الحكيمة ووزنها بما وهب لحياتك من علم جزئي وقدرة جزئية وإرادة جزئية ، أي بجعلها نماذج مصغرة ووحدة قياسية لمعرفة تلك الصفات المطلقة الجلية .

ثامناً : فهم الأقوال الصادرة من كل موجود في العالم وإدراك كلماته المعنوية - كل حسب لسانه الخاص - فيما يخص وحدانية خالقه وربوبية مبدعه .

تاسعاً : إدراك درجات القدرة الإلهية والثروة الربانية المطلقتين بموازين العجز والضعف والفقر والحاجة المنطوية في نفسك ، كذلك عليك فهم درجات القدرة الإلهية وثروتها المطلقتين بعجزك وفقرك غير المتناهيين .

(١) الإمام بديع الزمان سعيد النورسي : الكلمات - ص ٦ ، ١٩ ، ص ٢٨ ، ١٣٥ ، ص ١٣٦ ، ص ٢٠٩ ، ص ٢١٥ ، ص ٢٣٣ .

هذا مجمل غاية حياتك ، أما ماهية حياتك فمجلها هو : إنها فهرس الغرائب التي تخص الأسماء الإلهية الحسنى ومقياس مصغر لمعرفة شئون الله سبحانه وصفاته الجليلة ، وميزان للعوالم التي في الكون ، ولائحة لمندرجات هذا العالم الكبير ، وخريطة لهذا الكون الواسع ، ومجموع مفاتيح تفتح كنوز القدرة الإلهية الخفية ، وأحسن تقويم للكمالات الماثورة في الموجودات والمنشورة على الأوقات والأزمان (١) .

ويؤكد النورسي أن وظيفة النفس هي العبودية فيقول : يا نفس إن وظائف العبودية وتكاليفها ليست مقدمة لثواب لاحق ، بل هي نتيجة لنعمة سابقة (٢)

ومما أثر عن الشيخ الشعراوي في مجاهدته لنفسه وتزكيتها ، وتأديبها ومنعها من الغرور والتكبر ، أنه عندما كان يلقي محاضرة بجامعة القاهرة ، فاحتفل به الناس وفرحوا به وامتدحوه كثيراً ، حتى أنهم حملوا سيارته ، فظن أنه دخل شيء في نفسه وتحركت بواعث لم يعتادها ، وخشي الغرور والكبر ، وحين عاد إلى منزله ذهب إلى مسجد سيدنا الحسين دون علم أحد ودخل دورات المياه بالمسجد وعمل على تنظيفها " (٣)

ما فعله الشيخ الشعراوي أراد منه معالجة ما تحركت به نفسه من شيء لم يعتاده ، وبيان أن ما تقتضيه النفس دائماً أنها تنسب الخير إلى ذاتها ، مما يسوقها هذا إلى الفخر والعجب ، والمرء في هذه الخطوة عليه أن لا يرى من نفسه إلا القصور والنقص والعجز والفقر ، وأن يرى كل محاسنه وكمالاته إحساناً من فطره الجليل ، ويتقبلها نعماً منه سبحانه ، فيشكر عندئذ بدل الفخر ، ويحمد بدل المدح والمباهاة ، وأن تعلم بأن كمالها في عدم كمالها ، وقدرتها في عجزها إلى الله ، وغناها في فقرها إليه سبحانه ، وأن لا تتوهم النفس أنها حرة مستقلة بذاتها" (٤)

ومن خلال ما سبق يتضح جلياً أن مجاهدة النفس تتطلب مراقبة النفس في السر والعلن ، ومحاسبتها عند تقصيرها في طاعة الله ، وتعهد تربيتها المستمرة ، وتهذيب الغرائز وضبط الشهوات وفق شرع الله ، وتطهير القلب من أمراض الكبر والرياء والحسد والغضب ، وتنمية معاني الإخلاص والتواضع والرضا والقناعة ، والرجوع إلى الله عند الخطأ والتقصير ، وعدم الاستسلام للذنوب ، وبهذا يغنم الإنسان ثمرة مجاهدته لنفسه ، ويسعد بالسكينة والرضا والطهارة القلبية ، فيترقى المؤمن بنفسه إلى مقام أصحاب النفس الراضية المطمئنة .

(١) الإمام بدیع الزمان سعید النورسی : الكلمات - الكلمة الحادية عشرة - ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(٢) الإمام بدیع الزمان سعید النورسی : المرجع السابق - الكلمة الرابعة والعشرون - ص ٤١١

(٣) محمد صديق المنشاوي : المرجع السابق - ص ٧٩ .

(٤) الإمام بدیع الزمان سعید النورسی : الكلمات - الكلمة السادسة والعشرون - ص ٥٥٠ ، ٥٥١ .

المبحث الثالث

تزكية النفس بالعبادات (الصلاة - الزكاة - الصوم - الحج)

تحتل العبادات مكانة محورية في المنهج التربوي الإسلامي ، فهي ليست مجرد طقوس مبهمة أو شعائر تؤدي بصورة شكلية ، بل هي وسائل ربانية عظيمة لتزكية النفس وتطهير القلب وتهذيب السلوك ، ومن بين هذه العبادات تتقدم الصلاة والزكاة والصوم والحج ، باعتبارها أركان الإسلام العملية التي شرعها الله تعالى ، لتحقيق غايات تربوية وروحية عميقة ، تعيد تشكيل شخصية المسلم وتربيته على الطهارة الداخلية ، والخضوع لله والسمو الأخلاقي .

لقد بين القرآن الكريم بوضوح أن العبادات ليست غاية في ذاتها ، وإنما شرعت لتحقيق مقاصد تربوية عظيمة ، وتنتهي عن الفحشاء والمنكر ، وترتقي به إلى درجة التقوى ، وتطهر النفس من الشح والبخل ، وتهدف إلى بناء الإنسان ظاهراً وداخلياً ، وتخليصه من شوائب الأنانية والهوى والغفلة ، بما يحقق له ضبط السلوك وتحقيق الصلة الدائمة بالله ، وبناء روح التكافل والتجرد من حب الدنيا ، وتجريد النفس من مظاهر الترف والأنانية .

والعبادات هي منشأ الخضوع من المخلوق إلى الخالق جل وعلا ، وهذا الخضوع ينشأ من استشعار القلب بعظمة المعبود اعتقاداً بأن له سلطاناً لا يدرك العقل حقيقته ، لأنه أعلى من أن يحيط به فكره أو يرقى إليه إدراكه .

وهذا الخضوع يستلزم الطاعة ظاهراً ، والرضا باطنياً بأوامر الله تعالى ، فالانقياد من حكم التعبد ، كما أن العبادة تستلزم ظهور ثمارها على العابد من خلال سلوك يترجم واقعاً عملياً مع مخلوقات الله ، وإلا كانت شكلاً وصورة لا حقيقة لها ، وذلك أن الغرض من العبادات هو ما يتركه أداؤها من آثار مخصوصة في القائم بها ، أي في ذاته ، تتقله من الحال التي هو عليها إلى حال أخرى أفضل منها ، إذ الغرض الأول من الشعائر هو تحصيل الأخلاق ، بحيث تكون قيمة الشعيرة معلقة بقيمة ما يصدر من العابد من سلوك وأخلاق قديمة .

وتمثل الشعائر التعبدية أظهر الشرائع الإسلامية ، وأعظم الروافد الروحية ، فمن خلالها تزكو النفس ، وتترقى في سلم الكمالات البشرية ، وتتأهل لمنزلة الإحسان ، وهي أرقى منازل العبادة وأعلاها ، وبقيام المكلف بها يتم استسلامه لله تعالى ، كما أن تركه لها يشعر بانحلال زمام انقياده وتمرده دون رادع أو ضابط .

عبادة الصلاة : لقد عظم الإسلام شأن الصلاة ورفع ذكرها وأعلى مكانتها ، فهي عماد الدين ، وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة من أعماله ، وهي من أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين ، روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان (١) .

وهي العبادة الوحيدة التي فرضها رب العالمين وتلقى رسول الله الأمر بها من فوق سبع سماوات ، وتمثلت فيها هدية الإسراء والمعراج ، وهي العبادة التي شرع الله لها الأذان للتنبيه والتعريف بدخول وقتها ووجوب آداؤها في وقتها

(١) حديث شريف : أخرجه الإمام البخاري - كتاب الإيمان - م ١٠ - ص ٤٩ / وأنظر : الإمام مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - م ١ - ص ٤٥ .

، وهي العبادة الوحيدة التي لا يسقط عن تحقيق أدائها مكلف في حضر ولا سفر ، ولا صحيح ولا مريض ، ولا غني ولا فقير ، ولا آمن ولا خوف {إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا} (١)
{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} (٢)
{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (٣)
ولفظ الصلاة ورد في القرآن الكريم في نحو مائة موضع، فجاء اسماً في نحو خمسة وثمانين موضعاً، كقوله سبحانه {الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة} (٤) وجاء فعلاً في نحو خمسة عشر موضعاً، كقوله تعالى {فلا صدق ولا صلى} (٥)

ولفظ الصلاة ورد في القرآن الكريم على عدة معان ، منها :
الصلاة بمعنى الصلاة المفروضة : ومنه قوله تعالى {وأقيموا الصلاة} (٦) أي: الصلوات المفروضة. وأغلب ما ورد لفظ الصلاة في القرآن الكريم على هذا المعنى، مقروناً بلفظ الزكاة .
الصلاة بمعنى الثناء على العبد : ومنه قوله تعالى {هو الذي يصلي عليكم} (٧) وقوله تعالى {إن الله وملائكته يصلون على النبي} (٨) فالصلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة ، وتفسير الآية بحسب هذا المعنى هو ما ذهب إليه ابن كثير ، وقال كثير من المفسرين : الصلاة من الله : الرحمة ، ورد بقوله تعالى {أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة} (٩) قال ابن كثير : وقد يقال : لا منافاة بين القولين .
الصلاة بمعنى الدعاء والاستغفار : ومنه قوله تعالى {وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم} (١٠) أي: ادع لهم واستغفر لهم، وقوله تعالى {هو الذي يصلي عليكم وملائكته} قال القرطبي: وصلاة الملائكة : دعاؤهم للمؤمنين ، واستغفارهم لهم .

الصلاة بمعنى قراءة القرآن : ومنه قوله تعالى {ولا تجهر بصلاتك} (١١) أي: بقراءتك ، وذهب إلي هذا الرأي ابن كثير ، وبأنه لم يرد لفظ الصلاة بمعنى قراءة القرآن في غير هذا الموضع ، إلا ما روي عن الأعمش في قوله تعالى

(١) سورة النساء : آية رقم (١٠٣)

(٢) سورة البقرة : آية رقم (٤٥)

(٣) سورة البقرة : آية رقم (١١٠)

(٤) سورة البقرة : آية رقم (٣)

(٥) سورة القيامة : آية رقم (٣١)

(٦) سورة البقرة : آية رقم (٤٣)

(٧) سورة الأحزاب : آية رقم (٤٣)

(٨) سورة الأحزاب : آية رقم (٥٦)

(٩) سورة البقرة : آية رقم (١٥٧)

(١٠) سورة التوبة : آية رقم (١٠٣)

(١١) سورة الأسراء : آية رقم (١١٠)

{قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك} (١) قال : قراءتك ، ووردت قراءة القرآن بمعنى الصلاة في قوله سبحانه {فاقرؤوا ما تيسر من القرآن} (٢) قال ابن كثير: عبر عن الصلاة بالقراءة ، والمعنى : صلوا بالليل ما تيسر لكم .

الصلاة بمعنى صلاة الخوف : وذلك قوله سبحانه {وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة} (٣) فالمقصود بالصلاة هنا صلاة الخوف أثناء الالتحام في المعركة ، ولم يرد لفظ الصلاة على هذا المعنى في غير هذا الموضع من القرآن .

الصلاة بمعنى صلاة الجنازة : ومنه قوله تعالى {ولا تصل على أحد منهم مات أبدا} (٤) فالمقصود بالصلاة هنا صلاة الجنازة ، حيث منع النبي صلى الله عليه وسلم من الصلاة على المنافقين ، ولم يرد لفظ الصلاة على هذا المعنى في غير هذا الموضع من القرآن .

الصلاة بمعنى صلاة الجمعة : ومنه قوله تعالى {إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله} (٥) قال القرطبي: قال بعض العلماء: كون صلاة الجمعة ها هنا معلوم بالإجماع ، لا من نفس اللفظ .

قال ابن العربي : وعندي أنه معلوم من نفس اللفظ بنكتة ، وهي قوله {من يوم الجمعة} وذلك يفيد ، لأن النداء الذي يختص بذلك اليوم هو نداء تلك الصلاة ، فأما غيرها فهو عام في سائر الأيام ، ولو لم يكن المراد به نداء الجمعة لما كان لتخصيصه بها وإضافته إليها معنى ولا فائدة ، ولم ترد الصلاة على هذا المعنى في غير هذه الآية .

الصلاة بمعنى صلاة الجماعة : ومنه قوله سبحانه {وإذا ناديتُم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا} (٦) روى البيهقي في "الدلائل" عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نادى بالصلاة، فقام المسلمون إلى الصلاة، قالت اليهود والنصارى: قد قاموا لا قاموا، فإذا رأوهم ركعوا وسجدوا استهزؤا بهم وضحكوا منهم .

وعلى هذا المعنى يمكن أن يُحمل قوله تعالى {شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة} (٧) قال ابن كثير: المقصود : أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم .

الصلاة بمعنى مكان العبادة : ومنه قوله تعالى {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا} (٨) قال ابن عباس رضي الله عنهما: الصلوات: الكنائس، وكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة : إنها كنائس اليهود .

(١) سورة هود : آية رقم (٨٧)

(٢) سورة المزمل : آية رقم (٢٠)

(٣) سورة النساء : آية رقم (١٠٢)

(٤) سورة التوبة : آية رقم (٨٤)

(٥) سورة الجمعة : آية رقم (٩)

(٦) سورة المائدة: آية رقم (٨٥)

(٧) سورة المائدة : آية رقم (١٠٦)

(٨) سورة الحج : آية رقم (٤٠)

ولفظ الصلاة في القرآن ورد إما بشاراً للمؤمنين لقيامهم بها، كقوله تعالى {وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين} (١) وإما نذارة للكافرين للإعراض عنها ، كقوله تعالى {فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا} (٢) وكل موضع مدح الله تعالى بفعل الصلاة أو حث عليها، ذكر بلفظ الإقامة ، كقوله تعالى {والمقيمون الصلاة} (٣) وقوله سبحانه {وأقاموا الصلاة} (٤) وقوله عز وجل {وأقيموا الصلاة} (٥) ولم يخرج عن هذا العموم إلا قوله تعالى {وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين} (٦) وما عدا ما تقدم فلم يأت لفظ المصلين إلا في المنافقين ، كقوله تعالى {ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى} (٧) وقوله سبحانه {فويل للمصلين} (٨) وإنما خص لفظ الإقامة تنبيهاً على أن المقصود من فعلها توفية حقوقها وشرائطها ، لا الإتيان بصورها وهيأتها فحسب ، وذلك من أجل تحقيق الخشوع والخضوع اللازم لآدائها لتهيئة النفس وتركيتها بتذوق لذة العبادة والأنس من خلال القرب إلى الله بالعبادة .

ولعل ما يؤكد أهمية الصلاة وأنها المرتكز الأساس لضبط بوصلة النفس وتركيتها وتوجيه مسارها نحو الاستقامة والأخلاق الفاضلة ، قوله تعالى { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ } (٩)

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : رأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا " (١٠)

من خلال هذا الحديث يتبين لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أحسن تعليماً وأحسنهم بياناً ، وكان من طريقه صلى الله عليه وسلم الحسنة في التعليم والتربية، تقريب العلم للناس بضرب الأمثال المحسوسة والمشاهدة ، ليكون أوضح لهم، وفي هذا الحديث أراد أن يبين أثر الصلاة في تزكية النفس وتطهيرها مما لحق بها من أوساخ وقاذورات ، ووجه التمثيل: أن العبد كما يتدنس بالأقذار المحسوسة في بدنه وثيابه ويظهره الماء وينظفه، فكذلك الصلوات تطهر نفس العبد من أقذار الذنوب

(١) سورة يونس : آية رقم (٨٧)

(٢) سورة مريم : آية رقم (٥٩)

(٣) سورة النساء : آية رقم (١٦٢)

(٤) سورة البقرة : آية رقم (٢٧٧)

(٥) سورة البقرة : آية رقم (٤٣)

(٦) سورة الماعون: آية رقم (٢١ - ٢٢)

(٧) سورة التوبة : آية رقم (٥٤)

(٨) سورة الماعون : آية رقم (٤)

(٩) سورة هود : آية رقم (١١٤) أنظر / مقال علمي : لفظ الصلاة في القرآن - الموقع الإلكتروني إسلام ويب .

(١٠) حديث شريف : صحيح البخاري ٥٢٨ / وأنظر : صحيح الإمام مسلم ٦٦٧

ويؤكد الشيخ محمد الغزالي على أهمية العبادات وأثرها في تزكية النفس وتقويمها وتهذيبها ، ومنها الصلاة فيقول : إن العبادات في الإسلام أساس ، بمعنى أن الإسلام قال إن الإنسان في طباعه رداءة ، قال تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا } (١) هذه طبيعة الإنسان الذي وصف بأنه هلوياً وجزوعاً ومنوعاً ، فكيف يتغلب على هذه الطبيعة ويرتقي بنفسه ويزكيها ؟ يتغلب عليها بالعبادات التي فرضها الله عليه ، فهذه العبادات هي المصعد الذي ينتقل به من الأدنى إلى الأعلى ، وأول هذه الأدوات لمعالجة هذه الصفات التي وصف بها الإنسان ، ومن أجل تحقيق الصعود للراقي المادي والمعنوي قال الله تعالى { إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ } (٢)

ثم يبين الشيخ الشعراوي أن الصلاة تمثل مركزية استدامة الولاء لله تعالى ، وهي عماد الدين ، فيقول في تفسيره لقول الله تعالى {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} (٣) أي أن الصلاة فيها استدامة الولاء لله تعالى، فنحن نشهد أن لا إله إلا الله مرة واحدة في العمر، ونزكي إن كان عندنا مال مرة واحدة في السنة، ونصوم إن لم نكن مرضى شهراً واحداً هو شهر رمضان، ونحج إن استطعنا مرة واحدة في العمر، ويبقى ركن الصلاة وهو يتكرر كل يوم خمس مرات، وإن شاء الإنسان فليزد ، وكأن الحق سبحانه وتعالى هنا ينبه إلى أن عماد الدين هي الصلاة . (٤)

ويؤكد الشيخ الشعراوي أن الصلاة دعوة من الله لخلقه، دعوة من الصانع للمصنوع ، فربك يستدعيك إلى حضرته، وكيف بالصنعة إذا عرضت على صانعها كل يوم خمس مرات، ومع ذلك نرى من يقدم العمل على الصلاة، وإذا سمع النداء قال عندي أعمال ومشاغل، إياك أن تظن أن الصلاة تعطيل للمصالح، أو إضاعة للوقت ، لأنك في حركة حياتكم مع نعم الله وفي الصلاة مع الله .

ونقيس هذه المسألة - والله المثل الأعلى - لو أن أباك ناداك فلم تجبه، ماذا يفعل بك ؟ فلا يكن ربك أهون عليك من أبيك ، ربك يناديك : الله أكبر ، بمعنى : أكبر من العمل ، وأكبر من كل شيء يشغلك عن تلبية نداءه. وفي الصلاة نأخذ شحنة إيمانية تقوينا على حركة حياتنا ، كما لو ذهبنا ببطارية السيارة مثلاً لجهاز الشحن ، أتقول : إنك عطلت البطارية ؟

ولو حسبنا الوقت الذي تستغرقه الصلوات الخمس ، لوجدناه لا يتعدى ساعة من الأربع والعشرين ساعة ، فلا تضمن على نفسك بها لتلتقي بربك ، وتقف بين يديه ، وتعرض نفسك عليه ، فيصلح فيك ما أفسدته حركة الحياة ، ويعطيك المدد والعون ، والشحنة الإيمانية التي تدفعك إلى حركة منسجمة مع الحياة والكون من حولك (٥)

فهناك من العبادات ما يتكرر كل يوم ليعطي المؤمن شحنة اليقين والإيمان - وهي الصلاة - ويأخذه من دنياه بالله أكبر خمس مرات في اليوم ، وهذه هي العبادة التي لا تسقط أبداً ، والإنسان سليم والإنسان مريض ، فالمؤمن

(١) سورة المعارج : آية رقم (١٩ - ٢١)

(٢) د أحمد عمر هاشم : النفس في القرآن الكريم - ص ١٣ ، أنظر / سورة المعارج : آية رقم (٢٢ - ٢٣)

(٣) سورة يونس : آية رقم (٨٧)

(٤) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٠ - ص ٦١٦٤

(٥) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٧ - ص ١٠٧٣١

يستطيع أن يصلي واقفاً وأن يصلي جالسا وأن يصلي راقدا ، وأن يجري مراسم الصلاة على قلبه ، لذلك كانت هذه أول عبادة تذكر في قوله تعالى { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ } أي والتفتوا إلى نداءات ربكم للصلاة ، وعندما يرتفع صوت المؤذن بقوله الله أكبر فهذه دعوة للإقبال على الله ، إقبال في ساعة معلومة ، لتقفوا أمامه سبحانه وتعالى ، وتكونوا في حضرته ، يعطيكم الله المدد ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى (١)

ويستطر الشيخ الشعراوي في بيان قدرة الصلاة العجيبة في تغيير سلوك الإنسان وتزكية نفسه وأنها مصدر إمداد وعون لتحقيق الإيمان الحقيقي ، وقدرتها على إصلاح ما يطرأ على النفس من سلبيات ، وتعينه على تجاوز الشدائد والمحن ، حيث تتجلى في قوله تعالى { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ } (٢) أي أن الله يقول : أقيموا الصلاة وأدوها على الوجه الأكمل ، وأدوها على ما أحب منكم في أدائها ، فساعة أناديك : الله أكبر ، يجب أن تقبل علي ، وأنت حين تُلبي النداء ، لا تأتي لتعيني على شيء ، ولا أنتفع بك في شيء ، إنما تنتفع أنت بهذا اللقاء ، وتستمد مني العون والقوة ، وتأخذ شحنة إيمان ويقين من ربك .

ويضرب الشيخ الشعراوي مثلاً لتقريب المعنى إلى الأفهام فيقول : ما تصورك لآلة تُعرض على صانعها كل يوم خمس مرات ، أيبقى بها عَطْب ؟ لذلك يُعلمنا نبينا صلى الله عليه وسلم أنه إذا حزبنا أمر أن نهرع إلى الصلاة ، وكذلك كان يفعل صلى الله عليه وسلم إذا عز عليه شيء ، أو ضاقت به الأسباب ، وإلا فما معنى الإيمان بالله إن لم تلجأ إليه .

وما دام ربك غيباً ، فهو سبحانه يُصلحك بالغيب أيضاً ، ومن حيث لا تدري ، لذلك أمرنا ربنا بإقامة الصلاة ، وجعلها عماد الدين ، والركن الذي لا يسقط عنك بحال ، فالزكاة والحج مثلاً يسقطان عن الفقير وعن غير القادر ، والصوم يسقط عن المريض أو المسافر ، في حين مرضه أو سفره ، ثم يقضيه بعد انقضاء سبب الإفطار ، أما الصلاة فهي الركن الدائم ، ليس مرة واحدة في العمر ، ولا مرة واحدة في العام ، إنما خمس مرات في اليوم والليلة ، فهذا يكون إعلان الولاء لله تعالى إعلاناً دائماً ، وهذا إن دل فإنما يدل على عظمة الإنسان ومكانته عند ربه وخالفه .

وسبق أن قلنا : إنك إن أردت مقابلة أحد المسؤولين أو أصحاب المنزل ، كم تعاني ليؤذن لك ، ولابد أن يحدد لك الموعد والمكان ، بل وموضوع المقابلة ، وما ستقوله فيها ، ثم لصاحب المقابلة أن يُنهيها متى يشاء .

إذن : لا تملك من عناصر هذا اللقاء شيئاً ؟ أما في لقائك بربك - عز وجل - فالأمر على خلاف ذلك ، فربك هو الذي يطلبك ويناديك لتقبل عليه ، لا مرة واحدة ، بل خمس مرات كل يوم ، ويسمح لك أن تتاجيه بما تحب ، وتطلب منه ما تريد ، ولك أن تنهي أنت المقابلة بقولك : السلام عليكم ، فإن أحببت أن تطيل اللقاء ، أو أن تعتكف في بيت ربك ، فإنه سبحانه لا يمل حتى تملوا ، فهذه - إذن - ليست عبودية ، بل عز وسيادة .

وما أجمل ما قاله الشاعر في هذا المعنى :

حَسْبُ نَفْسِي عِزًّا بِأَنِّي عَبْدٌ ... يَحْتَفِي بِي بِلَا مَوَاعِيدِ رَبِّ

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١ - ص ٥٢٦

(٢) سورة الروم : آية رقم (٣١)

هُوَ فِي قُدْسِهِ الْأَعَزِّ وَلَكِنْ ... أَنَا أَلْقَى مَتَى وَأَيْنَ أُحِبُّ (١)

ثم يبين الشيخ الشعراوي حرص سيدنا لقمان واستجماعه لسنام الموعظة والنصيحة وتقديمها لإبنه، فيقول له { يا بني أقم الصلاة } بدأها سيدنا لقمان بإقامة الصلاة ، والصلاة هي الركن الأول بعد أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وعلمنا أن الصلاة لأهميتها فرضت بالمباشرة ، ولأهميتها جعلت ملازمة للمؤمن لا تسقط عنه بحال، أما بقية الأركان فقد تسقط عنك لسبب أو لآخر ، كالصوم والزكاة والحج ، فإذا سقطت عنك هذه الأركان لم يبق معك إلا الشهادتان والصلاة ، لذلك جعلها النبي صلى الله عليه وسلم عماد الدين .

ولذلك بدأ بها سيدنا لقمان {يا بني أقم الصلاة} (٢) لأنها استدامة إعلان الولاء لله تعالى خمس مرات في اليوم واللييلة ، فحين يناديك ربك الله أكبر، فلا ينبغي أن تتشغل بمخلوق عن نداء الخالق ، وإلا فما موقف الأب مثلاً حين ينادي ولده فلا يجيبه ؟ فاحذر إذا ناداك ربك ألا تجيب.

ثم تأمل النداء للصلاة الذي اهتدت إليه الفطرة البشرية السليمة ، وأقره سيدنا رسول الله : الله أكبر الله أكبر، يعني أكبر من كل ما يشغلك عنه ، فإياك أن تعتذر بالعمل في زراعة أو صناعة أو تجارة عن إقامة الصلاة. وقد ناقشت أحد أطباء الجراحة في هذه المسألة ، فقال : كيف أترك عملية جراحية من أجل الصلاة ؟ فقلت له : بالله لو اضطررت لقضاء الحاجة تذهب أم لا ؟ فضحك وقال : أذهب ، فقلت : فالصلاة أولى ، ولا تعتقد أن الله تعالى يكلف العبد تكليفاً ، ثم يضمن عليه باتساع الزمن له ، بدليل أنه تعالى يراعي وقت العبد ومصالحه وإمكاناته، ففي السفر مثلاً يشرع لك الجمع والقصر .

فبإمكانك أن توفق صلاتك حسب وقتك المتاح لك ، إما بجمع التقديم أو التأخير، وكم يتسع وقتك ويخلو من مشغولية العبادة إذا جمعت الظهر والعصر جمع تقديم ، والمغرب والعشاء جمع تأخير في آخر وقت العشاء ؟ أو حين تجمع الظهر والعصر جمع تأخير، فتصليهما قبل المغرب ، ثم تصلي المغرب والعشاء جمع تقديم ؟ إذن : المسألة فيها سعة ، ولا حجة لأحد في ترك الصلاة بالذات ، أما الذين يقولون في مثل هذه الأمور {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا} (٣) وأن هذا ليس في وسعي ، فنقول لهم : لا ينبغي أن تجعل وسعك هو الحكم ، إنما التكليف هو الحكم في الوسع ، وما دام ربك - عز وجل - قد كلفك ، فقد علم سبحانه وسعك ، وكلفك على قدره ، بدليل ما شرعه لك من رخص إذا خرجت العبادة عن الوسع .

وقال {أقم الصلاة} (٤) لأن الصلاة أول اكتمال في الإجماع لمنهج الله ، وبها يكتمل إيمان الإنسان في ذاته ، وسبق أن قلنا : إن هناك فرقاً بين أركان الإسلام وأركان المسلم ، أركان الإسلام هي الخمس المعروفة ، أما أركان المسلم

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٨ - ص ١١٤٢١ ، ١١٤٢٢

(٢) سورة لقمان : آية رقم (١٧)

(٣) سورة البقرة : آية رقم (٢٨٦)

(٤) سورة لقمان : آية رقم (١٧)

فهي الملازمة له التي لا تسقط عنه بحال ، وهي الشهادتان والصلاة ، وإن كان على المسلم أن يؤمن بها جميعاً ، لكن في العمل قد تسقط عنه ، عدا الصلاة والشهادتين. (١)

يتضح من خلال ما سبق أن العبادات لها أثر في تزكية النفس الإنسانية ، وأن الصلاة ليست مجرد حركات جامدة لا روح فيها ، وليست طقوساً جامدة لا معنى لها ، بل إن العبادات في الإسلام ومنها الصلاة تستهدف تزكية النفس وتطهيرها من الأخطاء والآثام ، قال الله تعالى {اثْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۚ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} (٢) فالصلاة الكاملة التي تجمع أركانها وشروطها ويؤديها الإنسان بخشوع وخضوع ، ويحافظ عليها في وقتها وعلى أداها ، تنهاه عن الفحشاء والمنكر ، وتزكي نفسه وتطهره تطهيراً ، ما دام مخلصاً في أدائها ، فإن الإخلاص يدعوه إلى فعل المعروف ، وما دام يؤديها بخشية من ربه ، فإن خشية تنهاه عن المنكر ، وما دام يتدبر ما يتلوه من ذكر الله تعالى بالقرآن الكريم والتسبيح والتحميد ، ففي ذكر الله توجيهه إلى المعروف ونهي عن المنكر .

قال أبو العالية : إن الصلاة فيها ثلاث خصال : الإخلاص ، والخشية ، وذكر الله ، فالخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر الله - القرآن - يأمره وينهاه ، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست صلاة .

ونعني بالصلاة هنا الصلاة الكاملة التي جمعت سمات القبول ، فإذا نظرنا إليها مثلاً نجد أن لها أثراً بالغاً في تكوين الشخصية ، وتزكية النفس الإنسانية ، أنها تتكرر كل يوم خمس مرات في اليوم والليلة ، وبها ينتهي المسلم عن كل شر {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} فإذا كانت في جماعة ، فالعظيم يأتي إليها متخلياً عن العظمة والاستعلاء ، والصغير يأتي إليها مرفوع الأمل والرجاء ، وإذا أداها المسلم منفرداً فإن في وجدانه مرتبط بالجماعة ، ويخرج من صلاته بسمته المتواضع ، فلا يتعالى ولا يستطيل على الناس ، وبقبله الخاشع لا يصر على معصية الله تعالى ، ويظل متذكراً خالقه الذ عنت له الوجوه ، وسجدت له الجباه ، وانقادت له الحياة ، وبعطف على المحتاجين والضعفاء ، ولقد جاء في الحديث القدسي : إنما اتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي ولم يستطل على خلقي ولم يبيت مصراً على معصيتي وقطع النهار في ذكري ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ورحم المصاب .

وإلى جوار ذلك تتميز شخصية في هذه العبادة بالمظهر اللائق من النظافة والزينة والحلال ، حتى يظهر بالوقار والسكينة المألوفة المحبوبة ، طاهر الثوب والبدن والمكان ، وفي الصلاة رياضة لأعضاء الجسم والعقل والروح ، وفي الصلاة تزكية للنفس الإنسانية ، وإعانة لمواجهة مصاعب الحياة ومتاعبها ، فيستعين بها كما قال الله تعالى {وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} (٣) فهي منبع الراحة والطمأنينة ، ومنزل الأمن

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٩ - ص ١١٦٥٤ ، ١١٦٥٦

(٢) سورة العنكبوت : آية رقم (٤٥)

(٣) سورة البقرة : آية رقم (٤٥)

والسكينة ، وبها يتغلب الإنسان على نوازع الجبن والخوف ، ومواقف الهوى والخمول ، وفيها مقاومة للجزع الذي يصيب بعض الناس وقت ونزول الشدة ، وعلاج للنفس المناعة للخير " (١)

عبادة الزكاة : في الزكاة تهذيب للنفس الإنسانية ، وتطهير لها من آفة الشح والبخل حتى تتطهر من البخل ، ويصبح البذل عادة للإنسان ، كما أن فيها تطهيراً للمال وحفاظاً له ، وتطهيراً لنفس الفقير من آفة الحقد والكراهية ، وكما أن الصلاة رابطة بين العبد وربّه ، فإن الزكاة رابطة بين الإنسان وأخيه الإنسان ، تتم بها معاني التواد والترحم ، وتطهر بها النفوس وتتركى ، قال تعالى {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (٢) وكما أن الصلاة عبادة بدنية وفيها رياضة جسمية ، فإن الزكاة رياضة نفسية ومعنوية يستفيد منها الغنى والفقير ، فتجعل الغني يتمرس على البذل والتضحية بالمال العزيز على النفس ، وتعوده كيف يغالب الشح والحرص ويتسابق إلى العطاء والإيثار مستشعراً مسؤوليته عن غيره وسط دائرة التكافل الاجتماعي وكما أن الصلاة عبادة بدنية يتمثل فيها شكر الله تعالى على نعمه البدن ، فإن الزكاة عبادة مالية يتمثل فيها شكر الله تعالى على نعمة المال ، وهي برهان على صحة إيمان صاحبها وصدقة ، ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : "والصدقة برهان" (٣)

ويعرف الشيخ الشعراوي الزكاة بأنها تطلق على معنى التطهير ، كما جاء في قول الحق تبارك وتعالى {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} (٤) لأن الغفلة قد تصيب الإنسان حال جمع المال ، فيخالط ماله ما فيه شبهة مثلاً ، فيحتاج إلى تطهير ، وتطهير المال يكون بالصدقة منه.

ويطلق على الزكاة أحياناً بمعنى النماء ، فبعد أن تُطهر المال تنميه وتزيده ، كما جاء في قوله تعالى {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} (٥) بمعنى: نمت ملكة الخير فيها ، ورقاها وصعدها ، بأن ينظر إلى العمل ، إن كان سينقص منك في الظاهر ، إلا أنه سيجلب لك الخير فيما بعد ، فترتقي بذلك ملكات الخير في نفسك . (٦)

يؤكد الشيخ الشعراوي أنه وكما أمرنا ربنا - تبارك وتعالى - بالخشوع في الصلاة ، أمرنا كذلك في الزكاة ، فلم يقل: مؤدون ، ولكن {فَاعْلَوْنَ} وذلك كما في قوله تعالى {وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} (٧) وهذه من تربية مقامات العبادة في الإنسان ، فأنت حين تصلي ينبغي أن تخشع وتخضع في صلاتك لله ، وكذلك حين تُزكي تُرقي ملكة الخير في نفسك ، فحين تعمل وتسعى لا تعمل على قدر حاجتك ، وإنما على قدر طاقتك ، فتأخذ من ثمرة سعيك حاجتك ، وفي نيتك أن تخرج من الباقي زكاة مالك وصدقتك . (٨) م ١٦ ص ٩٩٦٥

(١) د أحمد عمر هاشم : النفس في القرآن الكريم - ص ١٧ - ١٩ .

(٢) سورة التوبة: آية رقم (١٠٣)

(٣) د أحمد عمر هاشم : النفس في القرآن الكريم - ص ١٩ .

(٤) سورة التوبة : آية رقم (١٠٣)

(٥) سورة الشمس : آية رقم (٩)

(٦) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٦ - ص ٩٩٦٤

(٧) سورة المؤمنون : آية رقم (٤)

(٨) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٦ - ص ٩٩٦٥

ثم يبين الشيخ الشعراوي موقف العلماء رضي الله عنهم وقولهم من قول الله تعالى {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ} لا يعني اعتبار الجزء المأخوذ من المال للفقر هو حق الفقير، بل هو مال المؤدي ، ولو بين الله حق الفقير وعزله عن مال صاحبه ، فهذا يعني أن المال إن هلك فليس للفقير شيء ، ولكن لأن المال مال الغني ، فحق الفقير محفوظ في ذمة صاحب المال ، وهذا أفضل للفقير، فإن الغني لو لم يؤد الزكاة في ساعتها ، وبعد ذلك حدث أن هلك المال ، فالغني ضامن لحق الفقير .

{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ} والصدقة تطهرهم ، لأن الذنب الذي فعلوه واعترفوا به تسبب في تقدير أنفسهم بالمعصية ، وما داموا قد قدروا أنفسهم بالمعصية ، فهم في حاجة أن يطهروا بالمال الذي كان سبباً في عدم ذهابهم إلى الغزوة .

وانظر هناك إلى ملحظ الأداء البياني في القرآن ، فالحق سبحانه يقول {خُذْ} وهو أمر للنبي صلى الله عليه وسلم ويقول { مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ } من أموال الأغنياء ، هذه الصدقة ستذهب للمحتاج ، إذن هنا أربعة عناصر: أخذ هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومأخوذ منه هو صاحب المال ، ومأخوذ هو المال ، ومأخوذ له هو الفقير المحتاج .

وما دام الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا الأمر ينسحب بالتالي على كل من ولي أمراً من أمور المسلمين .

ولقائل أن يقول : ولكنها صدقة وليست زكاة ، ونقول : ما دام الله هو الذي أمر بها تطهيراً فقد صارت واجباً ، والآية صريحة ، وتقتضي أنه ما دامت هناك ولاية شرعية ، فولي الأمر هو الذي يأخذ من الناس ويؤدي للفقراء ، أو لأوجه الصرف التي شرعها الله ، لأن الله لا يريد أن يعذب الفقير بأن يمد يده أخذاً من مساو له ، أما إن أخذ من الوالي وهو المسئول عن الفقراء ، فلن يكون عيباً ، كما أن الحق سبحانه يريد أن يحمي أهل الفقير من أن يعلموا أن البيت الفلاني يعطي لهم زكاة ، فيعاني أولاد الآخذ من المذلة أمام أولاد المعطي ، ويعيش أبناء المعطي في تعال لا لزوم له .

إذن : فحين يكون الوالي هو الذي يعطي فلن يكون هناك مُستعلٍ أو مُستعلًى عليه.

أما إن لم تكن هناك ولاية إسلامية ، ولا يعلم الإنسان إلى أين ستذهب الأموال ، فهنا يصبح كل إنسان أن يراعي محيط دينه وهو يخرج الزكاة ، وحينئذ يكون عندنا مُعطيٌ هو صاحب المال ، ومال مُعطيٌ ، ومُعطيٌ له هو الفقير . وعلى من يعود قوله الحق {تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ} ؟ السطحيون في الفهم يقولون : إنها تطهر من نأخذ منه المال، وتزكي المال الذي نأخذ منه .

لكن من يملك عمقاً في الفهم يقول : ما دامت هناك في هذه الآية عناصر ، فضروري أن يعود التطهير والتزكية عليها ، وإنها تطهر وتزكي المأخوذ منه صاحب المال ، وكذلك تطهر وتزكي المال المأخوذ ، وأيضاً تطهر وتزكي المأخوذ له وهو الفقير ، لأن التطهير معناه إزالة قدر، والتزكية نماء .

القدارة أمر عارض على الشيء الذي نغسله ونطهره ، وتنمية له بشيء عائد عليه فيزداد ، وهكذا تطهر الصدقة وتزكي عناصر الفعل كلها .

وكيف تكون الصدقة تطهيراً للآخذ وهو لم يذنب ذنباً يحتاج إلى تطهير ، بل هو مُعطى له لأنه محتاج ؟ ونقول : إن الآخذ حين يأخذ من مال غيره ، وهو عاجز عن الكسب فهو يتطهر من الحقد على ذي النعمة ، لأنه وصله بعض من المال الذي عند ذي النعمة ، فلا يحقد عليه ولا يحسده ، فهو إن رأى عنده خيراً ، دعا له بالزيادة ، لأن بعضاً من الخير يعود عليه ، وهكذا تتطهر نفس الفقير من الحقد والحسد .

هذا عن التطهير ، فماذا عن التزكية والنماء ؟ إن الفقير ساعة يرى نفسه فقيراً ، ويرى أن المجتمع الإيماني يقوم برعايته ولا يتركه وحيداً ، ويتسابق أهل الخير لنجدته ، فنفسه تنمو بالاطمئنان ، لأنه في مجتمع إيماني .

إذن : فقله الحق { تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ } راجع لكل العناصر في الآية . (١)

ويوضح الشيخ الشعراوي من خلال تفسيره لقول الله تعالى {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبَلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُنْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ۖ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } (٢) آثار ما تحققه الزكاة في تزكية النفس وتطهيرها وتربيتها على العطاء وتحقيق الإيمان ، هو تجنب النفس من الكبر والغرور ، وبعدها عن المن والأذى ، فالذي يتصدق ويتبع صدقته بالمن والأذى ، إنما يُبطل صدقته ، وخسارته تكون خسارتين : الخسارة الأولى أنه أنقص ماله بالفعل ، لأن الله لن يعوض عليه ، لأنه أتبع الصدقة بما يبطلها من المن والأذى ، والخسارة الأخرى : هي الحرمان من الثواب ، فالذي ينفق ليقول الناس عنه إنه ينفق ، عليه أن يعرف إن الحق يوضح لنا ، أنه يعطي الأجر على قاعدة : أن الذي يدفع الأجر هو من عملت له العمل .

إن الإنسان على محدودية قدرته يعطي الأجر لمن عمل له عملاً ، والذي يعمل من أجل أن يقول الناس إنه عمل ، فليأخذ أجره من القدرة المحدودة للبشر ، ولذلك قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الذي يفعل الحسنة أو الصدقة ليقال عنه إنه فعل ، فإنه يأتي يوم القيامة ولا يجد أجراً له ، ويأتي الله بالمقابل ، وهم الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله فيقول {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنْبِيئاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ } (٣)

إن ابتغاء مرضاة الله في الإنفاق تعني : خروج الرياء من دائرة الإنفاق ، فيكون خالصاً لوجهه سبحانه ، وأما التثبيت من أنفسهم ، فهو لأنفسهم أيضاً ، فكأن النفس الإيمانية تتصادم مع النفس الشهوانية ، فعندما تطلب النفس الإيمانية أي شيء ، فإن النفس الشهوانية تحاول أن تمنعها ، وتتغلب النفس الإيمانية على النفس الشهوانية وتتصرف لله والمراد بـ {وَتَنْبِيئاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ} هو أن يتثبت المؤمن على أن يحب نفسه حباً أعمق لا حباً أحمق ، إذن فعلية الإنفاق يجب أن تكون أولاً إنفاقاً في سبيل الله ، وتكون بتثبيت النفس بأن وهب المؤمن أولاً دمه ، وثبت نفسه ثانياً

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٩ - ص ٥٤٦٩ - ٥٤٧٣ .

(٢) سورة البقرة : آية رقم (٢٦١ - ٢٦٤)

(٣) سورة البقرة : آية رقم (٢٦٥)

بأن وهب ماله ، وهكذا يتأكد التثبيت فيكون كما تصوره الآية الكريمة { كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } (١)

والجنة كما عرفنا تُطلق في اللغة على المكان الذي يوجد به زرع كثيف أخضر لدرجة أنه يستر من يدخله ومنها "جن" أي "ستر" ومن يدخل هذه الجنة يكون مستورا.

إن الحق يريد أن يضرب لنا المثل الذي يوضح الصنف الثاني من المنفقين في سبيل الله ابتغاء مرضاته وتثبيتاً من أنفسهم الإيمانية ضد النفس الشهوانية، فيكون الواحد منهم كمن دخل جنة كثيفة الزرع، وهذه الجنة توجد بربرة عالية، ويخبرنا الحق سبحانه أن من ينفق ماله ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل هذه الجنة التي تروى بأسلوب رباني، فإن نزل عليها وابل من المطر، أخذت منه حاجتها وانصرف باقي المطر عنها، {فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ} والطل هو المطر والرذاذ الخفيف ، يكفيها لتؤتي ضعفين من نتائجها ، وإذا كان الضعف هو ما يساوي الشيء مرتين ، فالضعفان يساويان الشيء أربع مرات ، والله يضرب لنا مثلاً ليزيد به الإيضاح لحالة من ينفق ماله رياء الناس ، فيسأل عباده المؤمنين وهو أعلم بهم ، فيقول جل شأنه {أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} (٢)

ولهذا يبين الشيخ الشعراوي أن من أشد الظلم للنفس الإنفاق رياءً، أو الإنفاق في المعاصي (٣) يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى وقوله {وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ} وآتى الزكاة ، يحتمل : أن يكون المراد به زكاة النفس وتخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة كقوله تعالى {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} (٤) وقول موسى لفرعون {هَلْ لَكَ إِلَى أَن تَزَكَّى وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى} (٥) وقوله تعالى {وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} (٦) ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال . (٧)

لهذا كان المقصد الأساس والمصلحة العظمى من الزكاة هو تزكية النفس وترويضها على العطاء والبذل بالمعروف، واكتساب حسن الأخلاق ، والبعد عن الشح والبخل والمن والأذى ، فحينما ذكر الله تعالى الزكاة قال {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} (٨) لم يعللها بتعليل اقتصادي، أو التكافل الاجتماعي، وما إلى ذلك من فوائد الزكاة ومصالحها ومقاصدها الصحيحة الموجودة فيها، لكنه عللها بالمصلحة الإيمانية والقلبية {تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} فنبه الشارع الناس على المصلحة الأعلى والأهم ، والتي قد يصيبها الإغفال والضمور. (٩)

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٢ - ص ١١٥٤ / أنظر سورة البقرة : آية رقم (٢٦٥)

(٢) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٢ - ص ١١٥٥ - ١١٥٨ بتصرف / أنظر : سورة البقرة : آية رقم (٢٦٦).

(٣) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٢ - ص ١١٦٦ .

(٤) سورة الشمس : آية رقم (٩ - ١٠)

(٥) سورة النازعات : آية رقم (١٨)

(٦) سورة البقرة : آية رقم (٤٥)

(٧) الحافظ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم - م ١ - ص ٣٥٦

(٨) سورة فصلت : آية رقم (٧)

(٩) عبد الفتاح بن محمد مصيلحي: جامع المسائل والقواعد في علم الأصول والمقاصد - دار اللؤلؤة للنشر - المنصورة - مصر - ٢٠٢٢ - م ٤ - ص ٢٢٦

عبادة الصوم : يُعد الصوم من أعظم العبادات التي شرعها الإسلام لتحقيق مقاصد روحية وأخلاقية سامية ، تتجاوز الامتناع الظاهري عن الطعام والشراب ، إلى تهذيب الباطن وإصلاح السلوك وبناء الإنسان الرباني ، فمن خلال هذا الامتناع الإرادي يترقى المؤمن في مراتب تركية النفس، ويخف تعلقه بالشهوات ، ويتعاضم إحساسه برقابة الله تعالى امتثالاً لقوله سبحانه {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (١) فالتقوى هي المقصد الأسمى للصوم ، وهي جوهر التزكية وروحها . ١٨٣ البقرة

يقول الشيخ الطاهر ابن عاشور : الصيام في اللغة مطلق الإمساك ، وإن إطلاقه على الإمساك عن الشهوتين اصطلاح شرعي لا يصح ، لأنه مخالف لأقوال أهل اللغة .

والصيام - ويقال الصوم - هو في اصطلاح الشرع : اسم لترك جميع الأكل وجميع الشرب وقربان النساء مدة مقدرة بالشرع بنية الامتناع لأمر الله ، أو لقصد التقرب بنذر للتقرب إلى الله .

وحكم الصيام هو حكم عظيم، من الأحكام التي شرعها الله تعالى للأمة، وهو من العبادات الرامية إلى تركية النفس ورياضتها، وفي ذلك صلاح حال الأفراد فرداً فرداً، إذ منها يتكون المجتمع " (٢)

والمأمل في شعيرة الصوم يجد أنها ليست مجرد عبادة دورية موسمية، بل هي منهج تربوي يتكامل فيه البعد الإيماني بالبعد النفسي والاجتماعي، إذ تُدرب النفس على مجاهدة الهوى وضبط الانفعالات والصبر على المكاره، كما ينمي الشعور بالتكافل والرحمة، فيزداد صفاء الروح وتتطهر النفس من أمراضها كالكبر والأنانية والغفلة، ولهذا اكتسب الصوم مكانة مركزية في مسار التزكية، فهو يحقق للمسلم حالة من السمو الروحي والانضباط الأخلاقي، ويثمر صفات العبودية الصادقة والالتزام بمنهج الله في السلوك والاعتقاد.

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته *** أتعبت نفسك فيما فيه خسران

أقبل على النفس فاستكمل فضائلها *** فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ولذلك كان من مقاصد الصوم تركية النفوس وتهذيبها، وتنقية لها من الأخلاق الرذيلة، قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (٣) فالمقصد الأسمى هو الوصول بالنفس إلى درجة التقوى، خاصة أنه شرع في شهر من خصوصياته تصفيد الشياطين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين" (٤)

ولهذا يضيق الصوم مجاري الشيطان في بدن الإنسان، وكما هو معلوم، فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، إلا أنه بالصيام يضعف نفوذه، فإذا أكل المرء أو شرب انبسطت نفسه للشهوات، وضعفت إرادتها، وقلت رغبتها في العبادات.

(١) سورة البقرة : آية رقم (١٨٣)

(٢) محمد الطاهر ابن عاشور : التحرير والتنوير - الدار التونسية للنشر - تونس - ١٩٨٤م - ٢ - ص ١٥٤ ، ١٥٥ بتصرف

(٣) سورة البقرة : آية رقم (١٨٣)

(٤) حديث شريف : أخرجه الإمام مسلم في صحيحه - كتاب الصيام - رقم ١٠٧٩ - م ٣ - ص ١٢١ .

" فالصوم يكسو النفس المؤمنة لباس التقوى، ويتميز الصوم من بين سائر العبادات بأن فيه قمعاً لغرائز الصائم عن الاسترسال في شهواتها، التي هي أصل البلاء على النفس والبدن والروح على حدٍ سواء، ففيه فطام لها عن ملذاتها ومحبتها ومشتهاياتها ومألوفاتها، والصوم مؤدب ومهذب وكابح تربوي وإيماني وأخلاقي لتلك الشهوات، لأنه يصرف وساوس الشيطان وكيدته وتدبيره (١).

يقول ابن القيم رحمه الله: وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة، والقوى الباطنة، وحميته عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها أفسدتها، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات" (٢)

ويقول الإمام الكمال بن الهمام - أحد فقهاء الحنفية - في فوائد الصوم: أن الصوم يسكن النفس الأمارة بالسوء ويكسر سورتها في الفضول المتعلقة بجميع الجوارح من العين واللسان والأذن والفرج، ولذلك قيل: إذا جاعت النفس شبت جميع الأعضاء، وإذا شبت جاعت كلها" (٣)

إن للصوم تأثيراً كبيراً في دفع الشهوات وكسر حدتها، ولهذا يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: الصوم جُنَّةٌ " (٤) ومعنى جُنَّةٌ : أي درع واقية من الإثم في الدنيا ، ومن النار في الآخرة . وفي الحديث الآخر: الصيام جُنَّةٌ ، وهو حصن من حصون المؤمن " (٥).

يقول الدكتور مصطفى السباعي حين ذكر حديث "الصوم جُنَّةٌ" ثم عقب قائلاً : فقد قدم الحكمة من الصيام ، ثم بين آدابه ، ليكون أوقع في النفس وأعمق أثراً ، وليكون المؤمن أكثر اطمئناناً إلى العبادة حين يؤديها ، وإلى التشريع حين ينفذه " (٦)

ففي الصوم وقاية من المأثم ، لأنه يعود المسلم على خلق العفة والطهارة والمراقبة والخشية ، ويحجبه عن هواجس النفس وثورات الشهوات المحرمة المستعرة ، وهو أيضاً وقاية لها من كل داء .

وإذا كبج الصوم المعاصي نال العبد منزلة راقية في العبودية لله ، لأن الصوم الذي يراد به مجرد الإمساك عن الطعام والشراب يستطيعه كثير من الناس ، بيد أنه سبحانه أراد من عباده أن يكون صومهم منقياً لهم من المعاصي وما دار في فلكها .

وصدق صلى الله عليه وسلم حين قال: رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، ورب قائم حظه من قيامه السهر والتعب" (١)

(١) أبو عبد الرحمن عرفة بن طنطاوي: عناية الإسلام بتربية الأبناء كما بينتها سورة لقمان - مركز تأصيل علوم التنزيل للبحوث العلمية والدراسات القرآنية - نسخة إلكترونية - بدون - ص ٥٨٨

(٢) الإمام ابن القيم الجوزية : زاد المعاد في هدي خير العباد - م ٢ - ص ٢٩

(٣) كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي المعروف بابن الهمام الحنفي : شرح فتح القدير على الهداية - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر - ١٩٧٠ م - ٢٠٠ ص

(٤) حديث شريف : أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (٤ / ٨٧ ، ٩٤) / وأنظر الإمام مسلم في صحيحه (١١٥١)

(٥) حديث شريف : صحيح الجامع (٣٨٨١)

(٦) الدكتور مصطفى السباعي : أحكام الصيام وفلسفته في ضوء القرآن والسنة - المكتب الإسلامي - بيروت - ٢٠٢١ - ط ٣ - ص ٥٣

لذا فإن الصوم يروض الإنسان أن يكون بكلية صائماً عما حرم الله في شهر رمضان وفي غيره من الشهور، فإن رمضان هو المحطة السنوية للغسيل الروحي ، وليس يعني ذلك أن المسلم إذا صام عن المحرمات في رمضان ، أنه يجوز له أن يقترب ما حرم الله من المعاصي والموبقات في غير هذا الشهر، فليكن رمضان زاداً إيمانياً لكل الشهور القادمة من بعده ، ودورة تربوية يزداد فيها رصيد العمل الصالح ، ويكثر فيه محاسبة النفس ومنعها من الحرام ، وقد قال الله تعالى {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ} (٢) ومن حكمة الصيام هو أن يدرك الإنسان نفسه ، ويجدد توبته لربه ويتعد عن منكرات الأخلاق والأقوال والأعمال، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورد عنه : من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه" (٣)

ويقول صلى الله عليه وسلم فيما ورد عنه في الحديث المتفق عليه : عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل : كل عمل ابن آدم له إلا الصيام ، فإنه لي وأنا أجزي به ، والصيام جنة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل : إني صائم ، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقي ربه فرح بصومه" (٤)

أهل الخصوص من الصوم صومهم *** صون اللسان عن البهتان والكذب

والعارفون وأهل الأنس صومهم *** صون القلوب عن الأغيار والحجب

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره لقول الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ } يقول تعالى مخاطباً للمؤمنين من هذه الآية ، وأمرهم بالصيام ، وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع ، بنية خالصة لله ، لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة ، وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم فلم فيه أسوة ، وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك ، كما قال تعالى { لِكَلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ } (٥) ولهذا قال هاهنا { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } لأن الصوم فيه تزكية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان، ولهذا ثبت في الصحيحين : "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء" (٦)

(١) حديث شريف : صحيح الترغيب (١٠٧٠)

(٢) سورة النازعات : آية رقم (٤٠ - ٤١)

(٣) حديث شريف : أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - كتاب الصوم - رقم (١٩٠٣) م ٢ - ص ٢٠٣ / وأنظر الإمام النووي : رياض الصالحين - كتاب الفضائل - ص ٣٤٨ .

(٤) حديث شريف : أخرجه الإمام البخاري في صحيحه - ٢ / ٦٧٣ - رقم (١٨٠٥) / وأنظر الإمام مسلم في صحيحه - ٢ / ٨٠٦ - رقم (١١٥١)

(٥) سورة المائدة : آية رقم (٤٨)

(٦) الإمام ابن كثير : تفسير ابن كثير - ١ - ص ٣٦٤ / وانظر للحديث الشريف : أخرجه الإمام البخاري في صحيحه = ٣ / ٤١٢ / وأنظر الإمام مسلم في صحيحه - ٤ / ١٢٨ / وأنظر الإمام النسائي في مسنده - ١ / ٣١٢ ، ٣١٣ .

يقول الشيخ الشعراوي في تفسيره لقول الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ } والحق سبحانه يبدأ هذه الآية الكريمة بترقيق الحكم الصادر بالتكليف القادم وهو الصيام ، فكأنه يقول : يا من آمنتم بي وأحببتموني لقد كتبت عليكم الصيام .

وعندما يأتي الحكم ممن آمنتم به ، فأنت تثق أنه يخصك بتكليف تأتي منه فائدة لك ، واضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - هب أنك تُخاطب ابنك في أمر فيه مشقة ، لكن نتائجه مفيدة ، فأنت لا تقول له : يا بني افعل كذا ، لكنك تقول له: يا بُنَيَّ افعل كذا ، وكأنك تقول له: يا صغيري لا تأخذ العمل الذي أكلفك به بما فيه من مشقة بمقاييس عقلك غير الناضج ، ولكن خذ هذا التكليف بمقاييس عقل وتجربة والدك .

والمؤمنون يأخذون خطاب الحق لهم {ياأيها الذين آمنوا} بمقاييس المحبة لكل ما يأتي منه سبحانه من تكليف حتى وإن كان فيه مشقة ، والمؤمنون بقبولهم للإيمان ، إنما يكونون مع الحق في التعاقد الإيماني ، وهو سبحانه لم يكتب الصيام على من لا يؤمن به ، لأنه لا يدخل في دائرة التعاقد الإيماني ، وسيلقي سعيه . (١)

ويعرف الشيخ الشعراوي الصوم فيقول: والصيام هو لون من الإمساك، لأن معنى: صام، هو: أمسك، والحق يقول {فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا} (٢) وهذا إمساك عن الكلام إذن فالصوم معناه : الإمساك .

لكن الصوم التشريعي يعني : الصوم عن شهوتي البطن والفرج من الفجر وحتى الغروب . (٣)

ويستطرد الشيخ الشعراوي لبيان سنام ثمرة الصيام المرجوة ألا وهي التقوى ، فيقول : ويذيل الحق آية الصيام بقوله {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} ونعرف أن معنى التقوى هو : أن نجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية ، وأن ننقي بطش الله ، وننقي النار ، وهي من آثار صفات الجلال.

وقوله الحق {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} أي أن نهذب ونشذب سلوكنا ، فنبتعد عن المعاصي ، والمعاصي في النفس إنما تنشأ من شره ماديتها إلى أمر ما .

والصيام كما نعلم يضعف شره المادية وحدتها وتسلطها في الجسد، ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم للشباب المراهق وغيره : " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء" وكأن الصوم يشذب شره المادية في الجسم الشاب ، وإن تقليل الطعام يعني تقليل وقود المادة ، فيقل السعار الذي يدفع الإنسان لارتكاب المعاصي ، والصيام في رمضان يعطي الإنسان الاستقامة لمدة شهر ، ويلحظ الإنسان حلاوة الاستقامة فيستمر بها بعد رمضان. (٤)

والحق لا يطلب منك الاستقامة في رمضان فقط ، إنما هو سبحانه قد اصطفى رمضان كزمن تتدرب فيه على الاستقامة لتشيع من بعد ذلك في كل حياتك ، لأن اصطفاء الله لزمان ، أو اصطفاء الله لمكان ، أو لإنسان ، ليس

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٢ - ص ٧٦٤ .

(٢) سورة مريم : آية رقم (٢٦)

(٣) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٢ - ص ٧٦٤ .

(٤) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٢ - ص ٧٦٥

لتدليل الزمان ، ولا لتدليل المكان ، ولا لتدليل الإنسان ، وإنما يريد الله من اصطفاؤه لرسول أن يشيع أثر اصطفاء الرسول في كل الناس ، ولذلك نجد تاريخ الرسل مليئاً بالمشقة والتعب ، وهذا دليل على أن مشقة الرسالة يتحملها الرسول وتعبها يقع عليه هو ، ولذلك اصطفاء الله للرسول لجعله أسوة .

وكذلك يصطفي الله من الزمان أياماً لا ليدللها على بقية الأزمنة ، ولكن لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يشيع اصطفاء هذا الزمان في كل الأزمنة ، كاصطفائه لأيام رمضان ، والحق سبحانه وتعالى يصطفي الأمكنة ليشيع اصطفاؤها في كل الأمكنة ، إذن فحين يصطفي الله زماناً أو مكاناً أو يصطفي إنساناً ، إنما يشاء الحق سبحانه وتعالى أن يشيع اصطفاء الإنسان في كل الناس ، واصطفاء المكان في كل الأمكنة ، واصطفاء الزمان في كل الأزمنة ، ولذلك أتعجب عندما أجد الناس تستقبل رمضان بالتسبيح وبآيات القرآن ، وبعد أن ينتهي رمضان ينسون ذلك .

وأقول هل جاء رمضان ليحرس لنا الدين، أم أن رمضان يجيء ليدرنا على أن نعيش بخلق الصفاء في كل الأزمنة؟ ويتحدث الشيخ الشعراوي على أن فريضة الصيام على المسلمين وعلى من كان قبلهم من الأمم وإن اختلفت الكيفية فيقول في تفسيره لقول الحق سبحانه { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ } يدلنا على أن المسلمين ليسوا بدعاً في مسألة الصوم ، بل سبقهم أناس من قبل إلى الصيام ، وإن اختلفت شكلية الصوم ، وساعة يقول الحق { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ } فهذا تقرير للمبدأ، مبدأ الصوم . (١)

ثم يبين الشيخ الشعراوي تميز عبادة الصوم عن غيرها من العبادات ، وتفردها بالتوجه إلى الله ، فيقول : إن الصوم هو العبادة الوحيدة التي لم يعبد بها بشرٌ بشراً أبداً ، فمن الممكن مثلاً في شهادة أن لا إله إلا الله ، أن يأتي من يمدح آخر ، فيقول له : ليس في الكون إلا أنت ، أنت النافع وأنت الضار، وهناك من قال عن نفسه : أنا الزعيم الأوحيد ، كذلك في الصلاة نرى من يخضع ويسجد لغير الله ، كما نخضع ونسجد نحن في الصلاة ، وكذلك في الزكاة نتقرب إلى العظيم ، أو الكبير بالهدايا له ، أو لمن حوله .

لكن ، هل قال بشر لبشر : أنا أصوم شهراً ، أو يوماً تقرباً إليك ؟ لا . لأن الصيام للغير المماثل تذييب للمصوم له لا للصائم ، لأنه سيضطر لأن يظل طوال اليوم يراقبك ، أكلت أم لم تأكل ؟ ولأن الصوم هو العبادة الوحيدة التي لم يتقرب بها بشر لبشر ، قال الله عنها في الحديث القدسي: "كل عمل ابن آدم له إلا الصوم ، فإنه لي ، وأنا أجزي به" بمعنى : جزاؤه خارج المقرر كما قلنا .

ومن عظمة تكليف الصوم أيضاً أن الله تعالى أحل لنا أشياء، وحرم علينا أشياء أخرى تحريماً أبدياً، فالذي تحمل التكليف أَلِفَ الحلال ولم يألف ما حُرِّم عليه، ورسخت هذه العقيدة في نفسه، حتى أن الحرام لا يخطر بباله أبداً، فلم يأت على باله مرة مثلاً أن يشرب الخمر، أو يأكل الميتة ، فهذه مسألة منتهية بالنسبة له، فأراد الله تعالى أن يديم لذة التكليف على البشر، ففرض الصوم الذي يحرم عليك اليوم ما كان محلاً لك بالأمس، ومألوفاً حتى صار عادة .

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٢ - ص ٧٦٥ ، ٧٦٦ .

إن: هناك فرق بين دوام العادة ولذة العبادة ، وتأمل مثلاً يوم الفطر، والفطر عادة لك في غير هذا اليوم ، وأنت حر تفطر أو لا تفطر ، فإذا ما جاء يوم عيد الفطر أخرجك ربك من العادة إلى العبادة ، وجعله تكليفاً أن تفطر قبل الخروج للصلاة . (١)

ثم يوضح الشيخ الشعراوي أثر ونتائج الصوم في الإنسان وما ينتج من إشراقات تتجلى عليه ، وما يذوقه من حلاوة الإيمان ، فيقول : انظروا إلى دقة الأداء القرآني في قوله { وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَذَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } (٢) إن العبادة التي نفهم أن فيها مشقة هي الصيام ، وبعد ذلك تكبرون الله ، لأن الحق سبحانه عالم أن عبده حين ينصاع لحكم أمره الله وفيه مشقة عليه مثل الصوم ويتحملة ، وعندما يشعر بأنه قد انتهى منه ، إنه سبحانه عالم بأن العبد سيجد في نفسه إشراقاً يستحق أن يشكر الله الذي كلفه بالصوم ووفقه إلى أدائه ، لأن معنى { وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ } يعني أن نقول: الله أكبر، وأن نشكره على العبادة التي كنت تعتقد أنها تضنيك ، لكنك وجدت فيها تجليات وإشراقات ، فنقول : الله أكبر من كل ذلك ، الله أكبر ، لأنه حين يمنعي يعطيني ، وسبحانه يعطي حتى في المنع، فأنت تأخذ مقومات حياة ، ويعطيك في رمضان ما هو أكثر من مقومات الحياة ، والإشراقات التي تتجلى لك ، وتذوق حلاوة التكليف ، وإن كان قد فوت عليك الاستمتاع بنعمة ، فإنه أعطاك نعمة أكثر منها.

وبعد ذلك فالنسق القرآني ليس نسقاً من صنع البشر، فنحن نجد أن نسق البشر يقسم الكتاب أبواباً وفصولاً ومواد كلها مع بعضها، ويُفصل كل باب بفصوله ومواده، وبعد ذلك ينتقل لباب آخر، لكن الله لا يريد الدين أبواباً، وإنما يريد الدين وحدة متكافة في بناء ذلك الإنسان، فيأتي بعد قوله { وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ } بـ { وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } . ومعنى ذلك أنكم سترون ما يجعلكم تتطقون بـ الله أكبر، لأن الله أسدى إليكم جميلاً، وساعة يوجد الصفاء بين العابد وهو الإنسان ، والمعبود وهو الرب ، ويثق العابد بأن المعبود لم يكلفه إلا بما يعود عليه بالخير، هنا يحسن العبد ظنه بربه ، فيلجأ إليه في كل شيء ، ويسأله عن كل شيء ، ولذلك جاء هنا قول الحق { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ } (٣)

ومادمت قد ذقت حلاوة ما أعطاك الحق من إشراقات صفائية في الصيام ، فأنت ستتجه إلى شكره سبحانه ، وهذا يناسب أن يرد عليك الحق فيقول { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ } ونلاحظ أن " إذا " جاءت ، ولم تأت "إن" فالحق يؤكد لك أنك بعدما ترى هذه الحلاوة ستشكر الله ، لأنه سبحانه يقول في الحديث القدسي: ثلاثة لا ترد دعوتهم ، الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين . (٤)

" إذا فالصوم له دوره في تزكية النفس ، حيث يغرس في نفس الصائم فضيلة الصبر بما يحتمله من الإمساك عن الطعام والشراب وسائر المفطرات ، وفيه إطلاق للإنسان من حبس العادات والشهوات .

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - ١٩م - ص ١٢٠٣٤ / وأنظر : م ١٤ - ص ٨٥٦٥ .

(٢) سورة البقرة : آية رقم (١٨٥)

(٣) سورة البقرة : آية رقم (١٨٦)

(٤) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٢ - ص ٧٧٩ ، ٧٨٠ .

وفي الصوم تطويع للنفس على الطاعة والامتثال لأوامر الله ، واحساس برابطة قوية للوحدة تربط بين الصائم وبين سائر المؤمنين الصائمين ، حيث إنهم في وقت واحد يمسون ، وفي وقت واحد يفطرون ، فتسري روح الوحدة بين الأسرة الإسلامية في مختلف الأقطار .

وبالصوم يتولد الضمير الديني الإيماني الذي يكف صاحبه عن كل ما يخل بالدين والمرءة الإنسانية ، وتشرق حياة المسلم بالإخلاص لله في السر والعلن ، وتقوى إرادته ، وينشط عزمه وتصميمه ، وبالجمله فهو يصل إلى تقوى الله تعالى كما قال ربنا سبحانه وتعالى {لعلكم تتقون}

" ومن ثمار الصيام وأثره على النفس ما يجده المؤمن من رقة في قلبه وصلاح في نفسه وتهذيب لسمعه وبصره ومنطقه ولفظه وفعله ، وتربية نفسه على مراقبة الله وخشيته في علانيته وسره ، والمداومة على محاسبة نفسه ، وتهذيب لجميع جوارحه " (١) .

يقول الإمام ابن القيم : المقصود من الصيام هو حبس النفس عن الشهوات ، وفطامها عن المألوفات ، وتعديل قوتها الشهوانية ، لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها ، وقبول ما تركز به ما فيه حياتها الأبدية ، ويكسر الجوع والظما من حدتها وسورتها ، ويذكر بحال الأكباد الجائعة من المساكين ، وتضييق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب ، وتُحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يفيدها في معاشها ومعادها ، ويسكن كل عضو منها ، وكل قوة عن جماحه ، وتلجم بلجامه ، فهو لجام المتقين ، وجنة المحاربين ، ورياضة الأبرار والمقربين ، وهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها ، إثارة لمحبة الله ومرضاته ، وله تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة ، والقوى الباطنة ، وحمايتها من التخليط الجالب لها المواد الفاسدة ، التي إذا استولت عليها أفسدتها " (٢)

عبادة الحج :

يُعد الحج ركناً عظيماً من أركان الإسلام ، وعبادة جامعة ، تجمع في معانيها أرقى صور العبودية وأعمق مظاهر التزكية الروحية ، حيث يقف المسلم فيه على أبواب الرحمة الإلهية متجرداً من مظاهر الدنيا ، مقبلاً بقلبه وجوارحه على الله تعالى ، فالحج ليس انتقالاً مكانياً فحسب ، بل هو انتقال روحي من عالم الغفلة إلى عالم الحضور ، ومن تعلق النفس بالشهوات إلى مقام الصفاء والإخلاص ، وفي هذا التجرد تتطهر النفس من أدرانها ، وتزكو بالتقرب إلى الله ، وتسمو على الهوى والأنانية .

ولفظ الحج جاء في كتاب الله ٧ مرات ، معرباً بـ " ال " تارة ، ومجرداً منها في موضع آخر ، حيث جاء لفظ الحج معرباً بـ " ال " كما في قوله تعالى { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ } (٣) ومن الثاني قوله تعالى

(١) أبو عبد الرحمن عرفة بن طنطاوي : عناية الإسلام بتربية الأبناء كما بينتها سورة لقمان - ص ٥٨٥

(٢) الإمام ابن القيم الجوزية : زاد المعاد في هدي خير العباد - م ١ - ص ٢١١ / وأنظر / أبو عبد الرحمن عرفة بن طنطاوي : عناية الإسلام بتربية الأبناء كما بينتها

سورة لقمان - ص ٥٨٦

(٣) سورة البقرة : آية رقم (١٨٩)

{إِنَّ الصَّغَا وَالْمَرْوَةَ مِنَ شَعَائِرِ اللَّهِ} فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا{ (١) ويلاحظ أن لفظ حج جاء مضافاً إلى {البيت} فأكسبه تعريفاً ، وعليه فإن لفظ الحج لم يرد نكرة إطلاقاً في كتاب الله وجاء لفظ العمرة مرة واحدة مقترناً بالحج {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ} وبلغظ اعتمر مرة واحدة {فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ} (٢) أي أدى العمرة وقوله تعالى {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ} تعني تمام الحج والعمرة وأداء أعمالهما تامين كاملين من دون أن يترك الحاج والمعتمر منهما شيئاً .

وقد ورد لفظ الحج في القرآن في مواضع متعددة ، منها قوله تعالى { إِنَّ الصَّغَا وَالْمَرْوَةَ مِنَ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ } (٣) وقوله تعالى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيْتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأَتَى الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (٤) وقال تعالى { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ } (٥) وقوله تعالى { وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَرَوُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى وَاتَّقُوا يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * فَإِذَا قَضَيْتُمْ مِنْكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي آخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي آخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } (٦)

وقد سميت سورة كاملة باسم الحج { وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا

(١) سورة البقرة : آية رقم (١٥٨)

(٢) سورة البقرة : آية رقم (١٥٨)

(٣) سورة البقرة : آية رقم (١٥٨)

(٤) سورة البقرة : آية رقم (١٨٩)

(٥) سورة آل عمران : آية رقم (٩٦ - ٩٧)

(٦) سورة البقرة : آية رقم (١٩٦ - ٢٠٣)

مَنْعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ * ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ * ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ * ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالْبُذُنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْقَانِعِ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ النَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ } (١)

والماتمل في مناسك الحج ، يكشف عن طبيعة تربوية عميقة تهدف إلى بناء الإنسان وتحقيق التقوى ، كما قال تعالى { وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى } فالحج رحلة في مدرسة التزكية الإلهية ، تتجلى فيها معاني الصبر ، والتواضع ، والتجرد ، ومجاهدة النفس ، والالتزام بالذكر والطاعة ، كما أنه يرسخ الشعور بالأخوة الإسلامية والوحدة الإنسانية في هذا الموسم العظيم ، ويساهم في تطهير النفس من أمراض الكبر والتعصب والانغلاق ، ويغرس فيها قيم الرحمة والسكينة ومراقبة الله في السر والعلن .

" والحج عبادة بدنية ومعنوية ومالية لها أثر كبير في تركية النفس ، بما تغرسه من معاني الألفة والاجتماع وتحقيق النفع المشترك كما قال ربنا تبارك وتعالى { ليشهدوا منافع لهم } وفي الحج تزول الفوارق والطبقية والعرقية والطائفية ، فالجميع توحدتهم المناسك والشعائر ، ويوحدتهم الزي ، فيتجرد المحرم بالحج من ثيابه التي تتبدى بها مظاهر التفاوت والاختلاف بين الناس ، ويوحدتهم ملابس الاحرام التي يتساوى فيها جميع الناس غنيهم وفقيرهم ، وبذلك تزكي عبادة الحج نفس المسلم من التعالي والغرور والتفاخر ، ويتحلى بالتواضع والألفة والمحبة وتتحقق المساواة وأنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالنقوى " (٢).

ويعرف الشيخ الشعراوي الحج بأنه هو : قصد بيت الله الحرام للنسك والعبادة في أشهر معلومة . على الرغم من أن الحج في اللغة هو: القصد ، فإذا قصدت أي شيء تقول : حجبت إليه ، فلما جاء الإسلام أخذ هذا اللفظ من اللغة واستعمله في الحج بالمعنى الشرعي ، وهو قصد البيت الحرام للنسك " (٣) ثم يبين الشيخ الشعراوي من خلال تفسيره لقول الله تعالى { وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ } (٤) وهذا القول فيه تعميم في المكان وتعميم في المكين ، فيوم الحج يجتمع الناس كلهم في مكان واحد.

(١) سورة الحج : آية رقم (٢٦ - ٣٧)

(٢) د . احمد عمر هاشم : النفس في القرآن - ص ٢٠ - ٢١ بتصرف .

(٣) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٧ - ص ٤٠٧٧

(٤) سورة التوبة : آية رقم (٣)

وقد يتساءل البعض : لماذا سمي الحج الأكبر ؟ نقول : لأنه الحج الوحيد الذي اجتمع فيه الكفار والمؤمنون ، وبعد ذلك لم يعد هناك حج للكفار أو المشركين .

ثم يورد الشيخ الشعراوي بعض أقوال المفسرين فيقول : وبعض المفسرين يقولون : إن كلمة الحج الأكبر جاءت لتمييز بين الحج الأصغر وهي العمرة ، وبين الحج الذي يكون فيه الوقوف بعرفات . ونقول : إن العمرة لا يطلق عليها الحج الأصغر .

وقيل إن يوم الحج الأكبر هو يوم عرفة .

ولكن بعض العلماء قالوا : إنه يوم النحر ، لأن فيه مناسك كثيرة : رمي الجمرات والتقشير وطواف الإفاضة ، لذلك سمي يوم النحر بالحج الأكبر لكثرة مناسكه .

وقيل : إنها أيام الحج كلها ، وأنها قد سميت بيوم الحج على طريقة العرب في أداء الحدث الواحد بظرفه الملائم ، ألم يقل الحق سبحانه وتعالى : يوم حنين ؟ وحنين استغرقت أياماً ، فكأن اليوم يراد به الظرف الجامع لحدث كبير ، فكأن أيام الحج كلها يطلق عليها يوم الحج . (١)

ثم يتطرق إلى فرضية عبادة الحج على المسلم { فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ } بأن الفرض ليس من الإنسان ، إنما الفرض من الله الذي فرض الحج ركناً ، وأنت إن ألزمت به نفسك نية وفعلاً ، وشرعت ونويت الحج في الزمن المخصوص للحج ، تكون قد فرضت على نفسك الحج لهذا الموسم الذي تختاره ، وهو ملزم لك . وقوله سبحانه { فرض } يدل على أنك تلتزم بالحج وإن كان مندوباً ، أي غير مفروض .

ثم يبين الشيخ الشعراوي الآداب والأخلاق التي يجب أن يلزم المسلم نفسه ويتخلق بها ، فيقول من خلال تفسيره لقول الله تعالى { فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ } (٢) والرفث للسان ، وللعين وللجوارح الأخرى رفث ، كلها تلتقي في عملية الجماع ومقدماته ، ورفث اللسان في الحج أن يذكر مسألة الجماع ، ورفث العين أن ينظر إلى المرأة بشهوة .

فالرفث هو : كل ما يأتي مقدمة للجماع ، أو هو الجماع أو ما يتصل به بالكلمة أو بالنظرة أو بالفعل .

والرفث وإن أبيع في غير الحج ، فهو محرم في الحج ، أما الفسوق فهو محرم في الحج وفي غير الحج ، فكأن الله ينبه إلى أنه وإن جاز أن يحدث من المسلم فسوق في غير الحج ، فليس من الأدب أن يكون المسلم في بيت الله ويحدث ذلك الفسوق منه ، إن الفسوق محرم في كل وقت ، والحق ينبه هنا المسرف على نفسه ، وعليه أن يتذكر إن كان قد فسق بعيداً عن بيت الله ، فليستح أن يعصي الله في بيت الله ، فالذهاب إلى بيت الله يبتغي تكفير الذنوب عن نفسه ، فهل يُعقل أن يرتكب فيه ذنباً ؟ لابد أن تستحي أيها المسلم وأنت في بيت الله ، واعلم أن هذا المكان هو المكان الوحيد الذي يُحاسب فيه على مجرد الإرادة .

يقول الله تعالى { وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ } (٣)

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٨ - ص ٤٨٦٧

(٢) سورة البقرة : آية رقم (١٩٧)

(٣) سورة الحج : آية رقم (٢٥)

إذن الرفث حلال في مواضع ، لكنه يَحْرُمُ في البيت الحرام ، ولكن الفسوق ممتنع في كل وقت ، وامتناعه أشد في البيت الحرام .

والجدال وإن كان مباحاً في غير الحج ، فلا يصح أن يوجد في الحج .

ولنا أن نعرف أن مرتبة الجدال دون مرتبة الفسوق ، ودون مرتبة العصيان ، والرسول قال: من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه" لم يقل: ولم يجادل .

إن بشرية الرسول تراعي ظروف المسلمين ، فمن المحتمل أن يصدر جدال من الحاج نتيجة فعل استناره ، فكأن عدم ذكر الجدال في الحديث فسحة للمؤمن، ولكن لا يصح أن نتمادى فيها ، والجدال ممكن في غير الحج بدليل {وَجَادِلْهُمْ بَالْتِي هِيَ أَحْسَنُ} (١) إنما الحج لا جدال فيه .

والجدال هو : أن يلف كل واحد من الطرفين على الآخر ليطوقه بالحجة .

ثم انظر إلى تقدير الحق لظروف البشر ، وعواطفهم والاعتراف بها ، والتقنين لأمر واقع معترف به ، فالحج يُخرج الإنسان من وطنه ومن مكان أهله ومن ماله ، ومما أَلِفَ واعتاد من حياة ، وحين يخرج الإنسان هذا الخروج فقد تضيق أخلاق الناس، لأنهم جميعاً يعيشون عيشة غير طبيعية ، لاختلاف الأمزجة والعادات والثقافات والتقاليد . إذن فالحياة في الحج غير طبيعية، وظروف الناس غير طبيعية، لذلك يحذرنا الحق من الدخول في جدل ، لأنه ربما كان الضيق من تغيير نظام الحياة سبباً في إساءة معاملة الآخرين، والحق يريد أن يمنع هذا الضيق من أن يؤثر في علاقتنا بالآخرين ، وقد أثبتت التجربة أن من يذهبون للحج في جماعة إما أن يعودوا متحابين جداً، وإما أعداء ألداء .

ولذلك يطلب إلينا الحق أن يصبر كل إنسان على ما يراه من عادات غيره في أثناء الحج، وليحتسب خروجه عن عاداته وعن رتبة أموره وعن أنسه بأهله ، يحتسب ذلك عند الله ، وليشتغل بأنس الله ، وليتحمل في جانبه كل شيء ، ويكفي أنه في بيت الله وفي ضيافته. (٢)

ثم يتطرق الشيخ الشعراوي إلى أن أداء فريضة الحج والغاية منها هو تزكية النفس من خلال الاستزادة بالتقوى، قال تعالى { وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى } فبعد أن نهانا الحق بقوله { فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ } وتلك أمور سلبية ومذمومة ، وهي أفعال على الإنسان أن يمتنع ويصرف نفسه عنها ، وهنا يتبع الحق الأفعال السلبية بالأمر بالأفعال الإيجابية، أفعال الخير التي يعلمها الله بأن فيها فلاح وتزكية لنفس المسلم إن الله يريد أن نجمع في العبادة بين أمرين ، سلب وإيجاب ، سلب ما قال عن الرفث والفسوق والجدال ، ويريد أن نوجب ونوجد فعلاً { وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ }

وما هو ذلك الخير؟ إنها الأمور المقابلة للمسائل المنهي عنها، فإذا كان الإنسان لا يرفث في الحج ، فمطلوب منه أن يعف في كلامه وفي نظريته وفي أسلوبه وفي علاقته بامرأته الحلال له ، فيمتنع عنها ما دام محرماً ويطلب منه أن يفعل ما يقابل الفسوق ، من بر وخير. (١)

(١) سورة النحل : آية رقم (١٢٥)

(٢) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٢ - ص ٨٤٤

وفي الجدل نجد أن مقابله هو الكلام بالرفق والأدب واللين ، وبحلاوة الأسلوب ، وبالعطف على الناس ، هذا هو المقصود بقوله { وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ } .

وكلمة من قوله { مِنْ خَيْرٍ } للابتداء ، كأن الله سبحانه وتعالى يريد منك أن تصنع خيراً ، وهو سبحانه يرى أقل شيء من الخير ، ولذلك قال { يَعْلَمُهُ اللَّهُ } فكأنه خير لا يراه أحد ، فالخير الظاهر يراه كل الناس ، والتعبير { يَعْلَمُهُ اللَّهُ } أي الخير مهما صغر ، ومهما قل فإن الله يعلمه ، وكثير من الخيرات تكون هواجس بالنية ، ويجازي الله على الخير بالجزاء الذي يناسبه .

وقول الحق { وَتَزَوَّدُوا } مأخوذة كما عرفنا من الزيادة ، والزاد هو طعام المسافرين ، ومن يدخر شيئاً لسفر فهو فائض وزائد عن استهلاك إقامته ، ويأخذه حتى يكفيه مؤونة السؤال أو الاستشراق إلى السؤال ، لأن الحج ذلة عبودية ، وذلة العبودية يريدتها الله له وحده ، فمن لا يكون عنده مؤونة سفره ، فربما يذل لشخص آخر ، ويطلب منه أن يعطيه طعاماً ، والله لا يريد من الحاج أن يذل لأحد ، ولذلك يطلب منه أن يتزود بقدر حاجته حتى يكفي نفسه ، وتظل ذلته سليمة لربه ، فلا يسأل غير ربه ، ولا يستشرف للسؤال من الخلق ، ومن يسأل أو يستشرف فقد أخذ شيئاً من ذلته المفروض أن تكون خالصة في هذه المرحلة لله ، وهو يوجهها للناس ، والله يريد لها خالصة .

ونعرف أن الزاد هو ما تقي به نفسك من الجوع والعطش ، وإذا كان التزود فيه خير لاستبقاء حياتك الفانية ، فما بالك بالحياة الأبدية التي لا فناء فيها ، ألا تحتاج إلى زاد أكبر؟ فكأن الزاد في الرحلة الفانية يعلمك أن تتزود للرحلة الباقية

إذن فقوله { فَإِنَّ خَيْرَ الزَادِ التَّقْوَى } يشمل زاد الدنيا والآخرة ، والله سبحانه وتعالى يذكرنا بالأمور المحسنة ، وينقلنا منها إلى الأمور المعنوية ، ولكن إذا نظرت بعمق وصدق وحق ، وجدت الأمور المعنوية أقوى من الأمور الحسية . (٢) ثم ينتقل الشيخ الشعراوي إلى ما يجب على النفس أن تتأدب به في هذا المكان والزمان ، ولماذا ذكر الله كلمة حرام وقرنها بالمسجد ، فيقول : { والمسجد الحرام } (٣) كلمة حرام يُستفاد منها أنه مُحرم أن تفعل فيه خطأ ، أو تهينه ، أو تعتدي فيه .

وكلمة { الْحَرَامُ } وصف بها بعض المكان وبعض الزمان ، وهي خمسة أشياء : نقول : البيت الحرام وهو الكعبة ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، ثم المشعر الحرام ، وهذه عبارة عن دوائر مركز الكعبة ، هذه أماكن ، ثم الخامس وهو زمن : الشهر الحرام الذي قال الله فيه { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ } (٤) وحرمة الزمان والمكان هنا لحكمة أرادها الخالق سبحانه ، لأنه رَبّ رحيم بخلقه ، يريد أن يجعل لهم فرصة لستر كبريائهم ، والحد من غرورهم (٥) .

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٢ - ص ٨٤٥ - ٨٤٧

(٢) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ٢ - ص ٨٤٨ - ٨٥٥ بتصرف

(٣) سورة الحج : آية رقم (٢٥)

(٤) سورة البقرة : آية رقم (١٨٦)

(٥) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٦ - ص ٩٦٦٧

والمولى سبحانه وتعالى جعل مقر استقباله لضيوفه وحجاج بيته هو البيت الحرام ، وقد طهره وهياه كدلالة على وجوب امتثال تهئية الطائفين والزائرين أن يطهروا أنفسهم ويتهيئوا لنقل فيضوات الله ورحماته ، ويؤكد هذا المعنى بقوله { وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } (١)

والتطهير يعني : الطهارة المعنوية بإزالة أسباب الشرك ، وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، وطهارة حسية مما أصابه بمرور الزمن وحوادث الطوفان ، فقد يكون به شيء من القاذورات مثلاً .

ومعنى { لِلطَّائِفِينَ } الذين يطوفون بالبيت { والقائمين } المقيمين المعتكفين فيه للعبادة { والركع السجود } الذين يذهبون إليه في أوقات الصلوات لأداء الصلاة ، عبر عن الصلاة بالركوع والسجود ، لأنهما أظهر أعمال الصلاة .

ثم يقول الحق سبحانه مبيناً أن الدعوة لأداء تلك العبادة والتزود منها بالتقوى قد تم بالإعلام والإخبار بها بدعوة من الله تعالى لجميع خلقه لتزكية نفوسهم وتخليقهم بالأخلاق الفاضلة ، وقد سمع هذه الدعوة جميع خلقه وهم في أصلاب آبائهم ، وذلك من خلال توجيه الأمر لسيدنا إبراهيم بالنداء والتبليغ ، قال تعالى { وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا } حيث أمر الله نبيه إبراهيم بعد أن رفع القواعد من البيت أن يؤذن في الناس بالحج ، لماذا ؟ لأن البيت بيت الله ، والخلق جميعاً خلق الله ، فلماذا تقتصر رؤية البيت على من قدر له أن يمر به ، أو يعيش إلى جواره ؟

فأراد الحق - سبحانه وتعالى - أن يُشيع هذه الميزة بين خلقه جميعاً ، فيذهبوا لرؤية بيت ربهم ، وإن كانت المساجد كلها بيوت الله ، إلا أن هذا البيت بالذات هو بيت الله باختيار الله ، لذلك جعله قبلة لبيوته التي اختارها الخلق .

ومعنى { أَذِّنْ } الأذان : العلم ، وأول وسائل العلم السماع بالأذن ، ومن الأذن أخذ الأذان ، أي : الإعلام ، ومن هذه المادة قوله تعالى { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ } (٢) أي : أعلم ، لأن الأذن وسيلة السماع الأولى ، والخطاب المبدئي الذي نتعلم به ، لذلك قبل أن نتكلم لا بد أن نسمع .

وحينما أمر الله سيدنا إبراهيم بالأذان لم يكن حول البيت غير إبراهيم وولده وزوجته ، فلمن يؤذن ؟ ومن سيستمع في صحراء واسعة شاسعة وواد غير مسكون ؟ فناداه ربه : يا إبراهيم عليك الأذان وعلينا البلاغ .

أي أن مهمتك أن ترفع صوتك بالأذان ، وعلينا إيصال هذا النداء إلى كل الناس ، في كل الزمان ، وفي كل المكان ، سيسمعه البشر جميعاً ، وهم في عالم الذر وفي أصلاب آبائهم بقدرة الله تعالى الذي قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم { وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى } (٣)

يعني : أد ما عليك واترك ما فوق قدرتك لقدرة ربك ، فأذن إبراهيم في الناس بالحج ، ووصل النداء إلى البشر جميعاً ، وإلى أن تقوم الساعة ، فمن أجاب ولبي : لبيك اللهم لبيك كتبت له حجة ، ومن لبي مرتين كتبت له حجتين وهكذا ، لأن معنى لبيك : إجابة لك بعد إجابة .

وهذا معنى قوله تعالى { فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ } (١) ومعنى تهوي : تأتي دون اختيار من الهوي أي : السقوط ، وهو أمر لا يملكه الإنسان ، كالذي يسقط من مكان عالٍ ، فليس له اختيار في ألا يسقط

(١) سورة الحج : آية رقم (٢٦)

(٢) سورة إبراهيم : آية رقم (٧)

(٣) سورة الأنفال : آية رقم (١٧)

وهكذا تحن النفوس والقلوب إلى بيت الله ، وتتحرق شوقاً إليه ، وكأن شيئاً يجذبها لأداء هذه الفريضة ، لأن الله تعالى أمر بهذه الفريضة ، وحكم فيها بقوله { يَأْتُوكَ } أما في الأمور الأخرى فقد أمر بها وتركها لاختيار المكلف ، يطيع أو يعصي ، إذن : هذه المسألة قضية صادقة بنص القرآن (٢)

ويتحدث الشيخ الشعراوي عن آثار ونتائج فريضة الحج وما تعود به من خير ونفع على المسلم ، فيقول من خلال تفسيره لقول الحق سبحانه { لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ } (٣) كلمة { مَنَافِعَ } كلمة عامة واسعة تشمل كل أنواع النفع : مادية دنيوية ، أو دينية أخروية ، ولا ينبغي أن نضيق ما وسعه الله ، فكل ما يتصل بالحج من حركات الحياة يعد من المنافع ، فاستعدادك للحج ، وتدبير نفقاته وأدواته وراحته فيها منافع لك ولغيرك ، حين توفر لأهلك ما يكفيهم حتى تعود ، فكل ما يتم من حركة بيع وشراء في مناطق الحج ، كلها منافع متبادلة بين الناس ، التاجر الذي يبيع لك ، وصاحب البيت الذي يؤجره لك ، وصاحب السيارة التي تنقلك .

إذن : المنافع المادية في الحج كثيرة ومتشابهة ، متداخلة مع المنافع الدينية الأخروية ، فحين تشتري الهدى مثلاً تؤدي نكساً وتتفع التاجر الذي باع لك ، والمربي الذي ربي هذا الهدى ، والجزار الذي ذبحه ، والفقير الذي أكل منه إذن : لا يتم الحج إلا بحركة حياة واسعة ، فيها نفع لك وللناس من حيث لا تدري . (٤)

ومن منافع الحج ان الحاج منذ أن ينوي أداء هذه الفريضة ، ويُعد نفسه لها إعداداً مادياً ، وإعداداً نفسياً معنوياً ، فيحاول أن يُعيد حساباته من جديد ، ويُصلح من نفسه ما كان فاسداً ، وينتهي عما كان يقع فيه من معصية الله ، ويُصلح ما بينه وبين الناس ، إذن : يجري عملية صقل خاصة تحوله إلى إنسان جديد يليق بهذا الموقف العظيم ، ويكون أهلاً لرؤية بيت الله والطواف به.

ومن الإعداد للحج أن يتعلم الحاج ما له وما عليه ، ويتأدب بآداب الحج ، فيعرف محظوراته وما يحرم عليه ، وأنه سوف يتنازل عن هندامه وملابسه التي يزهو بها ، ومكانته التي يفتخر بها بين الناس ، وكيف أن الإحرام يسوي بين الجميع ، ويتعلم كيف يتأدب مع نفسه ويؤدبها ، ومع كل أجناس الكون من حوله ، مع نفسه فلا يفكر في معصية ، ولا تمتد يده حتى على شعره من شعره ، أو ظفر من أظفاره ، ولا يقرب طيباً ، ولا حتى صابونة لها رائحة.

والعجيب أن الحاج ساعة يدخل في الإحرام يحرص كل الحرص على هذه الأحكام ، وأتحدى أي إنسان ينوي الحج ويأخذ في الإحرام به ، ثم يفكر في معصية ، لأنه يُعد نفسه لمرحلة جديدة ، تتطهر فيها نفسه من الذنوب ، فكيف يكتسب المزيد منها وقد أتى من بلاد بعيدة ليتطهر منها ؟

وفي الحج يتأدب الحاج حتى مع الحيوان ، فلا يصيده ولا يقتله ، ومع النبات فلا يقطع شجراً . يتأدب حتى مع الجماد الذي يعتبره أدنى أجناس الكون ، فيحرص على تقبيل الحجر الأسود ، ويجتهد في الوصول إليه ، فإن لم يستطع أشار إليه بيده . (١)

(١) سورة إبراهيم : آية رقم (٣٧)

(٢) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٦ - ص ٩٧٧٩ - ٩٧٨٠ .

(٣) سورة الحج : آية رقم (٢٨)

(٤) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٦ - ص ٩٧٨٠ - ٩٧٨٢

إن الحج ترويض للنفس وتزكية لها والتزام وانضباط يفوق أي انضباط يعرفه أهل الدنيا في حركة حياتهم، ففي الحج ترى هذا الإنسان السيد الأعلى لكل المخلوقات ، كم هو منكسر خاضع مهما كانت منزلته، وكم هي طمأنينة النفس البشرية حين تقبل حجراً وهي راضية خاضعة ، بل ويحزن الإنسان إذ لم يتمكن من تقبيل الحجر .

ومن آثار ونتائج فريضة الحج هو ترويض النفس وتزكيتها بذكر الله تعالى ، يقول الحق سبحانه وتعالى { وَيَذْكُرُوا اسم الله في أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ } (٢) يذكروا اسم الله ، لأن كل أعمال الحج مصحوبة بذكر الله وتلبيته ، فما من عمل يؤديه الحاج إلا ويقول: لبيك اللهم لبيك، وتظل التلبية شاغله ودينه إلى أن يرمي جمرة العقبة، ومعنى لبيك اللهم لبيك : أن مشاغل الدنيا تطلبني ، وأنت طلبتني لأداء فرضك علي ، فأنا ألبيك أنت أولاً ، لأنك خالقي وخالق كل ما يشغلني ويأخذني منك . (٣)

وحين يؤدي المسلم من العامة فريضة الحج ، فيكفيه أن يعلم أن الحج فريضة ، ويبحث عند بدء الحج عن يعلمه خطوات الحج كما أداها صلى الله عليه وسلم (٤) ومن خلال ما سبق يتضح أن للحج آثار عديدة ، ومن آثار الحج في تزكية النفس (٥) :

أن الحج فيه معنى الامتثال لله تبارك وتعالى حق الامتثال ، والاستجابة لأداء الواجب الذي افترضه الله {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} (٦) فاللام في قوله : {لِلَّهِ} هي التي يقال لها لام الإيجاب والإلزام ، ثم زاد هذا المعنى تأكيداً حرف "على" فإنه من أوضح الدلالات على الوجوب عند العرب ، فذكر الله سبحانه الحج بأبلغ ما يدل على الوجوب تأكيداً لحقه ، وتعظيماً لحرمة .

وفي الحج تتحقق درجات الصبر الثلاث : الصبر على الطاعة ، والصبر عن المعصية ، والصبر على أقدار الله مما يصيب الحاج من المشقة والجهد والعنت وفقد المال ، وبعد الأهل والأحباب ، وهو تدريب واقعي للمسلم على الصبر والطاعة ، وآثاره تظهر في حياة المسلم الذي يؤدي هذه الفريضة .

كما أن الحج مدرسة للبذل والتضحية والعطاء : فهو يتعلم دروساً في البذل والتضحية ، ولذا كان الحج باباً من أبواب الجهاد ، أليس الحاج يترك وطنه وأهله وأحبابه ؟ أليس الحاج يبذل المال قربة لله ؟ أليس الحاج يجهد نفسه، ويخلع ثيابه ، ويتجرد من كل شيء طاعة لله وامتنالاً لأمره ، وهذا لون من ألوان الجهاد بالنفس والمال والوقت .

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٦ - ص ٩٧٨٢ - ٩٧٨٥

(٢) سورة الحج : آية رقم (٢٨)

(٣) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١٦ - ص ٩٧٨٥ - ٩٧٨٨

(٤) الشيخ محمد متولي الشعراوي : تفسير الشعراوي - م ١١ - ص ٦٨٢٠

(٥) أبو عبد الرحمن عرفة بن طنطاوي : عناية الإسلام بتربية الأبناء كما بينتها سورة لقمان - ص ٥٩٢ - ٥٩٦ بتصرف / وأنظر موقع إمام المسجد الإلكتروني -

موضوع : أثر الحج في تزكية النفوس .

(٦) سورة آل عمران : آية رقم (٩٧)

وفي الحج تذكير بالموت ويوم المحشر : فهو يذكر المسلم بيوم الحشر ولقاء الله ، وذلك إذا تجرد الحاج من ثيابه ولبى محرماً ، ووقف بصعيد عرفات ورأى كثرة الناس ولباسهم واحد يشبه الأكفان ، وهنا تجول الخواطر في مواقف سيتعرض لها المسلم بعد وفاته ، فيدعوه ذلك للاستعداد لها ، وأخذ الزاد قبل لقاء الله .

في الحج تعويد للمسلم احترام ما حوله من شجر وحجر ، وأن يقف عند حدود الله ولا يتعداها ، فلا يجوز له أن يقطع الشجر ، ولا يقتل الصيد أثناء إحرامه ، ولا يأخذ لقطة ، قال الله تعالى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بِالْغُلَبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ{١}

كذلك في الحج تتحقق معاني الأخوة والوحدة والألفة والمحبة ، فتري في موسم الحج يتحقق قول الله تعالى إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ{٢}

جزاء الحج المبرور الجنة ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا ، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ " (٣)

وورد عن أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ ، وَلَمْ يَفْسُقْ ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ " (٤)

(١) سورة المائدة : آية رقم (٩٥)

(٢) سورة المؤمنون : آية رقم (٥٢)

(٣) حديث شريف : أخرجه الإمام البخاري - ٢/ ٣ برقم (١٧٧٣) / وأنظر الإمام مسلم ٤ / ١٠٧ برقم (١٣٤٩) (٤٣٧) وانظر الإمام النووي رياض الصالحين كتاب الحج ص ٣٥٨

(٤) حديث شريف: أخرجه الإمام البخاري - باب الحج ٢ / ١٦٤ برقم (١٥٢١) والامام مسلم ٤ / ١٠٧ برقم (١٣٥٠) وانظر الإمام النووي رياض الصالحين كتاب الحج ص ٣٥٨

النتائج والتوصيات

توصلت الدراسة الموسومة بعنوان (تزكية النفس الإنسانية في فكر الشيخ محمد متولي الشعراوي - دراسة تحليلية) إلى النتائج والتوصيات التالية : ونبدأ أولاً بالنتائج فنقول وبالله التوفيق :

١- أظهرت الدراسة أن شخصية الشعراوي تكونت في بيئة اجتماعية ودينية محافظة في دلتا مصر، وأن هذه النشأة المبكرة بما فيها من حفظ القرآن والتلمذ على علماء الأزهر شكلت الأساس العقدي والروحي لفكره التربوي كما أن تنقله بين مجالات التعليم والوعظ والقضاء الشرعي والإعلام ، ومسيرته العلمية والثقافية كان لها أثر بارز في تشكيل رؤيته التزكية ، ومكنه من صياغة خطاب سهل ومؤثر، وموجه لعامة الناس وخاصتهم ، ومنحه خبرة واسعة مكنته من فهم واقع الناس ومشكلاتهم النفسية والسلوكية، وبناء خطاب إصلاحي عملي يرتبط بالحياة اليومية ، نلاحظ من خلال سيرته ومسيرته أنه اهتم بإحياء قيمة القدوة العملية، وقدم في ذاته وحياته نموذجاً للتزكية السلوكية، وجمع بين الورع والاعتزان والخشية والصدق، وهي عناصر ينبغي أن تتوفر في كل مرب وداعية .

٢- تبين من الدراسة أن الشيخ محمد متولي الشعراوي قدم رؤية تربوية متكاملة لتزكية النفس ، تقوم على الجمع بين نصوص الوحي ، والخبرة الوعظية ، والتحليل الواقعي لأدواء النفس البشرية ، مما جعل طرحه يجمع بين العمق الشرعي والبعد العملي .

٣- ظهر جلياً من الدراسة أن البنية الفكرية للشعراوي تتميز بدمج عميق بين المعاني القرآنية والواقع العملي ، فهو لا يكتفي بالشرح اللغوي أو التفسير الفقهي ، بل يتجاوز ذلك إلى تفسير نفسي سلوكي للنص القرآني ، متخذاً من الآيات مداخل لمنهج تركوي شامل ، مما جعل فكره قريباً من منهج السلف في نقاء العقيدة بدون تكلف ، وقريباً من منهج الإمام أبو حامد الغزالي في معالجة أمراض القلوب والباطن .

٤- أكدت الدراسة أن مفهوم التزكية عند الشعراوي يركز على تطهير النفس وتنميتها معاً ، أي الجمع بين التخلية من الرذائل والتحلية بالفضائل ، باعتبارهما جناحي الارتقاء الروحي والسلوكي وركنين مترابطين : التخلية من الرذائل : كالكبر، والهوى ، والغفلة ، والرياء، وحب الجاه .

والتحلية بالفضائل : كالإخلاص ، والصبر، وحسن الخلق ، والمداومة على الطاعة.

وهذا التوازن بين التخلية والتحلية اعتبره الشعراوي شرطاً جوهرياً في بناء النفس الإنسانية المطمئنة ، وهو ما يتوافق مع منهج القرآن في الإصلاح { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا }

٥- بينت الدراسة أن الشعراوي قسم النفس البشرية إلى مراتب متدرجة حسب حالاتها وأوصافها والتي تندرج جميعها حول : الأمانة واللومة والمطمئنة ، وربط الارتقاء بين هذه المراتب بعوامل أهمها : استقامة القلب ، قوة الإرادة الإيمانية ، ومجاهدة الهوى ، ويرى أن النفس البشرية تنتقل في مراتبها المتدرجة بينها وفقاً لدرجة الاستجابة لنداء الإيمان والالتزام بالأمر الرباني أفعل ولا تفعل ، وربط الشعراوي هذا الانتقال بقدرة الإنسان على ضبط غرائزه ، وصدق التوجه إلى الله سبحانه.

٦- خلصت الدراسة إلى أن الشعراوي اعتنى ببيان أمراض النفس التي تعيق التزكية ، وقدم تشخيصاً دقيقاً لأمراض النفس ، وعدها عوائق مركزية أمام التزكية ، ومن أبرزها :
الغفلة : باعتبارها أصل الانحرافات السلوكية .
الهوى : وهو مظهر ضعف الإرادة وتقديم الشهوة على العقل والشرع .
التقليد الأعمى : الذي يسلب الإنسان وعيه واختياره ، ويمنعه من إدراك الحق .
معتبراً أن معالجة هذه المعوقات شرط أساس لتحقيق التزكية ، وتجلّى في شرحه ميل واضح إلى الفهم التحليلي لأسباب الانحراف النفسي وطرق علاجه .

٧- أوضحت الدراسة أن الشعراوي ينظر إلى التزكية بوصفها مشروعاً إصلاحياً مزدوجاً للفرد والمجتمع معاً، إذ إن صلاح النفس يثمر صلاح السلوك ، وبالتالي صلاح المجتمع ، في ضوء ما يتيح الإيمان من تهذيب ورقابة ذاتية ، كما أنه يربط بين إصلاح السلوك وإصلاح الإيمان ، فكل انحراف سلوكي مرده ضعف في التوحيد أو في اليقين بالله ، لذلك بنى منهجه التزكوي على تأصيل التوحيد وتعظيم الربوبية ، لاعتقاده أن النفس لا تزكو إلا إذا امتلأ القلب بمعرفة الله وخشيته .

٨- توصلت الدراسة إلى أن الشعراوي أكد على مركزية الفضائل في بناء النفس الزاكية ، مثل : المداومة على الطاعات ، التخلق بالأخلاق الفاضلة، التواضع ، كظم الغيظ ، والإحسان للناس، ورأى فيها ثمرات عملية للتزكية وليست مجرد مفاهيم نظرية ، واعتبر أن المداومة على الطاعة، وليس مجرد ممارستها ، هي التي تنتج أثراً تربوياً طويل المدى، كما ركز على فضائل الأخلاق باعتبارها ترجمة عملية لحالة التزكية في واقع الحياة اليومية .
٩- أشارت الدراسة إلى أن الشعراوي ركز على أن أساس التزكية هو التوحيد الخالص والافتداء برسول الله ﷺ ، باعتبارهما الإطار العقدي والتربوي الذي تُصاغ في ضوئه شخصية المسلم .

١٠- بينت الدراسة أن الشعراوي يعطي للعبادات دوراً محورياً في تزكية النفس ، وينظر إليها باعتبارها وسائل تربوية لإعادة بناء النفس ، فالصلاة تُنشئ الرقابة الذاتية وتقوم السلوك ، والزكاة تُربي الإحساس بالآخر وتطهر المال والقلب ، والصيام يعلم الصبر ويربي الإرادة ويقوي التقوى ، والحج يرسخ معاني التجرد والتواضع والخضوع ووحدة الأمة ، ويحقق الأخوة والألفة والمحبة والتعاون ، وهذا التصور جعل من العبادات في فكر الشعراوي ليست مجرد شعائر وطقوس شكلية أو جامدة تؤدي بلا معنى ، بل برامج سلوكية متكاملة .

١١- أظهر البحث أن الشيخ الشعراوي يرى في مجاهدة النفس والهوى شرطاً لا غنى عنه للوصول إلى النفس المطمئنة ، وأن المجاهدة تشمل ضبط الشهوات ، والصبر على الطاعة ، ومقاومة دواعي المعصية.

١٢- أظهرت الدراسة أن فكر الشعراوي يحمل أبعاداً إصلاحية تتجاوز الفرد لتشمل المجتمع ، فصلاح النفس في نظره هو نقطة الانطلاق لبناء مجتمع مستقيم ، قائم على قيم الأخوة والعدالة والرحمة والإخلاص والعمل الصالح .

١٣- ظهر من خلال هذه الدراسة أن خطاب الشعراوي التزكوي يتميز بالاعتدال والاعتدال ، فهو يجمع بين الترغيب والترهيب، وبين العقل والقلب ، وبين معالجة الظاهر والباطن ، مما جعله نموذجاً قابلاً للتطبيق في الواقع

المعاصر، بفضل سهولة لغته ، وعمق معانيه ، وقدرته على مخاطبة مختلف الشرائح الاجتماعية ، ومقبولاً على نطاق واسع ، مما يجعل منه ثروة تربوية ينبغي الاستفادة منها في مجالات التعليم والدعوة والتطوير النفسي .

ثانياً : التوصيات .

- ١- ضرورة العناية بالتراث السلوكي والتربوي للشعراوي من خلال جمع مادته التزكية من تفسيره ودروسه وخطبه، وتحقيقها في دراسات تحليلية معاصرة تُبرز نظريته في إصلاح النفس ، وضرورة إدماج مفاهيم التزكية في المناهج التعليمية والدعوية ، عبر الاستفادة من أسلوب الشعراوي الذي يجمع بين البساطة والدقة والعمق .
- ٢- الاهتمام بمعالجة أمراض النفس الإنسانية المعاصرة ، مثل : القلق والاكتئاب والاضطراب القيمي والانشغال بالمظاهر، والانغماس في الهوس الرقمي ، ضعف الصلة بالله ، واستلهاهم حلولها من رؤية الشعراوي القائمة على الإيمان والعبادة والذكر، والتوازن النفسي، وإحياء الضمير وإيقاظ الوعي، ومجاهدة هوى النفس .
- ٣- تشجيع الباحثين على إعادة قراءة تراث الشعراوي في ضوء تحديات الواقع ، وربط رؤاه التزكية بالتحويلات الفكرية والنفسية والاجتماعية المعاصرة ، مع تبني منهج الشعراوي في الدعوة المعاصرة ، القائم على الرفق والتيسير، وربط أحوال الناس بالقرآن ، وتقديم نماذج واقعية لإصلاح النفس ، بعيداً عن التعقيد الخطابي أو التنفير .
- ٤- الاستفادة من منهج الشعراوي وأدواته التحليلية ولغته الروحية المؤثرة في الجمع بين التخلية والتحلية في التربية السلوكية ، بحيث لا يكتفى بترك الرذائل ، بل تغرس مكانها الفضائل والأخلاق الإيمانية .
- ٥- تطوير مناهج تربوية في مؤسسات الأسرة والتعليم والمساجد تعنى بترسيخ مفهوم " المجاهدة الإيمانية" وضبط الهوى وإحياء الشعور بالمراقبة الذاتية ، وتعزيز دور العبادات في تحقيق التزكية ، وذلك من خلال برامج عملية تربط العبادات بمقاصدها العقدية والسلوكية ، كما أبرز الشعراوي في تفسيره ووعظه .
- ٦- تشجيع الباحثين على إجراء دراسات مقارنة بين منهج الشعراوي ومناهج علماء آخرين في التزكية مثل ابن تيمية والغزالي وابن القيم وغيرهم من علماء الأمة الربانيين ، بهدف إثراء الحقل المعرفي للتربية السلوكية الروحية الإسلامية من منابعها الأصيلة (القرآن والسنة) لمعالجة ما طرأ في عصرنا من بدع ومخالفات عقدية تحت مسمى بعض الطرق الصوفية .
- ٧- توجيه الشباب نحو قراءة تفسير الشعراوي والاستفادة من دروسه ، لما فيها من تبسيط لمعاني القرآن وربطها بالمشاعر الإنسانية وواقع الحياة ، وتعزيز استخدام الإعلام في نشر قيم التزكية على خطى الشعراوي الذي قدم نموذجاً فريداً في استخدام المنابر الإعلامية لخدمة القرآن والدعوة وإصلاح القلوب بالحكمة والموعظة الحسنة .
- ٨- الاستفادة من منهج الشعراوي في خطاب الوحدة الأخلاقية للمجتمع ، من خلال نشر قيم التسامح، وتربية النفس على كظم الغيظ ، وحسن المعاملة، وتزكية العلاقات الاجتماعية، بما يسهم في بناء مجتمع متماسك روحياً وأخلاقياً.